الباب الرابع

النجـد المرتفـع

الرابع من نوفمبر إلى الرابع من ديسمبر ١٩٣٦م

الفصل السابع عشر

الطريق إلى حبونا

ينطلق وادي الإثايبة عند الزاوية الشمالية الشرقية لسهل سعيد، إلى خارج التلال المحيطة، ليدخل إلى مجرى حصوي واسع يجري بدوره أسفل السلسلة التي تسد السهل من ناحية الشرق إلى أن ينقسم إلى مسارين متوازيين، ليعبر بعد ذلك طريق السيارات الرئيس الذي يقع قليلاً ناحية الشرق من آل منجم ويتصل آخر الأمر مع وادي نجران قليلاً فوق فجوة الدريب، والتي عن طريقها يعبر وادي نجران إلى الصحراء.

تقف هضبة صغيرة من البازلت بالقرب من منفذ الوادي من عند التلال، ويبلغ ارتفاعها حوالي (٥٠) قدماً، ويوجد عند قاعدتها مقبرة، ربما كانت مقبرة تضم رفات الحجاج الذين سقطوا أثناء الطريق، ذلك لأن هذا هو الطريق المسلوك العادي -درب الجمال- المؤدي إلى مكة ذلك قبل افتتاح طريق السيارات الجديد الذي يقع قليلاً ناحية الشرق.

يتملكني العجب إن لم يكن هذا هو درب الفيل القديم مرة أخرى، غير أن هذا التفكير لم يكن صحيحاً، إذ أن درب الفيل يقع بعيداً ناحية الغرب، برغم أن مرشدي الجديد، واسمه مسفر، لم يسمع به قط. كان مسفر على كل حال، مرشداً محلياً جيداً وكان يعترف فقط بأنه ملم بالطريق إلى حبونا، كان كل ما استطعت رؤيته عن نجران من عند قمة عان بريم هو نخيل المخلاف الذي يمتد من عند آل منجم إلى طعزه، وبعض القمم على الجانب الآخر من الوادي حتى عرير.

توجهنا إلى أعلى مجرى الإثايبة، الذي بدأ يضيق تدريجياً بين رعني سلسلة السوادة التي تقع على يسارنا وسلسلة شريم قليلاً إلى الوراء على جانب الوادي الأيسر. كانت هنالك أشجار طلح على جانبي بطن السيل، غير أننا كنا نسير مدة تقل عن نصف الساعة -أي أكثر قليلاً من الميل الواحد، ويعزى ذلك لأن سرعتنا لم تزد عن ميلين ونصف الميل في الساعة- إلى أن وصلنا إلى الفم العريض لرافد يسمى شعيب سيلة الذي التففنا من حوله تجاه الشمال الغربي. يمكننا من هذا الموقع رؤية رأس وادي الإثايبة على مسافة ميلين داخل التلال المنخفضة التي ينبع منها وهو شعيب غير مهم. كان سلية رافداً أكثر منه مجرى، وكان بطنه متعرجاً وتنمو في بعض أجزائه أشجار الطلح وبينما تكون أجزاء أخرى منه عارية من النبات. تلتقي معه هنا وهناك روافد صغيرة أخرى، ويضيق سيلة سريعاً بين صخور غريبة شديدة الانحدار حتى يصبح على بعد ميلين ونصف الميل من فمه وقد صار عرضه (٥٠) ياردة فقط، وكان عبوره صعباً جداً.

اتفق آل جابر على إمدادنا بالرجال الذين يشرفون على أمر جمالنا، وهم من آل فاطمة، وكانوا كلهم يسيرون على الأقدام، يغنون طيلة الوقت ويرقصون أثناء سيرهم. كانوا يبدون وهم سعداء جداً أثناء سيرهم. وصل رافد سيلة إلى رأسه، بعد مسافة ميل آخر وقد كان يتلوى ويدور وهو يصعد، عند جلاميد منتثرة على خلفية لصخور سوداء شديدة الانحدار. نزلنا عن ظهور دوابنا لنسير على أقدامنا ونقود الجمال عبر الممر الشديد الانحدار الشديد الخطر والذي تم قطعه بين الصخور والصاعد إلى العقبة على ارتفاع (٢٥٠) قدماً فوق رأس الرافد حيث اكتشفت أننا قد بلغنا ارتفاعاً يقارب (٦٠٠) قدم فوق مستوى سهل سعيد. كنا نصعد، بالطبع، طيلة الوقت دون أن نحس بذلك.

توقفنا قليلاً عند قمة الممر لنسمح لكل حيواناتنا أن تصل ولتحديد القافلة وقد انتهزت هذه الفرصة لأتسلق إلى بقعة على السلسلة عند ارتفاع (١٥٠) قدماً من هذا الموقع، وحوالي (١٠٠٠) قدم فوق نجران، التي كنت آمل أن أراها. يبدو أن هذه السلسلة متوضعة إلى الخلف وأنها أقل ارتفاعاً من التلال التي تشاهد حول سهل سعيد، وكان عليَّ أن أكتفي بإلقاء النظرة الأخيرة على تنصاب التي تقع إلى البعيد ناحية الشرق وعلى بعض من مجموعة بني كلب[١] في رمال الصحراء. يقع رأس شعيب الرغام على مسافة ميل واحد ناحية الشمال الغربي من موقعنا الذي سيهبط إليه طريقنا من الممر، الذي نسير فيه بعض المسافة إلى الخلف وحتى مجرى الرغام لا توجد أي علامة لطبقة الغطاء من الحجر الرملي فوق الجرانيت غير أنه فيما يلي أرغم فإن كل قمم السلاسل تحمل هذا الغطاء العادي بدرجة من الكثافة تقل أو تكثر.

أمضى رفاقي وقتهم في إعداد القهوة التي رحبنا بها كثيراً قبل مواصلة المسيرة. كما حلق صقر عالياً فوق العقبة أثناء تناولنا للقهوة لعله يتجسس لمعرفة ما نقوم به. وذكر أناس من آل فاطمة أن هذه الصقور[٢] كثيراً ما تلتقط حملانهم، وتفترس عادة الأرانب البرية والغزلان الصغيرة. تقع مقبرة صغيرة على جانب شعيب الرغام، مكونة من قبور بدائية (لحجاج أو بدو)، وشعيب الرغام مجرى رملي تنمو عليه بعض أشجار العلب (السدر) الصغيرة وبعض الطلح ويجري من جهة الشمال الشرقي بين منحدرات سهلة. تتبعناه مسافة ربع ساعة وتحولنا عنه

(١) يذكر البلادي أن (أكلب) هي جبل بني أكلب، انظر: **بين مكة وحضرموت**، ص ١٩٥ . (ابن جريس).

(٢) لعلها من جنس (Lammergeirs) ويسمونه عيذة عند عرب منطقة الطائف. (المؤلف).

ناحية الشمال فوق الدلتا العريضة لشعيب جرثم، الذي تركناه سريعاً باتخاذنا لرافد آخر لنصل إلى ممر على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعلى مستوى الارتفاع نفسه لممر سيلة. هبطنا من هذا الموقع ناحية الشمال الغربي على منحدر صعب إلى حوض تلي تجاه مجرى جار الطويلة، كنا خلال ذلك نميل إلى الالتقاء مع طريقنا من عند التلال التي على يسارنا (على مسافة ميلين). كان هذا الشعيب جافاً وعارياً من الغطاء النباتي عدا قليل من شجيرات العوسج وشجيرات الطلح، وهو يمتد حتى شعب عرقان الذي يرفد وادي حبونا.

قمنا بمقابلة مجموعة من القحطانيين برئاسة محمد الجرب من مجموعة ظهرة سنحان، وقد جاؤوا بأغنامهم لبيعها في سوق نجران، لقد قدموا من عند الأمواه[1] عبر البلاد، وقد وصلوا إلى هنا خلال ثلاثة أيام. اتجه المجري سريعاً ناحية الشمال الغربي والغربي ليدور حول سلسلة معترضة، صعدنا عليها سالكين الدرب حتى وصلنا إلى مضيق من قمتين يسمى المنقطع، يرتفع حوالي (١٠٠) قدم فوق آخر مضيق ويطل من فوقه منزل قديم من بلكات مشذبة ذات لون أصفر من حجارة رملية، كانت مساحة البناء كله عشرة أقدام مربعة، غير أنه يبدو قديماً بسبب تآكله بعوامل الطقس وبسبب وجود نقوش حميرية من حروف قليلة عليه. كان ارتفاعه أربعة أقدام فقط، غير أن الجزء الأعلى ربما يكون قد سقط عنه. نستطيع من هنا رؤية ثلاثة من العلامات الأرضية لنجران وهي: أم خرق، العبلاء، وعرير. تقع إلى البعيد ناحية الغرب القمم البعيدة لغثمة ولعلها تطل على

(١) منطقة الأمواه، تقع إلى الشمال مباشرة من حوض وادي حبونا، أي من شمال منطقة نجران، ويحتل المجرى الأعلى لوادي تثليث بعد انتهائه من سراة قحطان. للمزيد انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤١٨ ــ ٤١٩ . (ابن جريس).

قرية بالاسم نفسه على طريق نجران - ظهران[١]، وتقع سلسلة الضحي الحجرية الرملية العالية في وادي حبونا ناحية اليمين.

انطلقت الجمال أمامنا هابطة الطريق المنحدر لتنتظر أسفل وقد وصلنا إليها في حوض جار الطويلة الذي برز الآن من حول السلسلة إلى الطريق. تتبعنا المجرى عبر التلال البازلتية الصعبة والتي شمخت إلى الأعلى من فوقنا وعلى الجانبين كأنها واد ضيق منحدر الجنبات ينساب في أدناه جدول. اتسع هذا الجدول فيما يلي مدخل رافد آخر يسمى نعو وبدأنا نشاهد نقوشاً ثمودية على الصخور تمثل العرض العادي لصور البشر مرتجلين أو ممتطين ولصور الأحصنة والجمال والكلاب ولتمثيل غير عادي، لكنه جذاب لرجل وذراعاه ممتدان وأصابعه مفرودة (دون تناسق في النسب) ولعله قصد به أن يكون راقصاً. كان هنالك رسم للدلو العادي (وعاء الماء) مما يدل على وجود الماء، بالإضافة إلى نقوش حجرية أخرى باهتة، تبلغ في مجموعها (٣٧) نقشاً موزعة على تسعة توقيعات من الصخور. كما وجدت صورة واضحة جداً لجمل باللون الأصفر الضارب للحمرة على مسافة قصيرة على إحدى الحجارة، أيضاً وجدت كتابات هامة أخرى مكونة من عشرة مجموعات (أو حروف كتابية) لشكل غير مألوف وملفت للانتباه، بينما حملت صخور أخرى نقوشاً كان عدد حروفها (١٧) حرفاً، يبدو أننا قد وصلنا إلى ما يمكن وصفه بأنه مصيف مرغوب للقدماء وسرعان ما وصلنا إلى ملتقى جار الطويلة مع شعيب عرقان[٢].

(١) ظهران: يقصد بها ظهران الجنوب إحدى محافظات منطقة عسير الجنوبية. (ابن جريس).

(٢) عرقان:ـ ربما أطلق عليه أيضاً اسم (عرجان). (ابن جريس).

رأينا أن نعسكر هنا، تلك الليلة، ذلك لأنه يوجد وعلى بعد قليل من شعيب عرجان موقع الشرب يدعى دحنة عبارة عن ثقبين مائيين في الرمال من النوع الذي يسمى مشاش. إذ يوجد الماء عند عمق أربعة أقدام أسفل سطح الرمال ولذلك يسهل الحصول عليه. ينحدر هذا المجرى، فيما يبدو، من عند تلال ضحى التي كنا قد رأيناها من عند ممر المنقطع. وقد انحصر هذا المجرى في مضيق صخري فوق المتلقى.

يبدو أن الصخور هنا كانت مثالية بما حوته من النقوش القديمة، ولكن، باستثناء رسومات بدائية جداً لبعض الحيوانات وبعض الفرسان، فلم يكن هنالك ما يثير الاهتمام بينها عدا علامة واحدة دائرية وفي مركزها نقطة (ربما تعني بئراً أو موقع شرب) وبجوارها عمود بدائي كانت إحدى صفحاته تحمل (٢٨) نقطة متتابعة من أعلاه إلى أسفله. تشير هذه النقاط إلى المسافة بالخطوات إلى حيث موقع الماء (عادة تكون خطوات مزدوجة)، وقد وجدت أن موقع الشرب الأسفل كان على بعد (٢٩) خطوة من خطواتي من عند العمود. تفصل مسافة تقدر بـ (٢٠٠) ياردة بين البئرين وقد كانت البئر السفلى منهما -بالمناسبة- جافة في هذا الوقت علماً بأنه وبمجهود بسيط يمكن الوصول إلى مائها.

استمعت في هذا المكان عن طريق جهاز اللاسلكي إلى خبر انتخاب الرئيس الأمريكي روزفلت لدورة حكم ثانية واستمعت كذلك إلى إنذار الحكومة البريطانية إلى الحكومة العراقية الجديدة لاحترام بنود اتفاقية التعاون بينهما. لم يتوقع لنظام بكر صدقي أن يعيش طويلاً، وذلك لأن اغتيال جعفر قد هز الرأي العام ولم يتضح بعد إن كان الجيش يقف صفاً واحداً خلف الدكتاتور الجديد[1]. كما

(١) لمزيد من التفاصيل عن أوضاع العراق السياسية في منتصف القرن الهجري الماضي، وبخاصة في الفترة التي قام فيلبي بها في رحلته إلى جنوبي البلاد السعودية، انظر: صلاح العقاد. **المشرق العربي المعاصر** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م) ص ١٩٠ ــ ١٩٧ . (ابن جريس).

استمعت في التاسع والعشرين من أكتوبر للرجاء الذي أذاعه المندوب السامي لفلسطين بعدم مقاطعة اللجنة الملكية. وهكذا، حتى في العراء البري، يقدم الشكر لجهاز اللاسلكي، الذي يمكن المرء من أن يظل على اتصال مع الأخبار السائدة لهذا العالم العظيم.

كانت إذاعة القدس أسهل الإذاعات التي يمكن التقاطها، كما كانت إذاعة القاهرة جيدة، وقد كنت أستطيع الحصول على إذاعة لندن أيضاً. كانت أدنى درجة للحرارة أثناء الليل في سهل سعيد متدنية إلى حدود (٤ ,٣٧) درجة وكانت (٤٣) فقط عند الساعة السابعة صباحاً، بينما هنا، في شعيب عرقان، كانت درجة الحرارة هي (٣٨) و (٥ ,٣٩) درجة بالتتالي. يرتدي الكثير من أتباع قبيلة آل فاطمة مقاطف من صوف الأغنام، وقد رأيتهم يلتفون في الصباح حول النار، وهم واقفين وقد رفعوا أُزرهم ليسمحوا للدفء أن يصل إلى أرجلهم وتفرعاتهم. لقد تمكنت من النوم بارتياح تحت بطانيتين وعباءة من فوق المعطف الكاكي ومنشفة الحمام فوقها كلها لأجل امتصاص الندى، وقد لففت كوفيتي حول رأسي للوقاية من الندى أيضاً.

أصابت ساعات الصباح الباردة رفاقي بالكسل إذ لم نبدأ بعمل شيء إلاَّ عند الساعة التاسعة صباحاً. أعتقد أننا الآن على ارتفاع (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، أي أعلى قليلاً من نجران. تتكون مجموعتنا مني ومن محمد بن خليف أحد أتباع النشمي وهو الرئيس الإسمي للمجموعة، ومحمد بن هذيل، الذي يصفه الأمير على أنه طباخ عام، وفرج بن قرقح مرشدي الرئيس والصياد الرئيس، وسعد بن عثمان، فني تصبير الطيور، ومعد أسرة النوم، وهو رجل يستخدم لأداء ضروب مختلفة من العمل. ومسفر وهو من أبناء آل فاطمة، وهو

مرشد ذو أهمية قليلة، وغريب من نفس الطبقة أيضاً ويعمل كمرشد، وأخيراً عدد ثمانية رجال -يعتبر خمسة منهم أكثر من الحاجة- وذلك للعناية بالجمال كان قد فرضهم عليَّ جابر أبو ساق ليمكنهم من اكتساب بعض المال لأنفسهم. وأخيراً وليس آخراً، فقد كان معنا (١١) جملاً، وكان الجمل الذي خصص لي وحشاً ذا خطوات ناعمة بدرجة مدهشة. بدأنا، على أية حال، رحلتنا. غطينا في اليوم الأول مسافة سبع ساعات ونصف الساعة بما في ذلك التوقف المتكرر وكان السير الفعلي أكثر من (٤,٥) أربع ساعات ونصف الساعة، أو ما يعادل (١٢) ميلاً. لم أكن في عجلة من أمري ويبدو أن كل شيء كان يسير على ما يرام.

تحركنا أسفل شعيب عرقان تجاه الشمال، مارين بمجموعة قبور كبيرة بدائية البناء وليست ببعيد من موقع معسكرنا. سرعان ما مررنا بمدخل شعيب مرع على يسارنا ووصلنا إلى الدلتا العريضة لشعيب شبرك الذي يقع أيضاً إلى اليسار، ينبع كلاهما من سلسلة تقع إلى الجنوب الغربي من موقعنا وهي ليست ببعيدة. يتباين عرض شعيب عرقان نفسه ما بين (٣٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة، وتوجد على جانبه الأيمن جلاميد مرتفعة إلى (٨٠٠) أو (٩٠٠) قدم، غير أنها تنحدر إلى الخلف في لطف تجاه السلسلة على الجانب الآخر. لقد سرت راجلاً على قدمي حتى هذا الموقع، غير أنني الآن قد امتطيت جملي لمواصلة المسيرة، وقد غطيت فقط ميلين ونصف الميل حتى الآن. قابلتنا في الطريق امرأة ومعها ثلاثة أطفال صغار وجمل يحمل أغراضها المنزلية وهي في طريقها إلى أعلى، سرعان ما وصلنا إلى ما يفيد بوجود المياه ووجدنا بعض النقوش القصيرة (مكوِّنة من ١٣ حرفاً) على الصخور إلى يسارنا. ضاق الوادي فجاة وأصبح عرضه (٥٠) ياردة بين جلاميد عمودية سوداء، ثم انبعج فجأة إلى مجرى عريض كثيف الأشجار. يوجد هنا بعض الرعاة

من قبيلة آل سليم (آل فاطمة) ومعهم ماعزهم الأسود اللون ذي اللحية البنية اللون على الخدين. كانوا يقودون قطعانهم في هذه الأنحاء للشرب من عند دحنة وتوقفت تتابع العلامات الدالة على وجود ماء عن قرب إذ لا فائدة منها، إلاَّ إذا قصد بها أن تكون علامات تقود إلى دحنة.

مررنا بالعديد من علامات الماء هذه، كان أحدها مصحوباً بتسع نقاط وكان على آخر صفين كل منهما من ثماني نقاط (إجمالي ١٦ نقطة). لا بد أن تكون هذه قد أعدت أصلاً للإشارة إلى مياه قريبة، غير أن الوادي، الذي يجري الآن بين جلاميد عالية، بدا وكأنه قد جف. كانت توجد نقوش على هذه الصخور، ثلاثة منها ذات (٣٩) حرفاً في جملتها، كما مررنا بعلامة للمياه ذات ست أو سبع نقاط. كما كان هنالك رسم بدائي لجمل ومعه نقش من ثلاثة حروف.

دَخلَت إلى الوادي عدة شعيبات صغيرة، على مراحل، حتى وصلنا آخر الأمر إلى ملتقى ثلاثتها مع ثلاثة شعيبات أكبر منها هي، كلبة ونطاطة من اليسار واليمين بالتتالي، وأجضة من الأمام. كون اتحاد هذه المجاري سهلاً كبيراً حيث أشار مرشدي إلى بقايا معسكر نزل به الجيش السعودي عام ١٩٣٤م مكث فيه أياماً قليلة في طريقه إلى نجران سالكين طريقنا الذي جئنا به. كانت هنالك تلك العلامات العادية لنيران المعسكر وحجارة مرتبة في ثلاثات لتجلس عليها قدور الطبيخ، غير أن النموذج الأكثر وضوحاً كان المصلى. الذي حددت أضلاعه بالحجارة، مع موقع محراب القبلة كاملاً. كان بجوار هذا صخرة عليها نقوش صغيرة ومجموعة من الجمال. توقفنا هنا لتناول القهوة في ظلال الأجمات الوافرة لنبات المرخ والذي كانت أفرعه الشبيهة بالرتم مملوءة بالآفات الزراعية، ونبات العبل (الأرطى) منقطة الفرجات العشبية بنبت الضاع.

يتجه شعيب عرقان الآن ناحية الشمال الشرقي وقد كان عرض الوادي نفسه حوالي نصف الميل. قابلتنا الكثير من الرسومات والنقوش خاصة ذلك الرسم الذي اشتمل على فارس رافعاً رمحاً فوق رأسه. اتصل شعيب سهي، بعد مسافة إلى أسفل، وهو شعيب ذو مجرى عريض وضحل، مع عرجان من عند سلسلة منخفضة تقع إلى يسارنا، وقد قمنا بمتابعة سهي، تاركين المجرى الآخر ليعبر بقية مساره تجاه الجنوب الشرقي إلى وادي حبونا، والذي يتصل بسلوى إلى الأسفل، ومررنا بمقبرة ثانية ويبدو لنا، بالمناسبة، أننا لم نعد سائرين على طريق الحج الذي يتجه من عند عقبة سيلة في اتجاه غربي إلى ظهران ليتصل هناك مع درب الفيل. تكون هذه المقابر الأخيرة، على هذا الأساس، مقابر البدو.

استطعنا من هنا رؤية مجرى حبونا، وهو ليس بالبعيد ويقع عند نهاية شعيب عرجان، غير أن طريقنا مضى بنا عبر رافد إلى ممر صعب منخفض يسمى نجد سهي، إلى السلسلة، والتي إلى ما ورائها، تتبعنا مسيلاً صغيراً يسمى شعيب مرزا لندخل وادي حبونا نفسه ويقع قليلاً قبل سلوى. كانت هنالك نقوش كثيرة ورسومات في مجرى وممر سياح، كما كانت توجد في مجرى سهي أيضاً مجموعة حلقات من حجارة، وأساس قاعدي لجدار، وهذا يوحي بموقع لمستوطنة قديمة غير أنها بلا شك صغيرة. مررنا بالقرب من هذه بكتلة دائرية ملساء جرانيتية، كأن كل منها قنبلة وكانت أبعادها (١٨ x ١٢ x ٩) بوصات. كانت عليها علامات يصعب فك كنهها، أو نقش، والغريب في الأمر، أن هذا الجسم كان معروفاً للبدو باسمه إذ كان اسمه مشك على (Mishak 'Alye)، ويعود أمره في الروايات المحلية إلى أبي زيد (من قبيلة بني هلال)، والذي يقال إنه كان دوماً يحمله معه أينما ذهب. ربما كان هذا الجسم صنماً قديماً، برغم أن شكله في

وضعه الحالي لا يبدو مثيراً للانتباه، كما كان ثقيلاً جداً وكبير الحجم مما جعل إضافته لمجموعتي أمراً صعباً، فتركته. لقد رأيت عدداً من هذه الكرات الجرانيتية في ممر نجد سهي غير أن سرها ظل مجهولاً.

كان شعيب مرزا مجرد مسيل ينحدر من عند سلسلة سياح ويصب في وادي حبونا، الذي برزت لنا منه أشجار الطرفاء الكثيفة وأشجار الطلح وشجيرات نموذجية أخرى إلى جانب قصر ونخيل سلوى. دخلنا الوادي من خلال مجموعة من أشجار الأثل ووصلنا إلى المعسكر بالقرب من البئر الرئيس بعد ربع الساعة. كان سطح الوادي رملياً ومكسواً بغابات كثيفة من أشجار وشجيرات خفيضة. وقد عبرنا بطن سيل الوادي قبل أن نصل إلى البئر. وكان سيل الوادي حوالي (٢٠٠) ياردة. يقع القصر بالقرب من البئر وقد أنشئ على السفح الحصوي للجانب الأيسر لمجرى السيل على ارتفاع (٤١٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان قطر فم البئر عشرة أقدام وكان صهريجها جيد التبطين بصخور جرانيتيه حمراء إلى مستوى سطح الماء عند عمق (١٣) قامة. كانت طبقات القصر السفلى من بلوكات من جرانيت أحمر مع طبقات طينية لصفها مع بعضها البعض ويقف فوقها كلها جدار من الطين ارتفاعه (٢١) قدماً. كان القصر دائري الشكل إلاَّ أنه مدمر جزئياً، وقد دمرته قوات الإخوان التابعة لابن قرملة[1] (قحطانيين)، أثناء تقدمهم نحو نجران.

يبرز مخرج وادي حبونا من بين التلال، من هذا الموقع، على مسافة ثلاثة أميال ناحية الغرب. يعتبر وادي ثار سيلاً جبلياً مهماً وقد كان مخرجه من عند التلال واضحاً لنا على مسافة عدة أميال ناحية الشمال الغربي على خلفية من قمم

(١) ابن قرملة:ــ أحد مشائخ قحطان نجد المشاهير، وأسرة آل قرملة مشهورة ولها تاريخ مجيد. (ابن جريس).

مدهشة، ثم يشق طريقه عبر السهل الحصوي شمال حبونا، ليتصل معه على بعد ميل واحد مع اتجاه النهر من سلوى في طريقه شرقاً تجاه الحصينية على الجانب القريب من الفجوة التي عن طريقها ينساب الوادي إلى الخارج عبر مضيق للحاجز التلي على الجانبين الذي يرى على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال إلى أسفل.

تفصل كتلة تلال مع سلسلة نبعة إلى البعيد تجاه السهل، بين هذين الواديين، ويجري شعيبها إلى قاعدة حبونا في جبل ديمة. يقع القصر، وهو البناء الثابت الوحيد في سلوى، قريباً من البئر ويطل عليها، بينما تقع على جانب منها مقبرة صغيرة، لم يكن هنالك بدو حول هذه البئر في هذا الوقت غير أننا لمحنا كلباً ضالاً. كانت أنثى سلوقية جميلة تحمل وسم قبيلة آل العرجاء[١]، من قبيلة آل رزق[٢]. قررنا أن نضيفها إلى فريقنا وأطلقت عليها اسم سلوى. كانت شديدة العطش حين وصولها إلينا فقد كانت تلعق بقناعة رطوبة الطين المتعفن الأسود المتجمع حول فم البئر. قدمنا إليها لحم ماعز نيئ، وقد كنا اشترينا هذا الماعز أثناء النهار في شعيب عرقان لأجل وجبة العشاء، ولكنها برغم جوعها، فقد فضلت الانتظار برفضها اللحم النيئ هذا، إلى حين تقديمنا لها لحماً مطبوخاً والذي التهمته في الوقت المناسب بشراهة. تدرب هذه الكلاب بعنف على ألاَّ تمس لحم الأرانب والطرائد الأخرى التي تقوم باصطيادها لأسيادها.

---

(١) كل قبيلة من قبائل الجزيرة العربية، وبخاصة التي تملك الإبل وتربيها، كان لها وسم خاص بها يوضع على الإبل التي تخصها، للمزيد انظر: هندي بن حمود الحيسوني. **وسوم الإبل عند قبيلة حرب** (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) آل العرجاء يعودون إلى بطن آل فاطمة الذي كبيرهم جابر أبو ساق، وآل رزق يعودون للمواجد الذي كبيرهم ابن نصيب، انظر: فؤاد حمزة، المرجع السابق، ص ١٧٧ ــ ١٧٨ . (ابن جريس).

ظهر سرب من طيور القطا فوق البئر وبعد نصف ساعة من بعد غروب الشمس غير أننا كنا قد سبقناه إلى هناك، إلاَّ أن طيور القطا كانت ملحاحة، إذ ظلت محلقة في دوائر أو هابطة قريباً منا أو تحاول القرب منا ماشية على أرجلها، حتى أصبت واحدة منها بالرصاص فطارت كلها بلا عودة، وقد كنا خذلناها في شربتها المسائية. عادت طيور القطا صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس بنصف ساعة، بينما أقبل نوع منقط منها وبأعداد كبيرة، وقد ارتفعت الشمس فوق الأفق وأصبح الجو دافئاً. سجل مقياس الحرارة نصف درجة مئوية تحت الصفر أثناء الليل وكان ذلك أول تجربتنا مع الصقيع، وكانت درجة الحرارة في الظل عند الساعة السابعة صباحاً حوالي (٣٨) درجة فقط. كان الصباح بارداً وقد تجمع زملائي حول النار. وقمت برصد درجة الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً تحت وهج الشمس مباشرة وبلغت (٧٧) درجة فقط. تناولنا عشاءً ممتازاً في المساء من لحم الماعز مع عصيدة الجرش -المصنوعة من القمح- لهضمه وسرني أن أرى رفاقي اليامين وهم يأكلون بنهم كأنهم لم يروا لحماً من قبل لعدة أسابيع.

أصاب الضَلَع أحد جمالنا، للأسف، أثناء النهار وكان علينا إرجاعه وانخفض بذلك عدد الجمال إلى عشرة.

أخبرني محمد النشمي وآخرون أن وادي ثار يستحق الزيارة لكثرة ما به من نقوش ورسوم على الصخور، وعليه فقد تقرر القيام بزيارة لهذه المنطقة قبل التوجه إلى واحات حبونا. لقد قمت باختيار وتحديد مضيق بارز يقع ناحية النهاية الغربية لسلسلة فحقة فيما يلي وادي ثار لعلي أطل من عنده على منظر جيد، ولما كان الطقس بارداً ولطيفاً عند الساعة التاسعة صباحاً، فقد رأيت أن أسير على قدمي إلى هناك عبر السهل الحصوي العاري العريض الذي يحيط به واديان. وصلت بعد

مسافة أربعة أميال إلى الجانب الأيمن لوادي ثار، وقد كنت أسير في خط مستقيم ما استطعت وأقيس المسافة بالخطوات، وقد هبطت بثمانية أقدام داخل المجرى الرملي. كان هنالك ثلاثة مجارٍ من هذه الشاكلة، ويبعد التل الذي أقصده مسافة الميل الواحد فيما وراء آخر هذه المجاري الثلاثة، وتبلغ المسافة الإجمالية من المعسكر في سلوى حوالي خمسة أميال.

كان السهل الحصوي مكسواً بأشجار الطلح، وكانت مجاري الأودية مغطاة بغطاء بزخم من الغطاء النباتي، منها: أشجار الطلح المتناثرة وشجيرات الخروع والكثير من الحرمل والمرخ وحشائش الضعة الخشنة. كانت هنالك أربع مجموعات من النقوش والرسوم على الصخور عند قاعدة المضيق، وليست ذات أهمية تذكر، إلاَّ من صورة لرجل يحمل في إحدى يديه قرصاً ربما قصد به آلة الرق (دف صغير) أو سنج كانت هنالك صورة لأرنب بري وأخرى لكلب، وخربشة ما.

يقود نتوء جبلي صغير حاد إلى قمة المضيق الذي من عنده تمتد سلسلة فحقه مسافة ميلين في اتجاه الجنوب الشرقي بينما تضم من جهة الغرب سهلاً صغيراً كثيف الشجيرات تحده من جهة الشمال سلسلة الحبشية. ويكون مجرى ثار متعارضاً عند قاعدة هذا المثلث. كانت هنالك تلال جبلية تقع بعيداً إلى الخلف وهي من جرانيت يعلوه حجر رملي قد تآكل وتمزق إلى أشكال غريبة مكوناً قمماً منها قمة الحرشف وقمة قثمة، والسلسلة الصخرية الرملية العالية المسماه قهرة العبل، خلف قثمة، وحبيجان وغيرها. توجد قمة عالية من جرانيت محطم على النتوء الحاد لفحقة عند منتصف المسافة إلى أعلى، والتي تبدو وكأنها على وشك السقوط في أية لحظة، كما كانت هنالك هضبات منخفضة عند قاعدة المضيق من حجارة خشنة، والتي ربما كانت قبوراً أو أطلالاً لمساكن صغيرة، وبعض الحلقات

المحددة بالحجارة، ولعل هذه تكون موقع معسكر لبدو. حلقت فوقنا بتكاسل ثلاثة من الصقور المصرية وغراب عندما كنا نتأمل المنظر العام بإعجاب.

امتطينا الجمال وقد حان وقت مواصلة المسيرة صاعدين وادي ثار، الذي كان عرضه في موقع خروجه من عند التلال نصف الميل بين سلاسل صخرية، وكان وادياً كثيف الأشجار. ساعد كل من شعيب رح من جهة اليسار، وشعيب صناخة من جهة اليمن على تكوين وادٍ دائري واسع يقع بين التلال. يضيق وادي ثار فيما يلي هذا السهل إلى عرض ٥٠٠ ياردة بين سلسلة قشمة إلى اليسار وسلسلة حبيجان على الجانب الآخر، توجهنا سريعاً بعد ذلك ناحية الشمال الغربي نحو مضيق مهيب محاط من الجانبين بجلاميد عالية من جرانيت وبازلت. توقفنا هنا عند منظر غريب لقط بري، ربما ظن القط أننا لم نره، فاختبأ بدلاً من أن يهرب. وسرعان ما قفز فرج من فوق ظهر جمله ليطارده وقد تمكن من إصابة الحيوان المتوحش الذي حاول يائساً التسلق المتكرر فوق الجلمود الشديد الانحدار غير أنه سقط وقد انكسر نخاعه الشوكي. يوجد الكثير من القطط البرية تسمى «اتفع»[١] في المرتفعات الصحراوية هذه غير أنه يصعب جداً العثور عليها ولقد سعدت تماماً بحصولي على هذه الجائزة الثمينة. كان القط البري في حجم القط المستأنس الكبير وكان شرساً جداً أثناء ما كنا نحاول وضع حد لآلامه.

وصلنا إلى وادي عريض -لا يزال هو وادي ثار- عند النهاية البعيدة لهذا المضيق والتي يبلغ طوله أقل من نصف الميل، ويوجد بئر يقع قريباً من الجانب الأقرب ويسمى عرق[٢]. كانت هنالك مجموعة من البدو معسكرين في جواره

(١) يوجد الكثير من القطط البرية في منطقة نجران وما حولها تسمى (أتفع). (ابن جريس).

(٢) يوجد مواقع عديدة في منطقة نجران باسم:ـ (عرق كذا. . .) أو (عروق كذا. . .). (ابن جريس).

وكان بعض أطفالهم ونسائهم عند البئر يسحبون الماء من البئر التي لم تكن مبطنة والتي يصل عمق صهريجها إلى أربع قامات وهو مدفون في أرض الوادي الحصوية. كان هؤلاء البدو من فخذ آل مخلص من قبيلة آل فاطمة[١]. تركز اهتمامي بهذا الموقع في مجموعة نقوشه الرائعة المسجلة على الصخور السوداء عند النهاية الشمالية للمضيق، وكان رفاقي في هذه الأثناء سعيدين جداً بتناول القهوة والمنعشات الأخرى بينما صرفت ساعتين أنقل نقوش القدماء إلى دفتر مذكراتي. كانت هنالك رسومات قليلة من النوع المألوف، وكانت أيضاً علامات الآبار التي لا مفر منها، غير أن معظم المادة التي تحصلت عليها كانت تتكون من نقوش ثمودية. لقد كان لبئر عرق، بلا شك، موقعاً مهماً في اقتصاد العرب القدماء. كوَّنت الجلاميد العالية لوادي حرشف وفروعه، على الجانب البعيد والتي يبلغ سمكها حوالي (٥٠٠) قدم وهي مكوَّنة من حجارة رملية تعلو طبقة الجرانيت - جداراً رائعاً من الصخور معترضاً الجهة الشمالية بينما أمكننا رؤية شعيب صناخة وهو يبرز خارجاً ماراً بحافة الوادي الشرقي.

يجري وادي ثار من عند هذا الموقع غرباً، كان الوقت الثالثة مساءً حينما واصلنا المسيرة إلى أعلى واديه كثيف الأشجار بين حواجز من سلاسل جرانيتية كانت قد سقطت إلى الأمام من عند التلال العالية وعلى الجانبين. يتباين عرض الوادي، بصفة عامة، من (٣٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة، ومررنا فيه على فترات برسومات أكثر، وفي إحدى المرات كانت هنالك صور للأبقار، والضأن عريض

(١) بدو آل مخلص فرع من الوعلة وجميعهم من آل فاطمة الذين شيخهم أبو ساق. (ابن جريس).

الذيل، والجمال. كان كل هذا قد شوهد بجوار موقع لمعسكر قديم، تدل عليه حلقات الحجارة إلى جانب وجود بعض المقابر وبعض أكوام من الحجارة. وصلنا إلى بئر أخرى تبعد مسافة ميلين ونصف الميل من عرق، يسمى جعلة، ويوجد الماء فيها عند عمق ثلاث قامات في صهريج غير مبطن ولكنه مدعم حول الفم بجذوع الأشجار والأغصان المقطوعة وقطع قليلة من الصخور. كانت غابة الطلح كثيفة أثناء هبوطنا عبرها، ونظراً لأنه لم يكن هنالك درب مطروق، فقد كان علينا أن نشق طريقنا بحذر من خلالها بكل ما أمكننا من يقظة لنصل إلى بئر أخرى في الوادي المتسع الذي تكوَّن بالتقاء ثلاثة مسايل نابعة كلها من عند التلال الجرانيتية ذات الجلاميد التي كان ظلها ساقطاً على البئر الآن. كان موقع بئر خرمة بالفعل في قلب المجرى الحصوي لأحد هذه المسايل الثلاث، واسمه شعيب حقب على ارتفاع (٤٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. مررنا ونحن نشق طريقنا عبر الوادي الكثيف الشجر، بطفلتين صغيرتين جداً، ويبدو أنهما تشرفان على قطيع من الماعز. ظننت أن هؤلاء الناس لا يرعون الضأن- وقد قامتا بإبعاده عن الطريق إفساحاً لنا مع صرخات: «الريبة» حضرت امرأتان إلى البئر في الصباح ومعهما حماران لسحب المياه لذويهما المعسكرين في الوادي.

تسد البئر الأخيرة أعلى خرمة بسلسلة جرانيتية تسمى شعبة والتي تقوم قاعدتها بدفع وادي ثار ليجري ناحية شمال الشمال الغربي مسافة ميلين ثم إلى ناحية الشمال الشرقي مسافة قصيرة، وبعدها يواصل انسيابه غرباً على الجانب البعيد (الشمالي) من شعبة.

لقد وصلنا إلى البرك الصخرية لمريفك، عند منحنى الوادي من ناحية الشرق، وكانت البرك ممتلئة بمياه السيول وقد غطاها طحلب أخضر. كانت حواف

المجرى مكسوة بنبات الحلفاء، بينما احتلت مستعمرة كبيرة من حيوان الوبر بعض الصخور الجرانيتية الكئيبة التي تشاهد على يميننا. كنت راجلاً معظم الطريق أعلى الوادي، ذلك لأن السفر عليها من على ظهور الجمال كان صعباً جداً، كما أن كل محاولاتي لمطاردة الوبر باءت بالفشل، ذلك لأنه وفي اللحظة الحرجة التي كنت أهيئ نفسي للتصويب، انطلق الرصاص عن طريق الخطأ من فوهة بندقيتي مقاس (٤١٠, ٠)، فهربت الوحوش الصغيرة إلى جحورها ولم تظهر ثانية طالما كنا لا نزال موجودين هناك. وصلنا إلى جدول من مياه جارية، على مسافة (١٠٠) ياردة أعلى هذه البرك الصخرية، كان عرضه (٢٠) قدماً وكان طوله (٣٠٠) ياردة، إلى حيث ينبع من بطن السيل الجاف، الذي أصبح الآن أكثر عظمة وهو يضيق بين الصخور شديدة الإنحدار في المرتفعات الجبلية. يتسع الوادي بعد ذلك مرة أخرى في أرض طموية ذات صخور متساقطة، توجد فيها مقبرة أخرى كبيرة مكونة من قبور بدائية البناء والتي من عندها يسلك الطريق جانباً مختصراً لتحاشي انحناءة المجرى الذي كنا نسير فيه حتى الآن.

وجدنا لوحاً من صخور الشست موضوعاً فوق أحد القبور، عند النهاية أعلى الوادي للمقبرة، يحمل اللوح نقشاً من (١٥) حرفاً ثمودياً، كما وجدنا لوحاً آخر مشابهاً، ولعله شاهد لقبر، ويحمل صورة رجل يمسك بعصاة متشعبة، ورسماً ثالثاً يوضح المارية تقفز من فوق رجل تبدو عليه الدهشة وقد رفع يديه إلى أعلى تجاه جسم مجهول الهوية يبدو أنه يقع أمامه.

وجدت إلى جانب هذه الصخرة سبعة ألواح أخرى من الصخرة نفسها وعليها رسوم دقيقة لبعض بني البشر وهم في أوضاع حركية تدل على النشاط، معظمهم

يحمل خناجر في وضعها الأفقي المثالي عند الخصر، كما كان هنالك أيضاً، نقش أو نقشان. كان شكل معظم القبور على هيئة بيضاوية، ويصل طول القبر إلى عشرة أقدام وعرضه إلى ثلاثة أقدام وارتفاعه حوالي (٣٠) بوصة وقد وضعت ألواح كبيرة مسطحة على محيطه وملئ الجزء الداخلي بحجارة صغيرة بالدبش. لا يوجد غطاء بالحجارة الصغيرة والدبش داخل الشكل البيضاوي في بعض القبور، ويمكن القول بأنه في كل الحالات فإن الجثمان قد تم دفنه تحت مستوى السطح. كانت الألواح المصورة ملساء مخضرة اللون، وتشبه الاردواز، أما البناء الخشن الملحق فقد كان من جرانيت أو بازلت. أعتقد أنه يوجد في المقبرة حوالي (١٠٠-١٥٠) قبراً. وأنها ربما كانت موقعاً لمعركة قبلية قديمة، ولا يزال العرب يطلقون عليها اسم مجنة كما يصعب الابتعاد من الاستنتاج بأن تاريخ هذه المقبرة يعود إلى الوراء كثيراً، بعيداً عن أزماننا الحالية، وإثبات هذا يتأتى عن طريق النقوش والرسوم التي حسمت هذا الأمر بما فيه الكفاية.

كان هنالك الكثير من الكوارتز الأبيض المبعثر بين هذه القبور والذي قام البدو المعاصرون بنقله لعمل الأعمدة، التي يصل ارتفاعها إلى قدم واحد ولا يزيد تركيبها عن ثلاث بلكات منفصة ربما كان هذا، كما هي العادة في هذه الأنحاء من البلاد، ضرباً من الاحتفال بمقتل بعض الأعداء. لا يمكن أن تكون هذه العلامات البيضاء هي أعمدة الإشارة إلى الطريق، وذلك لأنه توجد فرصة ضيقة جداً أن يتشكك المرء في وجود الطريق.

وصلنا فوق هذه النقطة إلى شعيب آخر جارٍ، ويكسوه الطحلب، ويقع بين جلمودين عاليين من الشست. كان موقعاً جذاباً ولما كانت جمالنا المحملة بالعفش لم تصل إلى هنا بعد، فقد قررت ومعي فرج أن نتباطأ هنا بحثاً عن الطيور.

بادرتني بالحديث، أثناء تجوالي، شابتان جميلتان جداً، كانت إحداهما مميزة تماماً في هذا المضمار وتحمل رضيعاً على كتفها، وبدتا كأنهما تعرفاني تماماً، فقد سألتني إحداهما بمكر إذا كنت قد قدمت لأصير أميراً لنجران مكان النشمي! أخبرتاني أنهما بحكم العادة يقومان بإحضار قطيع ماعزهما يومياً للشرب من هذا الموقع، إلاَّ أنهما قد أقبلتا من معسكرين مختلفين، يقع أحد المعسكرين باتجاه أعلى الوادي، وكان الآخر بعيداً إلى أسفل.

شمخت صخور الشست على جانبي طبقتها العمودية، غير أن صخور الجانب الأيمن كانت ناعمة وصلدة، بينما بدت تلك التي على الجانب الآخر طرية وهشة -ربما يعزى هذا لتأثير الرياح السائدة- تتبعنا انحناءآت المجرى عندما واصلنا المسيرة في اتجاه غربي بصفة عامة إلى حيث انبعاج عريض حيث أقبل مسيلان صغيران من كلا الجانبين ليكونا جزيرة ثرية بالغطاء النباتي الذي يسوده نبات واحد فقط يسمى ضند. يشق الوادي طريقه بين جلاميد جرانيتية ترتفع إلى (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم إلى أن يصل إلى رأسه في مساحة واسعة مكشوفة مكونة من التقاء العديد من المسايل لتكون وادي ثار. كانت هذه المسايل، من اليسار إلى اليمين منتظمة في شبه دائرة هي: السليمة، وعيان، والحزمة، وملحق، وربح، وكتنة، وكلها تنبع من شقوق في الهضبة العالية من فوقنا والتي تمتد إلى الخلف ناحية الغرب إلى السلسلة العالية التي تقع على جانب تهامة. لم نعد بالطبع نر شيئاً عن الهضبة من عند هذا الموقع عدا الأطراف المكسرة المكونة لرؤوس هذه المسايل على مسافة ميل واحد تقريباً إلى الخلف. كان ارتفاع وادي ثار في هذه الأرض المنكشفة حوالي (٤٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وترتفع حافة الهضبة بما يزيد على ذلك بـ (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم.

عبرنا هذا الملتقى للمسايل وكذلك مسيل الحزمة، حيث سنعسكر لقضاء الليلة عند حافة الوادي، في بقعة جميلة ذات صخور شديدة الانحدار وكثافة من نبات الحلفاء وغطاء نباتي آخر ومياه جارية، نظيفة في وادٍ لا يزيد عرضه عن (١٠٠) ياردة. يضيق هذا المسيل على مسافة نصف الميل أعلى معسكرنا عند الأخدود به العديد من البرك العميقة التي يغذيها الوادي الجاري، وتنمو حولها بكثافة نباتات الحلفاء والرين والطرف. يضيق المسيل إلى أعلى ويتلوى ويلتف حول حافة الهضبة المرتفعة وحتى مجمع الماء الذي يقع من خلفها، وليس بالبعيد منها، ومن عنده يجري شعيب قيرى، بناءً على قول مسفر، الذي يجري بدوره إلى ناحية شعيب الخانق ومنه إلى الحرجة ومن ثم إلى المرتفعات العليا لوادي تثليث. كانت البرك مملوءة بالضفادع وكائنات أخرى، وكانت دافئة بدرجة مدهشة في هذا الوادي المطوق بالصخور. حيث كانت درجة الحرارة الدنيا خلال الليل (٤٥) درجة فهرنهايت. يتحاشى البدو قضاء الليالي بجوار هذه البرك خوفاً من الحمى - يقولون عنها إنها تحم- أي أنها تسبب الحمى.

استغرق ارتفاع قرص الشمس صباح اليوم التالي (الثامن من نوفمبر) زمناً لتظهر من فوق رؤوس الجلاميد، التي اكتسبت لوناً ورديا، لتطل على بطن الوادي. تحركنا قبل الساعة التاسعة صباحاً، مرتجلين ومتجهين ناحية فم مسيل سليمة وقد توجهنا إليه عبر طريقنا الداني الذي سلكناه بالأمس. يوجد في العديد من هذه المسايل ترسب للملح في التربة الصخرية التحت سطحية وحيث يقوم البدو بكشطه لاستعمالهم الخاص. يوجد هنا إثباتات واسعة، تدل على عملية تنجم بسيطة.

عبرنا مضيقاً منخفضاً من عند رأس هذا المسيل إلى شعيب مروة، وهو رافد آخر لثار، ويتحرك تدريجياً بعيداً عنه ليدخل أرضاً ذات تلال، والتي هبطنا منها

قليلاً لنعبر شعيب يسن -وهو رافد آخر لثار- لندخل في بهو مكون من مسيل مشد وسط مجموعة من تلال غير منتظمة من الشست. وصلنا عند قمة هذا الطريق إلى ممر عقبة مشد، التي ترتفع حوالي (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت صخوره تلمع بالنقوش الثمودية القصيرة والتي نسخت منها ما لا يقل عن (٤٢) نقشاً كان من بينها رسماً جيداً لثور وقرناه ممتدان إلى الأمام ورمز الرسم الثاني إلى ثعبان وفيما عدا جانب مخططات يصعب تفسيرها، فإن بقية الأشياء كانت نقوشاً واضحة وكلها قصيرة.

انطلقنا إلى الأمام من عند هذا الموقع، فوق أرض مرتفعة تقع منفرجة في وادي حبونا على الجانب القريب، كان أبرز سماتها الكتلة الرملية الذي يطلق عليه اسم ملحه وهو يصعد على فترات ليكون دستة من النقاط إلى ما يلي وادي شعيب سليم الذي ينساب عبر سلسلة جرانيتية مكسرة تقع أسفل ممر مشد. يمكن رؤية واحدة أو اثنتين من هذه النقاط العالية لهذه التلال الواقعة إلى ما وراء حبونا، غير أن المنظر العام لم يكن مثيراً للانتباه.

دخلنا مضيق شعيب ملحة، بعد أن عبرنا شعيب سليم ومضيق آخر إلى مسيل يسمى أنم، ويبلغ عرض شعيب ملحة ٥٠ ياردة ويتكون مجراه من الحصى وتوجد على جانبه الأيمن جلاميد شديدة الانحدار، وترتبط التلال المنخفضة على الجانب الآخر مع سد وشست والذي يفيض الماء من فوقه أبان موسم السيول. يتحد أنم وسليم بعد فترة، وقد كنا قد عبرناهما، مع ملحة عبر مضيق صخري كانت جدرانه ملونة بالكوارتز القرمزي الناعم والكوارتز الوردي. شاهدت رسماً لرجل يبدو وكأنه يقف فوق ثعبان متلوٍ، وخطر بذهني أن هذه الرموز التي تتكرر فيها الثعابين قد تفيد وجود مياه جارية. ارتفعت جدران الجلاميد إلى علو

(١٥٠٠) قدم على الأقل وبها العديد من الأخاديد التي تهبط من عندها إلى مجرى ملحة، والذي كان، على أي حال، جافاً حتى وصلنا إلى الموقع الذي اتحد فيه شعيب حلقوم، الذي ينساب من التلال التي تقع أمامنا، مع شعيب ملحة، ثم يدور المجرى المتحد فجأة ناحية الشرق، شاقاً طريقه عبر الجدار الجبلي الأسود إلى حيث يقع ممر ضيق. يبدو أنه يجري نحو مسيل حقف ويتصل مع وادي ثار فيما يلي بئر خرمة.

كان هنالك الكثير من حشائش الحلفاء في هذا الموقع عند رأس المضيق ويمكن الحصول على المياه السطحية بسهولة من عند ثميلة[1] التي يرتادها الرعاة المحليون لأنه يقال أن مياهها ممتازة. تعرف الثميلة بأنها ثقب مائي يجب أن يكشط الرمل عنه للوصول إلى الماء، الذي ينساب على مدار العام على شكل نهر تحت الأرض، والذي لا تبدو منه علامة سطحية تدل عليه غير الغطاء النباتي، حتى يصل إلى حلقوم، حيث كانت بعض قطعان الماعز تشرب من عند جدول ضحل عليه نبات القصب. تشرف على قطعان الماعز فتاة جميلة ذات عيون حلوة لامعة، ومعها طفل عار. اتسع الوادي في اتجاه أعلى الوادي بين أجمات كثيفة لنبات الطرفاء، الذي يقولون عنه إن جمالهم ترعاه إن لم تجد غيره في المرعى. يتسع الوادي الآن إلى حوض حصوي منخفض كثيراً وعلى جانبيه جلاميد أقل انحداراً وذلك أثناء ما كنا نشق طريقنا تجاه القمة، مارين بثميلة ثانية، تقع عند منبع مسيل ضحل. يتصل في هذا الموقع شعيب حلقوم الذي ينحدر من عند سلسلة تسمى الخربان على الجنوب الغربي، مع مجرى ضحل يسمى أخلة ينحدر من جهة الجنوب

(١) ثميلة:ــ هناك من ينطقها (ثميلة) وقد تنطق أيضاً (ثميلا)، وكلا النطقين مقبول. (ابن جريس).

الشرقي. وهو مسيل بلا سمات مميزة له، إلا أنه حجري، وذو غطاء نباتي شحيح وقد تتبعناه إلى قمة الممر المرتفع.

واجهتنا عند القمة سلسلة ملحة وشققنا طريقنا عبر متاهة من مجاري الصرف الضحلة على كلا جانبي ملحة حتى وصلنا إلى موقع عند طرفها الشرقي يرتفع حوالي (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت الصخور هنا، معظمها من حجر رملي، علماً بأن الجرانيت لا يزال يتكرر ظهوره فوق السطح، وكلها ممتلئة بالنقش والرسم من بينها رسم مؤكد لثعبان، ورسم مجموعة من الأشياء كأنها خنافس. هبطنا الآن إلى الوادي اللطيف المعشب وهو شعيب عرفطة الذي ينحدر من النهاية الغربية لسلسلة ملحة ويميل تدريجياً عبرها، ليرتقي مرة أخرى ناحية القمة، لسلسلة تسمى عقبة قفلة، والذي كانت صخوره الرملية مغطاة بكثافة بالنقوش الثمودية.

أسرعت بقدر استطاعتي في نسخ ما أمكن من نقوش حيث أن الوقت قد تجاوز فترة العصر ويتجه نحو الغروب، وقد تمكنت من نسخ (٢٠) نقشاً واضحاً، كان العديد من الرسوم والنقوش متآكلاً بفعل عوامل الطقس، وقد تم نحتها بروعة على صخر رملي بلون الطوب الأحمر أو باللون الوردي. أطلنا النظر من عند الممر إلى سلسلة رهيبة وجبال منتشرة أمامنا صفوفاً متتابعة الواحد تلو الآخر، كل منها كان أعلى من الذي يقع أمامه.

أسرعنا هابطين أسفل الطريق الضيق الشديد الانحدار -وقد أكملت ما كنت أقوم به من عمل- الذي يقود من عند الممر إلى شعيب قفلة الذي يشاهد من أسفلنا على ارتفاع (٤٠٠) قدم. ثم تتبعنا قفلة متجهين ناحية الجنوب الغربي،

زاحفين بين جلاميد بطنة المنتشرة، وكنا نجدّ السير للوصول إلى المعسكر قبل حلول الظلام. وصلنا إلى المعسكر مباشرة بعد غروب الشمس. يهبط الجزء الأسفل من مسيل قفلة، قبل وصوله إلى البطن العريض لوادي تريمة، إلى ممر ضيق كثير الرفوف. ويتوقع أن يكون منظر المياه الساقطه فوق هذه الأرفف خلال موسم السيول، بلا شك، مدهشاً ورائعاً، أدركنا جمالنا التي تحمل العفش في هذا الموقع الأسفل والصعب من قفلة، وكانت جمالنا هذه قد سارت طيلة النهار تسع ساعات دون توقف، تعادل ما لا يزيد عن (٢٠) ميلاً في بلاد صعبة قد عبرناها.

سعدنا جداً أن نعود إلى الراحة مرة أخرى على أمل مسيرة قصيرة إلى حبونا في الغد. كان عرض وادي تريمة الذي يدخل إلى هذا الموقع من ناحية الغرب ثم يدور هنا إلى ناحية الجنوب الشرقي، حوالي (٣٠٠) ياردة وبه الكثير من نبات الطرفاء وغطاء نباتي آخر على بطن حصوية يتلوى خلاله مجرى سيل ضيق رملي، من جانب إلى آخر. يشتهر المكان بكثرة الثعابين، غير أننا لم نر أياً منها خلال إقامتنا. يقع في أعلى معسكرنا ثقب (فضية) المائي في وسط مجموعة من شجيرات الطرفاء، ولم نشاهد كائنات حية كثيرة هنا غير البراغيث التي خلفها قطيع الماعز الزائر والبدو. يقال إن هذا الثقب المائي لا يمكن الاعتماد عليه وذلك لأنه يستمد ماءه من السيول في أي سنة حدثت، ولكن يوجد هناك أعلى الوادي، نهر تحت أرضي، يقع رأس تريمة على الهضبة الرئيسة شمال أو شمال شرق بدر، وينساب في النهاية السفلى إلى وادي حبونا نفسه، قريباً من الواحة الرئيسة. كان هنالك القليل من العلامات الدالة على وجود الماء والتي يشار إليها بالنقاط المألوفة، على الصخور بالقرب من الثقب المائي، كما كانت توجد نقوش ولكن لا يوجد بينها ما هو مهم فيعطلنا هنا بعض الوقت، وقد شارفت الساعة على الثامنة صباحاً، وأشرقت الشمس بشعاعها لتدفئ الوادي الذي قد أبرده الليل.

هبطت درجة الحرارة إلى (٣٦) درجة أثناء الليل، وحتى في الشمس عند الساعة (٨,٥) صباحاً كانت (٧٠) درجة. تحركت جمال الحمولة سريعاً بعد الساعة التاسعة صباحاً بينما تراخيت أنا لنسخ بعض النقوش وللبحث عن الطيور ولكن بلا جدوى. لم نر كائناً حياً، غير أنه كانت هنالك كمية من الحشرات حول مصباحي أثناء الليل. قارب الوقت الساعة العاشرة صباحاً عندما بدأنا بالفعل التحرك، ممتطين دوابنا إلى أسفل الوادي مارين بفضية أخرى جافة، وبفم لرافد قادم. انبعج المجرى على مسافة ميلين إلى فرجة واسعة بين التلال، وكان ملتصقاً بعدها إلى قاعدة السلسلة الشرقية، بينما ابتعدنا نحن عنه جنوباً فوق السهل العريض. وصلنا عند طرفه البعيد إلى سلسلة مقاطعة له منخفضة، عبرها الطريق من فوق ممر ضيق، حيث جلست لأفحص عتبة حبونا قبل دخوله وقد كنت أول رجل أوروبي يفعل ذلك.

يمتد أمامي وإلى أسفل شعيب الحبابة الذي يندفع من عند الهضبة المرتفعة، على مسافة ميلين ناحية الجنوب الغربي ويتصل مع وادي حبونا على البعد نفسه ناحية الجنوب الشرقي. يتصل شعيب حبابة مع شعيب الفيض على يميننا، في منتصف المسافة، أثناء خروجه من بين التلال. يلتقي جهة الجنوب أكثر شعيب نبع، الذي ورد ذكره، مع وادي حبونا، الذي اتصل به على الجانب القريب وادي تريمة الذي يشق طريقه عبر التلال وقد غطاه صخر حجري بني اللون ويسمى أم خرق، والذي أعطى هذا الاسم إلى الممر الذي جلسنا فيه عقبة أم خرق.

شمخت من حول كل هذه الأودية التلال العظيمة: بني جنفور، وعنب، وعان النعامة، ومن خلفها كتلة الضحى العالية وسلسلة ملحه خلفنا ناحية الشمال

الغربي. لم نر واحة حبونا لوجود سلسلة معارضة غير أننا وصلنا إلى طريق وادي ثار، وقد رأينا بلاداً جـميلة ولقد تمكنت من أن أمـلأ صفحات مـفكرتي بالنقوش والرسوم التي تركها العرب القـدماء الذين عاشوا في هذه الأودية، التي ربما كانت أكثر ازدهاراً في زمانها القديم مما هي عليه الآن وإلى تاريخ ضارب في القدم.

الفصل الثامن عشر

وادي حبونا[١]

هبطنا سائرين على الأقدام من عند الممر إلى حيث تنتظرنا الجمال عند رأس شعيب شكمان، الذي تتبعناه إلى مسافة قبل أن نضرب عبر دلتا الحبابة متجهين إلى صخرة منعزلة على جانبه الأيسر تكسوها نقوش لا حصر لها ورسوم، والتي توقفت فترة لنسخها، بينما واصل فرج ومعظم الباقين المسيرة لكي يكونوا في استقبالنا عند الوصول. رأينا أثناء ذلك ثعلباً كبيراً وهو يدقق النظر إلينا من فوهة كهف في التل.

انكشفت أمامنا الآن واحة حبونا على هيئة كتلة كثيفة من أشجار النخيل بامتداد متوسط إلى جانب ما يقدر بستٍ من القرى الصغيرة المنتشرة بين المزارع.

اتخذت من النقوش سبباً لأتأخر أكثر إذ لا يزال اليوم في منتصفه، ولأستغل الفرصة لألقي نظرة فاحصة على المكان ومحيطه قبل أن أعبر بطن الوادي لألحق بزملائي في المعسكر الذي يقع تحت برج للماء يقوم على السلسلة الشستية لجانب الوادي الأيمن عند الطرف الشمالي الغربي للقرية الرئيسة والتي تعرف شمولياً باسم شط الخضرة والتي تتكون من ثلاث قرى صغيرة هي: طليل، والأعلى، وسند. كانت القصور متجمعة مع بعضها البعض، في شكل قرى صغيرة على عكس ما

(١) للمزيد عن وادي حبونا وفروعه وقراه وسكانه انظر: عاتق البلادي. **بين مكة وحضرموت**. ص ٢٠٤ ــ ٢٠٩، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤٠٧ ــ ٤١٠ . (ابن جريس).

هو مألوف في نجران، مما يدل على أن المجتمع هنا أكثر تجانساً. تغطي قرية شط الخضرة مساحة أبعادها (٨٠٠) ياردة طولاً على واحة الوادي، و(٣٠٠) ياردة عرضاً عبر الخليج ويحيط بها تل مرتفع بارز تحتوي إلى جانب سكانها، على حقول دخن مزدهرة وعلى العديد من أشجار النخيل المنتشرة أو المتجمعة. تقع هذه المنطقة إلى الشمال الشرقي وإلى الشرق من عند موقع على جانب التل بالقرب من برج المراقبة الذي كنت قد اخترته لإجراء مسح عام للقرية ويقع على جانب الوادي الأيمن. تقع قريتان صغيرتان على مسافة ميل واحد عبر الوادي في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي ويتبعان قبيلة بني هميم، وهما أعلا وأسفل تفصل بينهما صخرة، وتحتضنهما التلال.

تقع مزارع قابل منيف ذات النخيل الكثيفة، أيضاً على الجانب الأيسر للوادي وعلى الكتف الأيسر لقرية شط الخضرة، وكانت قريتها الرئيسة الصغيرة عند مركز الدائرة خلف أشجار النخيل ووسط حقول كبيرة للذرة. يكتمل النظر بقلعة تسمى قشيعة تقع على رأس صخرة صغيرة في وسط الوادي مع بعض أشجار النخيل القائمة على لسان أرضي يتجه إلى الوراء. يوجد غطاء جيد للطرفاء والأثل في بطن الوادي، والذي يبلغ عرضه حوالي (٤٠٠) قدم ويخترقه مجرى سيول ضيق متلوٍ. وتفتح قناة ذات جوانب عالية من عند جانب الوادي لتحمل مياه السيول إلى داخل المكان المرتفع الذي يقف عليه برج المراقبة، ومنه إلى الحوض الذي يحتوي على حقول الدخن، وحكماً بالأصوات المنبعثة من عند الآبار العديدة فإنه يتضح لنا أن الناس كانوا مشغولين هذه اللحظة بري محاصيلهم.

وقفت قمة أم خرق بارزة من فوق سلسلتها ناحية الشمال من موقعنا، كما أمكننا رؤية مجرى الوادي، وذلك على مسافة خمسة أميال أعلى أسفل الواحة.

كانت واحة جذابة بصفة عامة، برغم أنها على مستوى قياس أصغر مقارنة مع واحة نجران، وقد أكسبتها الجبال التي تشمخ، من فوقها وعلى الجانبين، وتحيط بها، لمسة رومانتيكية.

أقيم معسكرنا على سفح بالقرب من القرية الصغيرة الرئيسة التي تسمى الأعلى أو الحصن الأعلى، حيث يقيم أمير القرية، والذي حضر لتحيتنا عند وصولنا ودعانا إلى قصره لتناول القهوة والمرطبات.

يتم تعيين هؤلاء الأمراء المحليين بواسطة أمير المنطقة، تماشياً مع العادة المتبعة في إدارات الجزيرة العربية. اتضح أن أمير قرية حبونا الصغيرة نسبياً هو في النسب خال لصديقي النشمي بنجران، واسمه محمد بن ناصر، ولم يكن مقصراً في صداقته وفي كرمه. جاء محمد أصلا إلى نجران مع السلف السابق للنشمي واسمه محمد العساف ومكث لكي يساعد خاله، الذي منحه هذه الوظيفة. وقد كنت قد قابلته منذ فترة مبكرة، عام ١٩٢٧م، لما كان حينها موظفاً تحت رئاسة عبدالله الجفالي في مراقبة إنشاء الطريق المسفلت الذي يربط بين جدة ومكة -كان عربياً من الطراز الممتاز، ينتمي للمدرسة القديمة، وكان شديد الجاذبية، وشديد التواضع. وقد سكن بحكم الظروف في أحد القصور المحلية، الأقل هيبة من تلك التي في نجران. وقد قام بإعادة بناء جزء منه ليحصل على غرفة استقبال جذابة ذات نوافذ أكثر إضاءة مما كان قد أعده المهندس المعماري الذي قام بتصميم القصر والذي قد ارتكز همه على جانب الأمن بدلاً من الراحة. يطلق على القرية شط الخضرة، أو الشطين أو الخضرة -قسم يتبع الأسلوم-[1]، أو حتى قابل الطليل في مقابلة قابل

(١) الأسلوم يتكونون من خمسة أفخاذ هي:ـ آل صليع، وآل عامر، والخضرة، وآل قريع، وبني هميم، وشيخهم الآن عبدالرحمن بن قعوان. مقابلة مع عبدالله بن هويج السلوم اليامي. (ابن جريس).

منيف المواجه. ينتمي السكان إلى فخذ الخضرة فرع الأسلوم التابع لقبيلة يام. ويطلق على السلسلة الجرانيتية العالية التي تحيط بخليج الخضرة وتطل عليه اسم شرقان.

تسلقت صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولت إفطاراً ممتازاً من لحم ضأن وأرز قدمه لنا الأمير، السفوح شديدة الانحدار لشرقان التي تحتوي على ألواح عمودية تشبه الأردواز، متجهاً إلى القمة يصحبني مهدي بن قعوان، الرجل الرئيس في القرية. كانت القمة على ارتفاع (٨٠٠) قدم فوق خضراء والتي ترتفع إلى (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر.

كانت أعلى نقطة تقع عند نهاية الطرف الغربي لسلسلة حادة الأطراف تتوضع في اتجاه محور شمال - جنوب وتهبط في عدد من التعرجات الحادة تجاه الغرب لقرية قابل منيف -التي نراها لأول مرة- وتسمى أيضاً آل قطران -قسم آخر من الأسلوم-. تسمى القرية المركزية التي أشرت إليها، باسم آل حمرى[١] -أيضاً من الأسلوم- بينما توجد على النهاية الشرقية قرية صغيرة ثالثة تسمى آل عوّاد -الأسلوم-. تنتمي أشجار نخيل وقلعة جزيرة قشيعة إلى آل قريع -الأسلوم- كما يوجد برج مراقبة آخر يسمى قلعة العان -آل عواد- على سلسلة منخفضة تجري أسفل الجانب الأيسر للوادي، من خلف قابل[٢]، وبها بئر يسمى بئر زبيدة.

يمكن رؤية امتداد الوادي باتجاه الشمال الشرقي إلى ما يلي قمة قلعة العان. تقع سلوى[٣]، حسب ما رواه مهدي، والتي لا نراها هذه اللحظة، في ذلك

(١) آل حمري: يعودون لفخذ آل قريع من الأسلوم. (ابن جريس).

(٢) قابل: ــ أي قابل منيف (ابن جريس).

(٣) سلوى: ربما تكتب وتنطق أيضاً (سلوة). (ابن جريس).

الاتجاه، بينما أمكننا رؤية المعلم الأرضي وهو عمود ثار. هبطت مجموعة من المسايل على سفح شرقان ناحية الوادي، والذي كان اتصاله مع تريمة مشاهداً على بعد أربعة أو خمسة أميال. يوجد بئران، فوق القرية في بطن الوادي من ناحية الشمال الغربي، يسميان مسرباً، بينما كان أمامنا منظر جزئي لنجرا (بئر وأطلال) ووسيعة (ثلاث آبار قديمة مدفونة) وكلاهما على الجانب الأيسر باتجاه أعلى الوادي لمسرب. اكتملت صورة حبونا بمجموعة من أطلال «بني هلال» تسمى خراب شريم مباشرة بعد الطرف الغربي لقابل منيف، ولبعض مزارع النخيل باتجاه أعلى الوادي التي تنتمي إلى الواحة الرئيسة غير أنها ستذكر عندما نقوم بزيارتها في مسيرتنا أعلى الوادي. كان كل ما تبقى هو سلسلة لا نهاية لها من الجبال.

هبطنا سفح شرقان عن طريق آخر غير مسيل جحير الذي كنا قد سلكناه صعوداً، وعدنا آخر الأمر إلى المعسكر عن طريق مسيل خال ومن حول برج المراقبة الذي في واجهته كنت قد رأيت نقوشاً على صخرة، وقد قمت بنسخها. لقد سُرَّ مهدي بهديته التي قدمتها له عندما افترقنا وكانت جنيهاً استرلينياً ذهبياً كاملاً (وكان مندهشاً قليلاً). لقد فعل مهدي الكثير بل أكثر مما أتوقع حينما أراني الصخرة الثانية التي تحمل النقوش، وبما قدمه لي من معلومات جغرافية محلية. أحضر لنا مهدي خروفاً غير أنني علمت بهذا الأمر في وقت لاحق.

لقد انتهيناً من واحة حبونا، أو من الجزء الرئيس فيها، ولم يعد هنالك مبرر لبقائنا أكثر. كان الأمير قد قدم لنا زاداً للطريق، وجبة غداء بسيطة من عصيدة قمح جيدة الطبخ مملوءة بالسمن الذي تجمع في فوهة عند وسط العصيدة. كنا نضرب الطريق عند الساعة الثانية مساءً مرة أخرى لكي نرى المزيد من وادي حبونا في مجراه المحاط بالصخور وهو يجري في الجبال.

دخلنا مرة أخرى لمجرى الوادي، بعد أن عبر مضيق العرجاء (وبرج المراقبة من فوقه) من خلال ممر ضيق إلى فم خال وعبر مسافة تقل عن الميل الواحد، إلى مزرعة نخيل مسعودة الصغيرة، على جانب الوادي الأيسر، ومنها مباشرة إلى المروة التي تقع إلى الخلف على بعد مسافة من المجرى بأشجار نخيلها ومزارع دخنها وحصونها (قصور) القليلة القائمة في صدع السلسلة.

كان رأس التل الصغير الذي يقع بجوار جانب الوادي ويفصل بين هاتين القريتين الصغيرتين متوجاً ببناء مربع شبيه بالقلعة، كان جزؤه الأعلى مبنياً من الطين وكان الأسفل من حجارة جرانيتية. وتقع بالقرب من هنا مجموعة أخرى من حقول ومزارع نخيل وكلها معاً تكون قرية بني هميم الذي ورد ذكرها. توجد هنا قناة جانباها من الرمل تقود من عند الوادي إلى المزارع في قرية حويد.

واصلنا مسيرتنا ونحن في الحضن الجانب الأيمن للوادي، الذي كان عرضه نصف ميل وعليه كثافة من أشجار الطرفاء حتى وصلنا إلى الدلتا العريضة، لشعيب كتنة الذي ينحدر من عند فتحه في التلال تقع إلى الشمال من موقعنا، وعبرناه لنستريح قليلاً بجوار برج طويل نحيل يقع في وسط أشجار نخيل النقعاء على الجانب الأيسر. كانت هذه هي القرية الثالثة باتجاه أعلى الوادي التي تمكنت من رؤيتها من عند قمة شرقان وكانت هي آخر ضواحي الواحة الرئيسة. ألقت شجرة علب (سدر) ضخمة ظلها على بئر القرية التي تقع على حافة المجرى وكان قطرها حوالي (٢٠) قدماً وصهريجها مبطن بمواد البناء إلى مستوى الماء على عمق عشر قامات إلى أسفل -مقارنة بعمق ثماني قامات فقط في شط الخضرة-. كان البناء الفوقي للبئر يحمل ست بكرات، ثلاث منها تجاه الشمال والأخريات تجاه الجنوب والتي كانت تجري من فوقها حبال الدلاء التي تجرها مجموعة من الثيران،

تنتمي هذه القرية الصغيرة، على عكس غيرها من القرى في هذه الواحة، إلى آل بحري، من الأحسن من قبيلة لمواجد[١].

واصلنا مسيرتنا أعلى الوادي بعد أن أدينا صلاة الظهر وقد تقلص عرض الوادي إلى (٢٥٠) ياردة بين جدران صخرية ارتفاعها (٢٠٠) قدم. اتسع هذا الممر بعد فترة إلى انبعاج دائري وقد نمت غابة من الطرفاء عند موقع تدفق شعيب ذات حمد الذي يهبط من عند سلسلة عويج قليلاً إلى الوراء من ناحية الجانب الأيسر. اخترقنا هذا وتتبعنا المجرى المتسع، وسرعان ما دَخَلت في مجال الرؤية الواحة الثانية في حبونا واسمها الحصن وكذلك مزارع نخيل المجمع على بعد ثلاثة أميال من النقعاء. استقر بنا المقام هنا لنعسكر الليلة بجوار مزارع نخيل قريتي الحصن الصغيرتين التابعتين لغنيمة، بينما قمت أنا بتسلق الصخرة التي تطل على كل الواحة من عند الجانب الأيمن للوادي. تحتل مجمع مساحة بيضاوية طولها ميل وصف الميل من جهة الشرق إلى الغرب، وكان عرضها نصف هذه المسافة بين مجريي شعيب حلال (جنوب) وشعيب صيحان (شمال) اللذين يلتقيان في موقع دخولنا ليكوِّنا رأس وادي حبونا، الذي يرتفع إلى (٤٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. تتكون الواحة من قرية بائسة على جانبي سلسلة منخفضة تفصل بين المجريين من عند موقع ظهورهما في التلال إلى القرب من موقع التقائهما لتكوين حبونا، وكان آهلوها مثلهم مثل آل النقعاء من قبيلة آل بحري ومن لمواجد.

ستوصلنا مسيرة الغد إلى شعيب صيحان، وبناءً على هذا، فقد ركزت على جمع المعلومات عن المجرى الآخر وعلى المجموعة التي تكوِّن الواحة نفسها.

---

(١) للمزيد انظر: فؤاد حمزة، المرجع السابق، ص ١٧٨ . (ابن جريس).

لنأخذ شعيب حلال أولاً، الذي نستطيع رؤية ما يصل إلى طول الميل الواحد من مجراه إلى الموقع الذي ينبعج فيه من عند التلال، وقد برزت إلى الخلف قمة انثاري الواضحة، التي تشاهد أمام قرية نخيل الحرشف، كما قيل لي، داخل المجرى، قيل لي كذلك إنها تبعد مسافة رحلة نصف يوم من غنيمة، لنقل (١٢) ميلاً باتجاه أعلى الوادي. توجد قرية أخرى أعلى، باتجاه أعلى الوادي، وعلى بعد ميل أو ميلين، تسمى هدادة، والتي يكون الوادي فيما يليها عارياً من الغطاء النباتي غير المأهول حتى حافة الهضبة في اتجاه ظهران أو ما يعادل رحلة يوم ونصف اليوم (حوالي ٣٠ ميلاً) فوق هدادة. تنتمي هذه القرية ومعها الحرشف إلى قسم آل الحرشف تحت رئاسة صالح بن ربوع من قبيلة آل فاطمة. كما توجد خمس قرى أخرى على بعد مسافة ميل بين كل قرية وأخرى، تنتمي كلها إلى قبيلة آل أبا الطحين قسم لمواجد، تقع بين الحرشف والموقع الذي يدخل فيه شعيب حلحلة إلى حلال عن طريق جانبه الأيمن، تسمى هذه الخمس قرى كما يلي: حزقة، ودوّح، والسليمة، والعزم، والنقعاء في هذا الترتيب مع اتجاه أسفل الوادي وتكون الأخيرة منها فوق مدخل شعيب حلحلة. يهبط الطريق القادم من نجران عبر شعيب بران إلى أسفل هذا المجرى ليخترق حلال في طريقه إلى الجفة التي تقع في شعيب صيحان ومنه إلى بدر[١].

كان القسم من شعيب حلال الملامس للمجمع على جانبها الجنوبي ممتلئاً بأشجار الطرفاء والأراك وبغطاء نباتي آخر. ويقال إن هنالك العديد من الأطلال عند عدة نقاط على امتداد هذا الوادي، ويرجع تاريخها ليس إلى بني هلال

(١) بدر: يطلق عليها بدر الجنوب تمييزاً لها عن أرض بدر التي تقع بين مكة والمدينة، وهي إحدى محافظات منطقة نجران اليوم. (ابن جريس).

بواسطة الروايات، كما كان المرء يتوقع من اسمها، ولكن من اسم بطل يسمى داكنيوس عاش حوالي (٣٠٠) سنة قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

تتكون واحة المجمع مما يلي:

١- غنيمة ويوجد بها حصنان وعدد من أشجار النخيل وبعض حقول الدخن كلها داخل المساحة البيضاوية، وقليلاً ناحية النهاية الشرقية.

٢- ربيعة وتقع على الجانب الأيسر لحلال على مسافة نصف الميل إلى أعلى.

٣- القرن وتقع بين غنيمة وربيعة.

٤- بئر البرصاء وتقع على الجانب الأيمن لصيحان على مسافة (٣٠٠) ياردة إلى أعلى.

٥- وتن وهي أكبر القرى وتقع في منفرج صيحان، على مسافة نصف الميل إلى أعلى وبها مجموعتان منفصلتان من أراضٍ زراعية ذات بئر هما أم الغرين ووشيجة.

٦- وحل وهي أرض ممتدة متعرجة ذات عدد من أشجار النخيل مع بعض الحصون القائمة على الجانب الأيمن لصيحان عند مدخله إلى المساحة البيضاوية. كما توجد، أخيراً قلعة صغيرة منعزلة على الجانب الأيسر لصيحان على مسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة أعلى موقع لقائه مع حلال. يهبط مسيل رح إلى صيحان في مقابل وحل وقليلاً إلى أعلى منه من عند جلمود مرتفع من حجر رملي، كان يقف شامخاً بين التلال ناحية الشمال الغربي، بينما تسيطر سلسلة فت على الجزء الأعلى لصيحان من ناحية الغرب في اتجاه بدر.

زارني أحد المكارمة عندما رجعت إلى المعسكر واسمه حسن وكان قد اشترى مزرعة نخيل في غنيمة منذ حوالي (١٦) سنة وهو يعيش الآن هناك - وهو ذو شخصية ورجل لطيف المعاشرة. تجمع كذلك حشد من الأهالي حول نيران معسكرنا لتذوق شراب القهوة وقد أحضروا لنا معهم حزماً من أعواد الدخن علفاً للجمال التي بدا عليها الارتياح لهذا العلف الجديد، غير المثير للشهية وقد أكلته بقناعة.

دعوت كل من حسن وشيخ القرية لتناول العشاء معنا، وجلسا يتحادثان معنا على فناجين القهوة حتى وقت متأخر - بالنسبة لهم. ادعى حسن أن هنالك علاقة بعيدة تعود إلى الجيل السابع والتي تربطه، إلى فرع رئيس قطاع المكارمة واسمه حسين بن أحمد الداعي، والذي تم نقله منذ المشاكل اليمنية عام ١٩٣٤م، إلى مكة. حيث ظل يعيش هناك حيناً وفي الطائف حيناً آخر حسب الموسم، وينزل ضيفاً على الملك، وله وكيل يسمى أحسان بن هاشم يقوم بأمور أسرته وممتلكاته في بدر. أخبرني حسن بأنه قد مضت فترة زمنية تقدر بـ (٣٠٠) سنة منذ أن استقر المكارمة الأصليون في بدر وفي نجران جاؤوا مهاجرين إليهما من بلاد همدان -يبدو أنها تعني اليمن-. غير أنني أبديت اعتراضي لما قاله حسن، ذلك بأنني لم أر أحداً من جماعته هذه في نجران. أجابني حسن بدهاء بأنهم قوم مبعثرون في الشتات وأنهم منعزلون لأنفسهم ولا يزورون أحداً. استمتع معنا جمهور غفير بجلسة مع الراديو ذلك المساء غير أنها لم تكن سهرة ناجحة بسبب الظواهر الجوية الكهربائية.

كان اليوم التالي هو الحادي عشر من نوفمبر. سرت مرتجلاً عبر المساحة البيضاوية، عند مواصلة مسيرتنا، وذلك لأفحص وتن، التي وجدت فيها أطلال

بئر قديمة كما لاحظت قلعة أخرى صغيرة قائمة على هضبة منخفضة بالقرب من بئر البرصاء. لاحظت كذلك أن الصخور الشستية على هذا الجانب مخططة بكمية كبيرة من الكوارتز.

لم يكن هنالك شيء ذو أهمية قصوى هنا، ثم سرت إلى الجانب الأيسر لصيحان إلى ناحية منفذه من عند حاجز التلال. كانت هنالك ألواح كبيرة من الشست مرتبة طرفاً بطرف في صفين لتكون بذلك قناة توجه مياه السيول إلى مزارع وتن. كانت توجد كذلك قناة أخرى في تلك المنطقة، قريباً من المنفذ، عند النهاية الغربية القصوى لوحل وعلى جانبه الأيمن، وكانت جدرانها الطينية عالية. وقد وقفت عند مدخله صخرة كبيرة وعليها عدد من النقوش الثمودية وبعض الرسومات الجيدة للجمال وإلى جانب خربشة ثعبانية مزدوجة بتفرعات، ربما قصد بها مخطط بدائي كروكي لمساحة الواحة ذات الواديين والعديد من القنوات. أينما وجدت مياه صالحة للاستخدام في هذه الأودية الجافة العارية، فإن القدماء وإلى حد ما الحاليين، قد استغلوها لكسب العيش فوق تراب أرضهم. كان عليهم، في الأزمان السابقة، الاعتماد على جهدهم الذاتي في الكفاح لأجل البقاء.

يحكى لنا حبشوش، في الكتاب الذي ورد ذكره، بأنه في المناطق الأكثر خصوبة في جنوب اليمن، فإن المجاعات التي كانت تقع على فترات، كانت تنتج عن انحباس الأمطار الموسمية وشح السيول لذلك كانت تؤدي إلى هلاك الجزء الأعظم من السكان، حتى جاء الأتراك المقدامون عام ١٨٧٢م. استطاع الأتراك أن يلطفوا آثار المجاعة في إحدى المناطق بإدخال وسائل كفء لنقل الحبوب من منطقة إلى أخرى كما حدث في هذا العام (١٩٣٤م) فقد تمت مواجهة شبح المجاعة في حضرموت بقرار الحكومة البريطانية بإرسال كميات من الدخن من اليمن ومن

تهامة ومن السودان إلى تلك المنطقة. يقدم لنا حبشوش المعلومات المثيرة للاهتمام بأن الرز كان قد استورد لأول مرة إلى اليمن من مصادر من وراء البحار وذلك لتلطيف آثار المجاعة التي حدثت عام ١٨٨٥م. كان الأتراك، بالطبع، هم الذين نظموا الاستيراد والتوزيع، وقد احتل الرز موقعه وإلى الأبد، كمادة عادية في الغذاء بين أوساط الطبقات المنعمة. ويقول الملك ابن سعود: إنه كان أول من أدخل الرز إلى وسط الجزيرة العربية وذلك إضافة إلى جانب الأطعمة الأخرى وليحل مكان البرغل والجريش والتي وجدها في نظره مهيجة إلى درجة بعيدة.

أدرنا ظهورنا ناحية واحة المجمع البائسة وواصلنا المسيرة فوق الوادي، وقد مررنا بقلعة مدمرة تطل على غابة من أراك وطرفاء ووصلنا بعدها في أقل من نصف الساعة إلى شعيب جاري اسمه الضيقة، ينساب لمسافة (٤٠٠) ياردة في مضيق صخري ضيق قد وجدت على جداره نقشاً بجوار رسم لفارس. كان الشعيب الجذاب هذا مبطناً بالقصب والطرفاء وقد اتسعت نهايته العليا إلى انبعاج عظيم مع تدفق شعيبين هما أم العصب على يميننا ونفر على يسارنا. تقع الواحة الثالثة لمجموعة حبونا في الانبعاج قليلاً إلى أعلى من مجرى صيحان وتسمى الجفة ويمتلكها جماعة آل فاطمة. تقع الجفة في ثلاث مجموعات من النخيل وحقول الدخن وعدد من المساكن معظمها كأبراج.

وصلنا إلى أولى هذه وتسمى المذنب وهي قرية بائسة بمعنى الكلمة ذات عدد من أشجار النخيل المبعثرة وحوالي ستة من الأبراج المدمرة ومساحة متوسطة لزراعة الذرة وبعض حقول البرسيم. تقع هذه القرية على بعد قليل عن الجانب الأيسر لصيحان الذي يجري أسفل منتصف الانبعاج وقد تتبعناه مسافة (٥٠٠) ياردة لأول الأبراج وأول الحقول للقرية الصغيرة التالية وتسمى المثناة. كانت المثناة عبارة عن

مجموعة صغيرة من الحصون مبعثرة في المزارع وتتجمع مواقع السكن فيها، وهي عبارة عن ستة من الأبراج عند منتصفها.

كانت معظم حقول الدخن قد تم حصادها وتم نقل المحصول إلى موقع مركزي لأجل غربلته، حيث كانت هنالك مجموعة عاملة فقيرة، ولكنها مرحة، تتكون من الرجال وبعض النسوة تقوم بغربلة الدخن من قشوره بالأسلوب الذي عفا عليه الزمن وهو صبها خلال مجرى الهواء. وكانت الحبوب قد فصلت من قبل عن السنابل بوطئها بواسطة الدواب[1]. تقع بئر البصرة على الجانب البعيد لصيحان غير أنها تعد داخل حدود المثناة. تنتهي القرية بمجموعة ختامية من الأبراج عند موقع دخول المجرى وهو قادم إليها من عند التلال، وعموماً فإنها تبدو أكثر ازدهاراً من المذنب حيث أن بها بعض المساحات الصغيرة المزروعة التي تحيط بالآبار بمحصول القمح والذي كان مزهراً بالفعل. يحلق سرب كبير من طيور السوادية ويلتقط كل ما يسقط من حبوب أثناء عملية نقل الدخن من الحقل إلى موقع غربلته.

يقع القسم الثالث من الواحة ويسمى أم الحوض أعلى الانبعاج داخل المجرى الصخري، قليلاً فيما يلي المسيل الصغير الذي يدخله على الجانب الأيمن، مقابل قلعة من الطين، مدمرة، تحيط بها مقبرة تم بناء بعض قبورها بألواح من الصخر إلى ارتفاع أربعة أقدام. تمتد أم الحوض، بنخيلها الشحيح المبعثر، وحقول الدخن الشبه مدككة، إلى حوالي (١٠٠) ياردة أعلى الوادي، وتضم البرج المنعزل وبئر

(١) لمزيد من المعلومات عن حصد الزروع ودرسها ثم فصل الحبوب عن التبن والأعلاف، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٢٩ ـ ١٤٧ . (ابن جريس).

نزقة في الرقعة من الأرض التي تحتوي على حوالي (٢٠) شجرة من أشجار النخيل ومن حقول صغيرة على بعد (٤٠٠) ياردة عند تدفق مسيل مهرة من مرتفعاته الصخرية الرملية على يميننا.

هكذا انتهت الجفة وواصلت أشجار الطرفاء الخفيضة وجودها في الوادي غير المثير وقد أطبقت سلسلة الدهو مما حجب عنا المنظر الذي يقع على لسانها على بعد الميلين. دخلت مسايل عديدة إلى الوادي، وتدفق شعيب فت عند قاعدة سلسلته المنبعجة التي شمخت فوقنا إلى ارتفاع (١٥٠٠ - ٢٠٠٠) قدم. تسمى هذه السلسلة مبنى البيت وهو شعيب يدخل صيحان من على الجانب البعيد، وقد أصبح الوادي دافئاً وعديم الهواء بسبب انطباق كتلتي دحو ومبنى العاليتين عليه. اجتهدنا لنتوقف هنيهة عند النهاية السفلى لنهر جارٍ آخر يسمى غيل صيحان عند مدخل شعيب راك كان عرض الوادي هنا حوالي (٣٠٠) ياردة مع غزارة لنبات الحلفاء والطرفاء التي لا مفر من وجودها على النهر.

ارتفعت الصخور الجرانيتية الداكنة إلى حوالي (٥٠٠) قدم، وأكسبت المكان إحساساً غامضاً، وأجواء ميتة. كان هنالك عدد قليل جداً، حقيقة، من الطيور في هذا المكان، كان الطائر المخوض يلتهم أسماك المنوة الوافرة وقد أطلقت عليه الرصاص، وكانت الذعرة تقوم بصيد الأسماك على حلقة الماء، وكان طير البلاكستارتس يرفرف بجناحيه حول الصخور، وكان هنالك صقر صغير يحلق فوقنا حينما كنا نتناول الشاي تحت ظل إحدى الأشجار، ونحن نراقب الجمال وهي تمضغ أعواد الدخن. كان مرشدنا، زائد، مجنداً في الخضرة وكان يعرف الوادي جيداً ولكن ليس لأبعد من حدود هذا الوادي الضيق. تعزز فقره الزائد للذكاء إعاقة واضحة في حديثه.

لقد كان النهر منقطعاً، يظهر في أجزاء من البرك، وقد نما القصب في بعضها إلى ارتفاع (١٥) قدماً. وكانت غابة الطرفاء كثيفة حينما كنا نشق طريقنا فيها عبر العديد من المسايل الهابطة من جوانب شثّي وهي سلسلة عالية ذات قلنسوة من الحجر الرملي، تقع على مسافة ميل واحد ناحية الخلف تجاه الجنوب. كانت هذه السلسلة فعلياً استمراراً لسلسلة الدحو وهي نفسها تتواصل غرباً بسلسلة دخفة التي تطل على آخر واحات حبونا التي تقع أمامنا.

وصلنا عند قمم أحد هذه المسايل إلى أطلال قلعة قديمة من الطين تقع بالقرب من بئر عجمان المحطمة التي امتدت من عندها قناة جر للمياه تنقلها إلى داخل البناء، كان هنالك اتساع في الوادي قليلاً إلى أعلى، وقد سببه دخول وادي قاب من جهة الشمال، عبر مضيق مدهش، حقيقة، في الطرف الأدنى لوادي بدر بالنسبة للهضبة، غير أنه هنا يسمى محلياً باسمٍ لأطلال قديمة ليست بذات أهمية ولعلها كانت موقع قلعة لحراسة الوادي ضد أية تدخل من ناحية الهضبة. يقال إن هذا الممر لا يصلح لسير أي نوع من الحيوانات المستأنسة عدا الإنسان. يبدو أن اتجاهه العام، مع اتساعه، هو ناحية الشمال الغربي. وصلنا إلى حاجز معتبر من أكوام للطمي في موقع اتساع آخر للوادي وعلى مسافة أعلى عند مدخل فرع آخر لشعيب راك الذي يقع على يسارنا. كان يوجد عند النهاية العليا له بئر تسمى الخثيمي، كانت مياهها تسحب بواسطة ثلاثة جمال وذلك لري الحقول أسفلها. يسكن مالكو البئر في منزلين صغيرين من اللبن، كما توجد أكواخ محطمة، تدل على أنه كانت هنالك محاولة لزراعة كل الحوض الطموي، الذي ظل جزء كبير منه دون زراعة، بينما أقيمت على جانبي الممر جدران من حجارة.

كانت هنـالك رقعة لأرض طينيـة تقع إلى أعلى، ذات أطلال لمبانـي بدائية، وقد وصلنا إلى ما يليها لنفاجـأ بمنظر زاهر يدل على نشاط الإنسان وهو عبارة عن حقول الذرة الواسـعة نسبياً في قرية آل فـايد ذات المنازل الأربعة اللبنية التي تأوى سكانها قليلي العدد، والذين ينتمون إلى قبيلة آل فاطمة.

تتبعنا شريطاً لقـناة بدائية عبر هذه المزرعة - موقع جذاب جـداً وقد تباعدت الجدران الداكنة لمضـيقه كاشـفة وادياً عريضـاً يمتد أمامنا ومن ثم عبـرنا من حول قاعدة هضبـة صغيرة تقف فوقهـا قلعة محطمة مبنية من اللبن قـائمة على أساس حجـري. كان اسـمها أم عـرقين وهي منظر تذكاري لتلك الأيام التـي كانت هذه القلعة تقف فيهـا لحراسة المحاصيل التي تنمو أسفلها ضد رجـال القبائل الغزاة من القبائل المعادية. كـانت هذه الأرض الطينية امتداداً لهجمـة أعلاه، بنخيله الطويل التزييني وأبراجـه المبنية من اللبن مـتوضعـة على جانب نهـر صغيـر جارٍ في بطن الوادي. ينتمي الناس هنا إلى فرع آخر من قبيلة آل فـاطمة ويدعون آل جثيمة[١]. وصلنا إلى الجـزء الواسع من الوادي، فيـما يـلي ذلك، عند موقع البـئر وحـقل الدخن الوحيد والمحاط بجدار والذي يتبع آل مرقب وإلى برج تربة عوفه الصغيرة، وإلى مزرعة نخيل صغيرة وحقول أكثر.

وصلنا الآن إلى القرية الـرابعة في حبـونا وتعرف باسم الخضـيرة وتضم كل المزارع أسفل الوادي حتى بئر خثيمـة. ينتمي هذا الجزء المكشوف الأعلى إلى قبيلة وعلة التابعة لآل فـاطمة، مع عناصر من آل قنة وآل دواخ وتشتـمل على عدد من

(١) آل جثيمة: ربما يطلق عليهم أيضاً اسم (آل قثيمة). (ابن جريس).

القرى الصغيرة والآبار وعلى مزارع نخيل وحقول مجاورة لها. كانت هنالك من ناحية الغرب وإلى أعلى، مجموعة من الآبار وأشجار النخيل وحقول، كلها تكون سليحة عند القمة، وأم الركب في الوسط، وتقع بئر زيتة إلى يمنيها، وتقع كل من زهرة وسلوى على الجانب القريب منها. كما تقع بئر عبلة بالقرب منا بينما وقفت القرية الرئيسة ذات الأبراج، وتسمى حويرة، على الجانب الجنوبي للمجرى، ثم اكتمل المنظر بقلعة تسمى الرهوة تقف على صخرة منعزلة عند مركز القرية، وبعض مزارع نخيل مصفية على الجانب الأيمن والذي بجواره، وفي مساحة مكشوفة، قررنا أن نعسكر لقضاء تلك الليلة. كوَّن بئران أخريان هما بروك ووسيطه جزءاً من مصفية وعوفة بالتتالي. شمخت من فوقنا سلسلة دخفة ذات الجبال الصخرية الرملية المسننة والمنقرة بالعديد من الكهوف. كنا هنا على ارتفاع (٥٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعندما قمت بتسلقها في اليوم التالي إلى قمة دخفة، كان الارتفاع حوالي (٦٩٠٠) قدم.

مررنا بمجموعة من البدو أعلى الوادي ينفطر لمنظرهم القلب وهم من آل فايد. كانوا رجالاً ونساءً يندبون بصوت مرتفع جملاً ميتاً ويصرخون بقوة متهمين القرويين المحليين بارتكاب الجريمة. كانت مثل هذه الحوادث في الأزمان السابقة تنتهي بسفك للدماء، غير أن كلا الفريقين كان عاقلاً وتابعاً لأساليب النظام السعودي ولم يحدث شيء بعد المناظرة الضرورية الشاملة. كان القرويون -حسب رأيي- بريئين تماماً من الحادثة التي دفعت بالجمل من فوق الصخرة حينما كان يتجول هناك بلا هدف عبر مزارع الدخن فسقط وكسرت رجله. أقل ما يمكن أن يفعله هذا الجمل الآن هو أن يكون وليمة لكل من يهمهم الأمر، غير أنني لا أدري بالفعل ماذا حدث فقد واصلنا مسيرتنا لنكتشف عند وصولنا الخضيرة أن

ليس بها لحوم وتعشينا بالعصيدة فقط. كنا جائعين وكان الوقت متأخراً جداً لا يمكننا إرسال أحد لذوي القطعان للحصول على جدي.

كانت بعض المساكن البرجية شديدة الجاذبية في هذه الواحة وساحرة المنظر ومن حقها علينا أن نصف نموذجاً مثالياً لها بشيء من التفاصيل. يبدو أن الأساس الفعلي فقط للمنزل هو الذي استخدمت فيه الصخور، وفوق هذه الصخور يتكون البناء من اللبن ويرتفع إلى حوالي (٣٠) قدماً. كان جزؤه الأسفل مكوِّناً من طبقات من طين إلى ارتفاع ستة أقدام وتمثل هذه الطبقات حجرة في الدور الأرضي، وهو بلا منفذ إلا من عند الباب. برزت بعد هذه كثافة من الطين إلى ارتفاع (١٢) قدماً ولم تكن من طبقات ولكنها كانت كتلة مصمته، وكان جزء من هذه، ارتفاعه حوالي تسعة أقدام وتمثل غرفة المنزل الرئيسة التي يسكنها رب المنزل وتقع في الطابق الأول.

يوجد في هذه الغرفة صفان مزدوجان من شقوق النوافذ الشبيهة بفتحات الرمي وقد حصرت ثمانية منها على جانب واحد - وعلى مستوى أعلى منها يوجد صفاً من خمس فتحات مربعة (للضوء وللتهوية). كما يبدو أن الأقدام الثلاثة المتبقية لهذا القسم هي التي تكون الجزء الأسفل لغرفة الطابق الثاني، والتي تحيط بها طبقات من الطين ولارتفاع يصل إلى ستة أقدام وهي مخرمة بانتظام بنوافذ صغيرة مربعة. يحتمل أن تكون هذه الغرفة مقسمة بدورها إلى غرف لأفراد الأسرة (نساء وأطفال) في طابقين. كانت الأقدام الستة الأخيرة من جدار مصمتة من الطين وبلا طبقات، ومزخرفة بسذاجة بصفين من النقط وصف من حرف T بينهما. يمثل هذا القسم جزئياً غرفة عليا بدون منفذ -ربما لتخزين المقتنيات القيمة مثل الأسلحة والذخيرة- ويمثل جزئياً قسماً ذا جدار يكون حاجز سقفه محاطاً من

كل الجهات بصف من الأبراج تبدو كرأس النخلة. يبدو أن الصعود من غرفة إلى أخرى في هذا البناء يتم بواسطة درج خشبي، يقود إلى فتحة مربعة في أرضية كل غرفة. يبدو المنزل بسيطاً جداً، ولكنه من غير المحتمل أن يكون مريحاً لأن يعيش المرء فيه[١].

شاركنا بعض القرويين وجبة المساء البسيطة إلا أن أحدهم ويدعى أحمد بن عايض كان مرشداً ملماً بالكثير من المعلومات حين صعودي معه إلى دخفة في الصباح. كان من عادته المضطربة أن يهرش رأسه وجسمه، واللذين يبدوان وقد ملأهما القمل، غير أنني غفرت له هذا الإحساس بسبب معلوماته الموسوعية عن المنطقة حول موطنه البائس. لقد ابتدأنا من عند المعسكر وتوجهنا ناحية الجنوب الشرقي عبر المسيل الشديد الانحدار والمستقيم تماماً، ويسمى البوال والذي يميل أسفل جانب دخفة من عند قمته الصخرية الرملية وعبر سفحه الجرانيتي الصعب. وصلنا على مسافة (٤٠٠) قدم إلى أعلى، إلى نبع ضئيل جداً يسمى وشل وهو يقطر من شق في الجرانيت المصمت. ثم وصلنا إلى تماس الصخر الرملي عند ارتفاع (٦٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهذا يشير إلى أن قلنسوة الجبل ذات سُمك يصل إلى (٤٠٠) قدماً. وصلنا إلى قمة السلسلة عند موقع لعرن بالقرب من نهايتها الغربية وهو أقل ارتفاعاً من القمة الفعلية وعن طريقه سرنا إلى قمة السلسلة. كانت تقع إلى ما يليه وعلى بعد مسافة قليلة قمة أخرى على نفس مستوى تلك التي نقف عليها، ويبدو أن السلسلة كلها من الشرق إلى الغرب لا يزيد امتدادها على ميلين. تنحدر السلسلة من الجانب الخلفي تدريجياً إلى مستوى

(١) هذا النوع من المنازل كانت متواجدة للسكن والاستخدام في المنطقة الممتدة من نجران حتى الطائف، ولا زال بعضها على هيئة أطلال في هذه البلاد حتى اليوم. (ابن جريس).

الهضبة المرتفعة والتي نكاد أن نكون قد وصلنا إلى حافاتها المزقة. كان المنظر من قمة دخفة عظيماً بحق، وكانت الرؤية ممتازة وواضحة التفاصيل. شمخت القمتان والنموات الأخرى من أرض مسطحة خشنة أعلى كثيراً من المستوى العام للمحيط المجاور، ويوجد على القمة التي نقف عليها صندوق للصيد بدائي البناء وبلا سقف، أنشئ لمن يرغب في صيد الوعول التي يقال إنها ترتاد هذه التلال.

امتدت الأرض الخلفية الغربية في وتر طويل ضحل من فوهات بركانية -سأراها فيما بعد عن قرب- مكونه من سلسلة تسمى قهر القعم التي تطل على أودية تهامة تجاه البحر الأحمر من الجانب البعيد. يجري عند قاعدة هذه السلسلة الطويلة وفعلياً داخل حدود مشتركة معها، من الشمال إلى الجنوب، شريط مدهش وبارز لصخر أصفر تسمى القعم الأبيض الذي يكون عرقاً يفصل القمة البركانية من الصخر الرملي للهضبة المرتفعة. ترتفع قمة صخرية رملية منعزلة ومدهشة، ناحية الغرب من موقعنا هذا، وقريبة جداً من الخلفية الصخرية الملونة بالأسود والأصفر التي ورد وصفها، شكلها يشبه شكل خبزنا القديم، وتكون معلماً أرضياً ممتازاً لعدة أميال ومن كل الجهات.

تسمى هذه القمة شثاثًا، وهي تسيطر على المركز الإداري المهم لظهران، عاصمة الهضبة المرتفعة، والتي تقع خارج مدى الرؤيا وداخل واديها على مسافة ميلين ناحية الجنوب. يأتي هذا الوادي واسمه شعيب كهلان، كما يقول مرشدي، منحدراً ماراً بالمدينة من عند الطرف الغربي عبر أرض مضطربة مكسرة إلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من دخفة وتقريباً ناحية الغرب منها، حيث يتصل بوادي مشابه هو وادي أمترة[1]، الذي يصرف الهضبة العالية إلى الشمال من شثاث من عند

(١) وادي أمتره، ربما ينطق أيضاً باسم (وادي الترة). (ابن جريس).

رأس الخانق وهي الاستمرار الغربي لشعيب صيحان وأيضاً حبونة نفسه. يشير الاسم الخانق (المضيق) بالتحديد أيضاً إلى مجرى يجري إلى واحة الخضرة ويضيق فيما يليها إلى موقع ملتقى شعيب قاب الذي ورد ذكره، حيث يكون اتحادهما عند رأس غيل صيحان ليكون القسم التالي للوادي في اتجاه الشرق إلى المجمع وهو اسم شعيب صيحان. تقوم السلسلة الرائعة لمبنى البيت والدهو على الجانبين ويملأان كل الربعية للبوصلة من الشمال إلى الشرق، بدور المَعْلم لموقع ابتعاد قسم صيحان من الوادي والذي يمكن رؤية منبعية الرئيسين في السلسلة العليا للجبال الغربية، كاملين، كما قد رأينا نهايته مع اتجاه أسفل الوادي من عند الحصينية وهي تتلاشى في الصحراء العظيمة ماراً بمعلم عن حبونا الأرضي. سأرى هذه الأجزاء العليا لهذا الوعاء العظيم عن قرب، غير أنني رأيت الآن لفائدتي الخاصة أهم سماته.

لا أحتاج للحديث هنا عن قرى وادي أمتره أو مجرى ظهران والتي تتبع الهضبة المرتفعة أكثر مما تتبع الوادي. يكفي هنا أن أذكر القرى الصغيرة للواحة الخامسة والأخيرة لحبونا في ذلك الجزء من خنق الذي يقع في الوادي الضيق أعلى قرى الخضرة. كانت كلها مرئية لنا من عند الطرف الغربي لدخفة، برغم أن هذا لم يكن من عند القمة. كانت أقربهم لنا هي أم الركب وكانت أعلى القرى الصغيرة لخضرة هي حفول على بعد نصف الميل باتجاه أعلى الوادي مع وجود شريط من متاجر مهجورة تسمى سوق بني حرب متوضّعة على السفح من عندها وحتى الوادي، وقلعة أم الجبل على الهضبة أعلى منها، كل هذه كانت تقع أعلى تدفق مسيل خيرة على الجانب المقابل أو اليسار. يتبع بني حرب قسماً من آل فاطمة. تأتي بعد هذا وفي ترتيب من أسفل إلى أعلى: آل دوكر، واللقطة، ورضية، والحقي، كلها تشتمل على قرى صغيرة بروجية متوضعة في مزارع نخيل

صغيرة الحجم وبعض حقول الدخن. يصعب عليَّ جداً تكوين فكرة عن عدد السكان في مثل هذه القرى المبعثرة كما هي الحال في حبونا، غير أن تقديري لعدد السكان في كل المناطق المأهولة لوادي حبونا لا يزيد عن (٢٠٠٠) نسمة مع استبعاد الناس الرحَّل الذين يعيشون في الصحراء. يكون عدد هؤلاء الرحَّل كبيراً أيضاً وقد يصل إلى (٢٠٠٠) نسمة أيضاً، وعليه يكون العدد الكلي للسكان لمقاطعة حبونا حوالي (٤٠٠٠) نسمة، لا يمكن الاعتماد على مثل هذه التقديرات. يمكنني رؤية تل أم خرق، بعيداً إلى أسفل، ومطلاً على واحة شط الخضرة، بينما يبدو فيما يليه وقليلاً ناحية الشرق، شريط أبيض طويل لعله مجرى حبونا فيما يلي تدفق وادي ثار.

كان المنظر كئيباً من عند الكتف الأيمن لمبنى البيت ناحية الشمال الشرقي وحول جنوب قمة شثاث ناحية الغرب، ويتكون من أرض متقلبة مرتفعة يصل ارتفاعها إلى (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وبها القليل من المواقع البارزة فوقها. أستطيع أن أرى انثري الذي يقع بين الدهو وضحا القريبين مني، وهو يقع تجاه الجنوب الشرقي ويحجب قرية الحرشف الصغيرة في شعيب حلال، بينما يدل على موقع هدادة -قليلاً- إلى أعلى المجرى نفسه، شريط على سلسلة مضرع ناحية الجنوب الغربي. ارتفعت بين هذه ونقطة الجنوب، سلاسل مماثلة حادة لنصرانية وحرث وكل هذه السلاسل الثلاثة تقع في الأراضي جنوب ظهران. توجد كتلتا كفر وكتان إلى البعيد ناحية الشرق، ويكونان شريطاً متصلاً مع انخفاض قليل بينهما والذي من عنده يمكن رؤية قمة بعيدة تجاه الجنوب الشرقي والتي عرفها مرشدي بأنها إحدى النقاط التي تطل على مضايق الموفجة. اعتقد مرشدي أن سلسلة أخرى بعيدة واسمها مناضر تطل على المخلاف من عند الجانب الأيمن

لوادي نجـران غيـر أنني تشككت في هذا التـعريف. يقع ناحـية الجنوب الغـربي السلسلة العالية والطويلة التي تسـمى قهر آل حمد حاجبـة حدود اليمن والتي كان يرى فيها تل هضاض الواقع أمام النقعاء، كمـا ذكر أحمد -مرشدي- أن منخفضاً يقع في ذلك الاتجاه، بأن اسـمه وادي فرع الجـبل -وذلك لتميـزه عن فرع جنوب نجران-، مضيـفاً بأنه رافد من روافد شعيب حلال، وعلـيه يكون هذا أقصى رافد جهة الجنوب لوادي حبونا. أشـار مرشدي إلى وادي يسمى وادي الحصن، والذي سنتحدث عنه في وقت لاحق.

تصب تلال صروم وسـحمان في الشمـال الغربي، فيمـا تبقى من ربع المنظر الذي تسيطر عليه قمة دخفة من شثاث إلى النـقطة الشمالية، مياهها في المرتفعات العليا لتثليث حول الحرجة، بينما يطل رابية قرن سبط البركانية البارزة الواقعة على شفه هضبة بدر العالية، في الاتجاه نفـسه فوق المجمع الواقعة في أحد الأودية التي ليست بالبعيدة منها. يمكن رؤية بدر نفسها قليلاً ناحية اليمين من هذا الشريط، أو تجاه شمال الشمال الشرقي، وإلى مسافة بالقرب من قرن سبط، وهي محتضنة في واديها الضحل وتحت قلعتها البارزة على التل. يصل الطريق من هنا إلى حبونا إلى قمـة الجانب الأيـسر على رأس مـسيل يسـمى خيـرة، والذي أسفله يتلوى المـمر وبخطورة تجاه قـرى الخانق الصغـيرة. يعلم تل أبيض بارز يسـمى قرة الطريق إلى بدر إلي البعـيد في الهضـبة العالي والتـي تلتف حافتـه القريبة بوادي حـبونا في الخضيرة في شكل مرتفعات منخفضـة تسمى يتم التي تقع بين مسيل خيرة ومسيل آخر يسـمى بط يتصل بصيـحان بالقرب من مـزارع آل فائد. واصلنا مسـيرتنا عن طريق خيرة وكان الوقت قـد تجاوز الواحدة مساءً حينما عـدنا إلى المعسكر وأنعشنا أنفسنا وكنا على استعداد لبداية جديدة.

الفصل التاسع عشر

وطن السفاحين[١]

وصلنا إلى سفح مسيل خيرة بعد حوالي (١٥) دقيقة بعد مغادرتنا للمعسكر وشرعنا فوراً في تسلق له مرهق وفي أكثر ساعات اليوم حرارة. يوجد عند السفح مسيل آخر يسمى شرج، الذي يتصل به، كان عرض بطن المجرى الحجري هناك حوالي (٤٠٠) ياردة وقد كان ينحدر أول الأمر بلطف وفي مجرى متعرج حتى وصلنا إلى موقع دخول شعيب العين، الذي يوجد فيه نبع ماء مستديم في موقع متقدم في بطنه. تقف شجرة سدر عند موقع الالتقاء لمسيلين مسمى أحدهما علبة السيد -يعتقد أنه قد استراح أسفلها أحد أعيان المكارمة-، أو فقط علبة العين -إشارة إلى النبع-. هذا وقد انتشرت العديد من الأشجار في هذا المجرى الكثيب حتى وصلنا إلى مفترق له، والذي من عنده اتجه طريقنا ناحية الغرب على مسيل رافد يسمى الخليف، بينما قاد طريق أقصر، لا يناسب الحيوانات، مباشرة إلى أعلى.

كنا نسير راجلين جميعاً، لنعطي الجمال بعضاً من الراحة، وذهبت أنا عبر الطريق الآخر الذي يسمى الصدر. كان عرض المسيل هنا حوالي (٢٠٠) ياردة وأخذ يضيق إلى نصف هذا العرض مباشرة عند جلمود يرتفع إلى (١٥٠٠) قدم على اليسار وعند سلسلة سهله على اليمين، والتي تعرج الطريق عليها، وذلك

---

(١) لا ندري لماذا فيلبي أطلق كلمة (السفاحين) على وطن المكارمة في نجران، وكان من الأجدر أن يقول: (وطن الإسماعيلية). (ابن جريس).

لأن المجرى الفعلي كان بالطبع جافاً ومختنقاً بالجلاميد المتساقطة. اتحد طريق الجمال مع طريقنا عند مضيق سهل يقع قليلاً إلى أعلى، غير أن الطريقين انفصلا مرة أخرى عند رأس مسيل الشقيقة والذي ينحدر إلى (١٠٠٠) قدم نحو مجرى خيرة، إلاَّ أنه مهد لنا طريق مختصر يقود إلى صدع آخر في الجدار يسمي شربة البغدادي، على ذكرى زائر من العراق، كان قد سقط في اللجه وقتل نفسه. استمر الطريق منحدراً ولكنه لم يكن صعباً مع وجود مسايل جانبيه متكررة تدخله، بينما، وبالقرب من قمة صدر، علماً بأننا لم نصل بعد إلى قمة الممر، كانت الصخور تحمل عدداً من النقوش الثمودية وبعض الرسوم، متضمنة ثعباناً ووعلاً.

يجري مصرف ضحل على ارتفاع (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر يسمى أليب إلى رأس المسيل، كاشفاً عن مساحة معتبرة لعدد من القبور البدائية. يجري الطريق الرئيس الآن، وبسهولة، أعلى الجزء الصعب الأعلى لصدر إلى موقع المضيق، والذي من جانبه الآخر يجري مسيل يسمى أسجعات الأثاب إلى أسفل حيث الجزء الأسفل من مجرى بدر (قاب). بينما تجري تعرجات أخرى قصيرة أعلى السفح المنحدر إلى حيث القمة الفعلية لكل من الجلمود والمسيل. يسمى هذا الموقع برأس نقب الخيرة، وترتفع إلى (٦٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، وإلى حوالي (١٢٠٠) قدم فوق الخناق وتشتمل المساحة على ممر ضيق، محفور عبر حاجز صخري يقود إلى رأس منحدر قصير وسهل يسمى شعيب المجزعة الذي يقع إلى أسفل على الهضبة العالية الفعلية. كانت قمة الحاجز حوالي (١٥٠) قدماً أعلى من الممر وتسيطر على منظر مدهش للجبال المتدحرجة ناحية الجنوب.

استغرق تسلقنا الممر أقل قليلاً من الساعتين. امتطينا الآن الجمال وتحركنا إلى أسفل سالكين منحدر مسيل الشرفاء السهل لنقابل مجرى يسمى صلف بن نجم الذي يقبل من جهة الشمال الغربي متجهاً إلى رأس شعيب مجزعة، الذي يجري شرقاً بدوره ليقابل مضيق قاب. يقع طريقنا أعلى سلف بن نجم إلى عند رأسه الذي لا يبعد كثيراً وذلك حينما تتبعنا سلسلته في اتجاه غربي موازٍ لشعيب أعرب وهو رافد آخر من روافد قاب. أوصلنا هذا إلى هضبة متدحرجة صعبة صخرية عليها غطاء نباتي جديد خاصة أشجار القرظ، وشجيرة تفرز سيقانها لباناً تسمى الشرفاء، وهي ليست شبيهة لنبات الدني العطري في حضرموت. يرتفع أعلى هضبة قرة هذه والتي يمكن رؤية كل من بدر وقرن سبط فيما يليها، إلى حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعليها قشرة رفيعة سمكها حوالي (٢٠) قدماً من صخر رملي يعلو فوق الصخور النارية التي قد تحفرت في كل اتجاه بخطوط الصرف العديدة. تعرج الطريق بين رؤوس هذه الخطوط العديدة تحاشياً لها، وذلك بالسير على المناطق المرتفعة، وقد كانت مسيرة مرهقة.

وصلنا إلى مقبرة مهجورة يقال إنها تذكار لمعركة قديمة وقعت بين يام وجيرانها سنحان (قحطان) في وادي تثليث[1]. ثم وصلنا بعد قليل إلى عدد أكبر من القبور ووجدنا لوحاً من الصخر عليه نقوش باللغة العربية العادية. وجدنا أيضاً بجوار الطريق، صخرة وعليها اسم إحسان بن هاشم، الوكيل الفعلي للرئيس للمكرمي الغائب داعي. صعدنا تدريجياً إلى مستوى أعلى للهضبة، ونحن الآن

(١) كانت الصراعات بين القبائل قديماً مستمرة، وفي أغلب الأحيان تكون حول الحدود وموارد المياه وأماكن رعي البهائم وما شابهها، وقد يتولد عن تلك الصراعات حروب وثارات تستمر لعدة عقود. (ابن جريس).

على ارتفاع (٦٨٠٠٠) قدم، فوق سطح البحر عند كومة حجارة بالقرب من الرف الصخري الرملي تعلم رأس شعيب ملطي الذي ينساب أيضاً شرقاً إلى قاب. كانت هنالك أكوام عديدة من الحجارة بالقرب من هذا الموقع إلى جانب مواقد للنار كبيرة تسمى محنذاً[1] والجمع محانذ، ولعله كان موقعاً تعسكر فيه القبائل، كلها كانت مبنية وبعناية من ألواح لصخور رملية وكانت كبيرة الحجم للحد الذي يسمح بوضع شاة كاملة في قدر فوقها. مررنا حول رأس شعيب ملطي ووصلنا إلى مجموعة أخرى من أكوام الحجارة، كان أحدها يحمل نقشاً من ثلاثة أحرف، في موقع يسمى منسه على رأس واديين عريضين هما غضيف وتنمة واللذان يتحدا فيما بعد ناحية الشرق لينسابا في قاب. تتبع طريقنا اتجاه صخرة تنما، والتي تقع على مسافة (١٠٠) قدم أسفلنا في الصخر الجرانيتي، وذلك لبعض الوقت، ثم هبطنا آخر الأمر إليها في درب مائل محفور على الصخر. لقد غربت الشمس منذ نصف الساعة وأظلم المكان، غير أن بدر نفسها كانت علي بعد مرمى حجر منا، وكنا مكتفين بدخول عاصمة المكارمة تحت ستار الليل، تاركين استكشافها إلى الصباح.

لقد أعد لنا معسكرنا فوق الرمال الباردة البيضاء في بطن وادي بدر الذي كان لا يزيد عرضه عن (٢٥) ياردة في هذا الموقع وكان مسوراً على الطريقين بسور كثيف من أشجار التين البري التي تقدم ظلاً كافياً كل الوقت إلاَّ عند منتصف النهار، حينها كنا نجلس تحت الأشجار نفسها. كان موقعاً ممتعاً. قابلنا هنا محمد

(١) المحنذ: عبارة عن حفرة تحفر في الأرض، وتبنى أطرافها بالحجارة كي تمنع سقوط الأتربة في بطن الحفرة، ثم يوقد الحطب فيها حتى يصير جمراً، بعدها يطهى اللحم عليه بطريقة فنية يجيدها العاملون في هذه المهن. وهذا النوع من الطعام يكاد يكون منتشراً في أنحاء المملكة اليوم. (ابن جريس).

النشمي وذلك عند وصولنا بعد أن قدم لجمالنا المرهقة كمية وافرة من البرسيم وأعواد الدخن التي كانت هنا نحيلة أكثر وكانت أكثر عصيراً مقارنة بتلك في نجران وفي وادي حبونا. لم تضع الجمال وقتها في تقرير صلاحية البرسيم لها وبعدها ومما يدعو للتسلية هو أن نرى الرجال وهم يقدمون أعواد الدخن بأنفسهم للجمال وقد غلفوها بأعواد البرسيم! وظلوا يمسكون بالعلف إلى أن يتأكدوا من إدخاله تماماً إلى أعماق فم الحيوان وحتى يتأكدوا من أن الخليط قد تم ابتلاعه تماماً. لم يكن هذا موضوع ضرورة اقتصادية لأنني على كل حال سأقوم بتسديد الفاتورة لمن يهمهم الأمر، ولكن لعلمهم بأن البرسيم مادة دسمة ويخشون أن يسبب البرسيم الإسهال للحيوانات في مثل هذا الطقس البارد. كانت أدنى درجة للحرارة في تلك الليلة، تم تسجلها، هي (٢٣) درجة فهرنهيت أو تسع درجات تحت الصفر. سجل مقياس الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً درجة الصفر، إلاَّ أن الشمس قد أدفأت الجو أثناء النهار لتعطينا أقصى درجة حرارة في الظل وقد كانت (٩٧) درجة، وكانت الليلة التالية هي أول ليلة ملبدة بالغيوم منذ أن غادرنا نجران، وقد كانت أدفأ كثيراً إذ كانت درجة الحرارة الدنيا هي (٣٥) درجة.

بعد أن أشرف الأمير على راحة حيواناتنا، صحبنا كلنا إلى منزله في البلدة حيث وجدنا هناك وليمة رائعة في انتظارنا وقد تناولناها بما يجب من الاهتمام بعد طعام المجاعة الذي كنا عليه في اليومين السابقين. كان كل أتباعه حاضرين وكذلك حضر الموظفون ولكن لم يكن هنالك أحد من الأعيان المحليين ولذا كان الجانب الاجتماعي للعشاء فاتراً. عدنا لهذا السبب بأسرع ما نستطيع إلى المعسكر، فقط لنفاجأ بإزعاج آخر هو حضور الأمير وعدد من موظفيه يرغبون في الاستماع إلى الأخبار التي كانت خليطاً تلك الليلة افتتاح جلسات اللجنة الملكية الفلسطينية،

القصف الجوي على مدريد، واعتراف النمسا وهنغاريا بضم الحبشة إلى إيطاليا. علق محمد النشمي بعد أن استمع إلى هذه الأنباء بقوله: إن فلسطين لابد وأن تكون في موقف صعب بعد كل هذا القصف الجوي! خطر بذهني أنهم كلهم لم يفهموا ما قد سمعوه. أعترف بأنني بعد ليلتين (١٤ نوفمبر) أخفيت خبراً مهماً، كان عليَّ أن أطلع رفاقي عليه. لقد بحثنا عند الغروب ذلك المساء بلا فائدة عن هلال رمضان الجديد، وهيأنا أنفسنا، في شيء من الارتياح، لقضاء يوم آخر عادي قبل أن يبدأ الصباح. لقد علمت من إذاعة القدس في وقت متأخر من المساء أن الهلال قد شوهد هناك وقد أعلن الصيام ابتداء من الغد، غير أنني رأيت من الأفضل ألاَّ أخبر أحداً عن هذا الأمر، إذ لا يزال الأمر موضع نقاش عند السعوديين في الجزيرة العربية إن كان الهلال قد شوهد في بلاد أجنبية أيكون إثباتاً شرعياً يعتمد ليثبت عدم ضرورة مشاهدته في الجزيرة العربية؟

ترتفع بدر إلى (٦٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتقع في وادي ضحل هو وادي بدر الذي تكون بالتقاء مسيلين، هما الخضرة والخانق، وهما يقبلان من عند طرف الهضبة العالية في الربع الشمالي الغربي. يتصل شعيب المهجر الذي يقع أسفل القرى مع وادي بدر، ويصرف وادي المهجر الجزء الغربي من الهضبة، ثم يتصلان بعد مسافة قصيرة، مع مجرى تنما - غضيف لينسابا جنوباً باسم وادي قاب ليتصلا مع وادي حبونا بالقرب من آل فايد. تتصل بهذا النظام فروع تصريف عبيدة عند نقاط مختلفة، غير أن وادي الخضرة، وعلى جانبيه رأسان هما: قرن سبط ناحية غرب الشمال الغربي وشعيب الخانق، والذي يقع رأسه في مضيق ممتاز، وقد قمت بزيارته في وقت لاحق، هذه هي الخصائص الرئيسة التي يعود إليها هذا الازدهار الذي تستمتع به بدر كقرية.

لا بد وأن تكون بدر في أيام أوجها في عصر المكارمة مركزاً ذا أهمية عالية وعظيمة حكماً بما يشهد عليه ما تبقى من قصورها ومبانيها والفلل ذات الحدائق وما شابه ذلك. بقي اليوم هيكلها، مشققاً ومدمراً، وقد ذهبت عنها الحياة وقد حافظت التربة على طهارتها، إن لم تهمل مستقبلاً. قد قيل: إن الكثير من الضرر المتعمد قد وقع على المباني والممتلكات الخاصة بقادة المكارمة أثناء الاحتلال اليمني لهذه المقاطعة عام ١٩٣٣-١٩٣٤م، بينما لم يتضايق الأتراك، أثناء احتلالهم الطويل المدى لليمن، من عام ١٨٧٢م إلى ١٩١٨م من بدر ونجران وتركوا المكارمة فيها لقيادتهم المؤقتة التي صاحبت مكانتهم الدينية بين قبائل يام. تمزقت الآن آخر بقايا كل من بدر ونجران. ولا يحكم الحشاشون بعد اليوم في أراضي سلفهم. لقد سقطت حتى الكرامة الدينية المرتبطة باللقب المكرمي «داعي» وذلك بوفاة آخر حامل له قبل العهد السعودي، وهو علي محسن في نجران في الشهر الذي سبق زيارتي الثانية، ولم يسمح لسلفه الطبيعي، حسين أحمد، الذي يعيش في هذا الوقت في المنفى في مكة، باستخدام اللقب.

اختفى هكذا أثر لسلطة قديمة عاشت تلك السلطة -بالطبع- على ما كان يسهم به المتعصبون لها بالمال والعتاد في مقابل خدماتها الدينية، غير أن كل هذا قد انتهى الآن. قرر ابن سعود فور انضمام نجران أن يدفع جملة واحدة كل توقعات الأسرة المكارمية لمنحة المعاش على حساب الحكومة المركزية. لقد تقرر، بعد التقييم الكامل لكل الأحوال، أن يتلقى كل شخص على قيد الحياة من أفراد المكارمة يقيم في منطقة يام، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً - مبلغاً من إدارة المالية السعودية يُعَد معاشاً سنوياً مدى الحياة ويتألف من (١٥) ريالاً نقداً و(١٦) صاعاً لكل فرد (٦,٥ كيلوجرامات ونصف الجرام أو ١٣٥,٥ رطلاً ونصف الرطل) من القمح

والدخن والتمر. لا يبدو هذا مخصصاً أميرياً، غير أنه -وليس لدي أدنى شك- كان كريماً بما فيه الكفاية بالنسبة للأحوال في بلاد يام، بينما بالطبع، احتفظ المكارمة بكل مساكنهم وأملاكهم الزراعية ويمكنهم إضافة الكثير إلى معاشهم هذا.

فقد أجري إحصاء للمكارمة الذين يعيشون في نجران وبدر وأجزاء أخرى من أرض يام مثل وادي حبونا وذلك لأجل تطبيق هذا القرار، ووجد أن العدد الإجمالي الذي يخصه الأمر هو (١٤٥) شخصاً فقط. كان العبء الأوّلي الإجمالي الواقع على الخزينة السعودية، والذي سينقص تدريجياً بوفاة صاحب المعاش الأساسي، في حدود (١٧٥) شخصاً بمعدل ريالين (قُل ١١٠ جنيه استرليني ذهبي) وبعضاً من (٢٦) طناً من المواد الغذائية.

تتألف المجموعة المكارمية في بدر في هذا الوقت من عشرة أفراد ذكور بالغين وتابعيهم، بينما كانت هنالك أسرة في المجمع، كما رأينا، في وادي حبونا، والبقية كانت في نجران. وإذا اعتبرنا أن الأسرة الواحدة تتألف من سبعة أشخاص، فإننا نحصل على مجموعة (٧٠) من المكارمة في بدر، بما في ذلك إحسان بن هاشم وكيل عميد الأسرة (حسين أحمد) وإبراهيم وهو خال بعيد وصل حديثاً من الرياض. وقد بدوا لي كأناس متواضعين بلا هالة حول نبلهم القديم، برغم أنهم يبدون سعداء عند الحديث عن تقاليدهم القديمة والتي يقولون أن الأتراك قد احترموها بتركهم لها ولحالهم. توجد البعوث الرئيسة للمكارمة في ضاحية حشا في المدينة غير أن هذا الجزء قد تضرر كثيراً على أيدي اليمنيين، ويبدو معظم الناس الآن وهم يعيشون في فللهم.

لا يبدو أن تأثيرات حركة المكارمة قد انتشرت كثيراً بين العناصر البدوية في يام التي -ونقول الحقيقة- كانت ذات احترام قليل للدين. لذلك، يوجد أتباعهم

بين الأقسام المستقرة للقبيلة وفي ثلاث مناطق رئيسة. ينتمي معظم السكان في بدر -وهم أساساً زراعيون- إلى قبيلة وعلة من آل فاطمة، وهذا القسم هو الذي تحت الظروف الحالية لا يزال يكن بالولاء وفي شراسة للنبالة القديمة ويتعلق بالقيادة الدينية حتى في الشدة. يمكن القول - بصفة عامة - إن مذهب المكارمة أو الإسماعيلين قد تمتع بقبول واسع نسبياً في كل الأجزاء المستقرة المأهولة في محافظة نجران، بما في ذلك حبونا وبدر، خلال القرون الثلاثة الماضية، ويبدو أنهم سيختفون الآن لعدم وجود الاهتمام الشعبي الصادق وعدم التشجيع الرسمي للإدارة الجديدة التي تمتعت بالميزة العظيمة في كونها قد استطاعت بالفعل أن توضح ليس فقط اتباعها العنيد لمبادئ الإسلام، بل مقدرتها على فرض السلام والأمن فوق أرض نادراً -إن لم يكن مطلقاً- ما تكون قد تمتعت بهاتين العطيتين. إذا ماتت الإدارة الإسماعيلية كما افترض. على أنه لن يكون خارج الموضوع هنا أن أسجل للذكرى، بعض الحقائق البسيطة حول تاريخ هذه الحركة في منطقة نجران. ارتكز معظم ما سيرد من معلومات على دراسة خاصة عن المكارمة، تمت قبل سنوات أعدها الشيخ فؤاد حمزة، الذي كان وكيلاً لوزير الخارجية في فرنسا (حتى عام ١٩٤٢م) وتركيا، وحيث ظل هناك حتى عام ١٩٤٣م.

امتاز الشيخ فؤاد بأنه جمع كل مادة دراسته من حسين أحمد نفسه، عميد الأسرة الحالي، وكما أظن، في مقابلة له مع علي محسن، الذي كان على قيد الحياة حينها، في نجران، فقد ساعده حسين أحمد بنقل فقرات من الكتب المقدسة للإسماعيلين والتي -بالطبع- احتوت على مادة سرية كثيرة حول المذاهب المعدة أصلاً لفئة قليلة من الناس التابعين لهذه الطائفة، ولم يكشفها له. لا أدري ماذا حدث لهذه الكتب من ذلك الوقت، وربما لا تزال في ملكية حسين أحمد في مكة.

الإسماعيليون فرع صغير وسمري من فروع الشيعة وأيضاً يسمون بالسبعية من الحقيقة الرئيسة في أنهم يعترفون فقط بالأئمة السبعة الأول من أسرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنهم ملهمون تماماً، ويعدون الأخير منهم -وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق- الإمام المنتظر أو المسيح. يوجد طائفة أخرى معدة لفئة قليلة، تابعة للشيعة، وتسمى الاثنا عشرية وتختلف عن الإسماعيلية باعترافها بكل الأئمة البالغ عددهم (١٢)، ينتهون إلى جعفر العسكري (المهدي المنتظر)، ويرفضون أن يكون محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع لهؤلاء الأئمة، وذلك لأن الإمام السابع في قائمتهم هو الإمام موسى الكاظم. يكفي هذا لعرض الحقائق الرئيسة للموضوع. تفرع الإسماعيليون، بمرور الوقت، إلى فروع مختلفة، كما هو متوقع، تحت قيادة رؤساء محليين موقرين، وليس من الضروري ذكر أسمائها كلها حتى لو استطاع المرء ذلك! كانت الفروع الثلاثة الرئيسة هي:

١- الخواجية، ومقرها الهند تحت القيادة التقليدية للأغاخان، الذي -فيما أعتقد- يزعم بتسلسل خطي لنسبه من الحشاش الأصلي.

٢- الداؤدية ويتمركزون في بومبي تحت قيادة طاهر سيف الدين.

٣- السليمانية وأصل مقرهم اليمن وهم يعترفون الآن بقيادة مكرمي داعي الحالي والذي له قائم مقام في بدر باغ في الهند لجمع وإرسال مساهمات ذلك القطر إلى الجزيرة العربية.

يبدو أن فرع السليمانية التابع للإسماعيلية قد نشأت مؤسسته التبشيرية من بلدة تسمى طيبة وهي ليست بالبعيدة إلى جنوب صنعاء، غير أن المبشرين الأصليين في اليمن كانوا هنوداً من الهند. يبدو أن عدداً من المبشرين الهنود قد نشروا دعوتهم في السنوات بين (١٥٦٧م و ١٦٧٧م) في جنوب غرب الجزيرة

العربية، بافتـراض أنهم يمثلون للأصل الأبوي له وممولون بواسطته والذي ربما كان هو الفرع الذي يسمى الخواجـية أو الشمسية. كان بين هؤلاء المبشـرين، مهما كان الأمر، من الهنود، شخص يسمى داؤد بن عجب، وآخر يسمى سليمان بن حسن الهندي، وقد حدث الانفصال أو التبـاعد بعد وفاة داؤد وأدى هذا إلى بروز فرعي الداؤدية والسليمانية للحركة. يبدو نتيجة لهذه الحادثة، أن الداؤدية حصرت نفسها في النطاق الهندي، تاركة العمل العربي بكامله للسليمانية، والتي يعتقد أن اسمها قد اشتق من اسم سليمان حسن الهنـدي، والذي واصل عمله من بعده ابنه جعفر ابن سليـمان. لقـد ورث الأخيـر بوصيـة عند وفـاته مهـام والده، حوالي عـام ١٦٣٣م، ورسالته إلى واحد مـن الدعاة العرب واسمه إبراهيم بن محـمد بن فهد ابن صلاح بن مكرمي. كانت هذه بلا شك بداية قصة المكارمة كهيئة دينية، رافقها النجاح بإقامة سلطة مؤقتة[١].

يزعم الرئيس الحالي للأسرة، وهو حسين أحـمد، أنه من سلالة قحطان وقد قدَّم إلى الشيخ فؤاد حمزة إقراراً شاملاً حول شجرة نسبه والتي تضمنت ليس اسم إبراهيم الحالي، بل اسم والده محمد بن فهد بن صالح المكرمي، والذي ينظر إليه في الرواية المحلية بأنه أول المكارمة الذين استقروا في بدر.

لقد أخـبرنا بأن ابنـه إبراهيم الذي وصلت إليه بالتـوالي عبـاءة النبي الهندي والذي كان اسمه جعفر بن سليـمان، الذي كان يدعو لمدة (٤٤) سنة قد توفي عام ١٦٧٧م، مورثاً سلطته إلى حفيده، محمد بن إسماعيل والذي ربما كان من سلف

(١) لمزيد من التوضيحات عن نشأة المكارمـة وظهورهم في بلاد نجران، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص١٨٦ .

الخط المباشر للداعي الأخير واسمه علي محسن (أو علي بن محسن) والذي لا أعرف شيئاً عن شجرة نسبه، والتي لم يسجل الشيخ فؤاد حمزة عنها شيئاً. يأتي حسين أحمد، الرئيس الحالي للأسرة، في الخط المباشر للتسلسل من والد إبراهيم محمد، وهو غير ابن آخر يسمى أحمد.

من المحتمل جداً، تبعاً لذلك، كما هو الأمر في حالة البايات في تونس مثلاً أن تَوَلِّيَ منصب الداعية يتم تناقله إلى أكبر الذكور من بين أفراد الأسرة.

أخذت أسرة المكرمي اسمها من اسم مكرم بن صبا بن حمير الأصغر والذي تمثله شجرة الأسرة التقليدية بأنه منفصل من حفيد نوح بما لا يزيد عن (١٨) جيلاً، لنقل (٥٠٠) أو (٦٠٠) عام مضت.

أنجب مكرم حسنًا، وأنجب هذا صابحاً الذي أنجب عليّاً، الذي أنجب بدوره عمر الذي أنجب عبدالله الذي أنجب بدوره محمداً الذي أنجب داؤد التامر الذي أنجب بدوره صالحاً الذي أنجب فهداً الذي أنجب بدوره محمداً الذي أنجب كلاً من أحمد وإبراهيم. أنجب إبراهيم إسماعيل الذي أنجب بدوره محمداً الذي تولى رتبة الداعي المكرمي الثاني خلفاً لجده. أحمد الابن الثاني لمحمد، وقد أنجب حسين علياً الذي أنجب حسيناً الذي أنجب علياً الذي أنجب حسيناً الذي أنجب حسناً، الذي أنجب أحمد الذي أنجب حسيناً وهو الرئيس الحالي للأسرة، والذي يحمل فرعه الاسم الخاص «ذي جدين» الذي يشير إلى الأصل المكرمي من الجانبين الأب والأم.

كان آخر الدعاة الحاكمين واسمه علي محسن قد تولى اللقب عام ١٩١٢م وتوفي، كما ذكر سابقاً، في سبتمبر ١٩٣٦م وحمل اللقب المميز «الشبام» -بلدة

في اليمن غير تلك المعروفة في حضرموت- والذي يدل على أنه مكرمياً أصيلاً، على الأقل من جانب والده. حمل اللقب نفسه أحد أسلافه في منصب الداعية واسمه حسن بن إسماعيل الذي خلفه، عام ١٨٤٦م، توفي عام ١٨٧٢م، وربما كان قد تزوج من داخل الأسرة واعتبر ذا خصائص كافية لأن يكون داعياً.

ليس من المستحيل ألاَّ يكون حسن هذا هو والد حسين الذي بدوره هو والد محسن والذي هو والد آخر داعٍ، واسمه علي وفي هذه الحالة بالطبع، فإن المذكور أخيراً لم يتسلسل عبر الخط المباشر من عند محمد بن إسماعيل، الداعي المكرمي الثاني. لقد كان الداعي السادس عشر في الترتيب، والذين فيما بينهم غطوا فترة (٣٠٣) سنة من الحكم من عام (١٦٣٣م إلى ١٩٣٦م).

يبدو أن أول الدعاة المكرميين هو إبراهيم بن محمد قد عاش وعمل طيلة أيام حكمه داعياً (١٦٣٣ - ١٦٧٧م) في طيبة في اليمن، غير أن والده، لسبب ما- ربما فقط ليتخلص منه- قد هاجر شمالاً واستقر في بدر وكان من أول المكرمين الذين يفعلون ذلك بصفته مواطناً فقط، إذ لا يوجد أي سجل يدل على أنه قد مارس أية ضرب من السلطة، على الرغم من أنه قد نجح في خلق علاقات طيبة مع قبيلة يام، والتي سيجني ثمارها في وقت لاحق.

خلف إبراهيم على طيبة حفيده محمد بن إسماعيل والذي كان قد تعرض إلى متاعب، خلال فترة الأربعين عاماً التي حكم فيها، من جهة الحكام الزيديين في اليمن. كانت نتيجة العداوات السيئة بالنسبة له، فهرب إلى القنفذة التي تقع على ساحل الحجاز[1]. وجّهت إليه الدعوة وهو هناك بواسطة قبيلة يام في نجران،

(١) القنفذة:ــ إحدى الموانى الرئيسة لبلاد تهامة والسراة على ساحل البحر الأحمر، وهي تقع بين مكة المكرمة وجازان، وهي إلى مكة أقرب حيث تبعد عنها (٣٠٠كم) تقريباً. للمزيد انظر: شرف البركاتي. **الرحلة اليمانية** ص ٤٦ ــ ٦٧، ١٣٣ ، عاتق البلادي. **بين مكة واليمن**، ١٠٩ ــ ١٦٩، سهيل صابان. **مصادر تاريخ الجزيرة العربية في تركيا** (الرياض. مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م) ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

والذين استجابوا بالعقل إلى جانب عقيدته، ويعزي الشكر إلى جهد جده الأكبر، ليستقر في نجران. رحب بطلبهم وجاء إلى نجران كأول داعٍ فيها. كانت هذه وبوضوح هي الحادثة التي أشار إليها حسن المكرمي في المجمع بأنها وقعت قبل (٢٣٠) عاماً. يمكننا الآن أن نضع تاريخاً مبدئياً لهروب محمد من اليمن إلى القنفذة ووصوله إلى نجران، ولنقل أنه كان عام ١٧٠٦م. توفي محمد بعدها بأحد عشر عاماً وخلفه خاله هبة الله بن إبراهيم كداعٍ ثالث. وعند وفاة هبةالله، خلفه ابنه إسماعيل داعية رابعاً، وهو بدوره قد خلفه عند موته عام ١٧٦٠م واحد من أشهر الدعاة المكارمة في نجران، شقيقه حسن، الذي ظل يحكم حتى وفاته عام ١٧٧٤م، وخلال تلك الفترة نشر دعوة المكارمة إلى حضرموت ونجح في إدخالها إلى وسط جزيرة العرب استعداداً للهجوم على القوة النامية للدولة السعودية في كل من الدرعية والرياض. عاد منصب الداعية بعد وفاته إلى نسل محمد بن إسماعيل ومن المحتمل أنه منذ ذلك الوقت انحصر التأثير الإقليمي للمكارمة في منطقة نجران، التي كانت من أكثر المقاطعات اضطراباً وخروجاً على القانون في كل الجزيرة العربية. كان الذي تولى أمرها بعد حسن بن هبة الله هو عبدالعلي، الذي حكم مدة قصيرة، لا تزيد عن ست سنوات، كداعية سادس، وانتهت فترته عام ١٧٨٠م.

منذ ذلك الوقت ظلت الخلافة، عدا الحالتين اللتين كان الدعاة فيهما أجانب من فرع الشبام، الذي ورد ذكره، داخل الخط المباشر المنطلق من عند هبةالله. كان ابنه علي وأبناء الأخير، وهما عبدالله ويوسف قد توليا الدعوة، فأولهما هو الداعي السابع وثانيهما هو الداعي الثامن، وحفيدهما حسين بن حسن الذي كان الداعي التاسع. كان الداعيان العاشر والحادي عشر هما بالتتالي حفيدا حسن بن هبة الله وهما إسماعيل، وحسن. بينما كان ابن إسماعيل واسمه أحمد، الداعية

الثالث عشر بعد حكم أول المتطفلين الأجانب واسمه حسن بن إسماعيل. كان الداعيان الرابع عشر والخامس عشر هما أحفاد أحفاد أحفاد الجد الأكبر لهبة الله، علماً بأن خطهما الوراثي الصحيح غير معروف. وهم كما يلي، عبدالله بن علي الذي توفى عام ١٩٠٥م وعلي بن هبةالله الذي توفي عام ١٩١٢م، ليفسح المجال لآخر الدعاة وهو علي محسن. هكذا كانت السلالة الحاكمة لستة عشر شخصاً حكموا نجران لما يزيد قليلاً على ثلاثة قرون- بمتوسط (١٩) سنة لكل منهم، غير أن الاثنين الأولين، وكذلك الأخير -وفيما بينهم- حكم ثلاثتهم مدة (١٠٨) سنوات، علماً بأن الحكم كان لفترة بسيطة من الوقت في نجران، حيث حكم (١٥) داعية مدة (٢٥٠) سنة، بمتوسط (١٥) سنة فقط لكل منهم، وتجاوزت ثلاث فترات فقط منها مدة العشرين عاماً. تبقى الإشارة بعد هذا إلى أن الدعاة السليمانيين يعترفون دوماً بالسلطة التي تمركزت في رئاسة ظل في الهند -في بدر باغ والتي يعتقد أنها اشتق منها اسم بدر، أو العكس-. لا يوجد سجل قديم حسب علمي لاسم بدر في منطقة نجران.

كانت هذه هي الأجيال لحشاشي الجزيرة العربية. فماذا عن وضعهم في هذه الهضبة الصحراوية الغريبة؟ ترتفع التلال والسلاسل في الجوار المباشر لبدر بلطف بارتفاع (١٠٠) إلى (١٥٠) قدماً فوق مستوى الوادي، وفوق واحد منها، ويطل على الجانب الأيسر للوادي، تقف قلعة بدر التي تم بناؤها فوق حجر صخري طبيعي مربع ضلعه (١٥) قدماً، أسود اللون. كانت هذه الصخرة في أزمان قديمة، فيما يعتقد، تقع ضمن سيطرة المكارمية لأغراض عسكرية، مثل صهر المعادن ولعل الأفران الكبيرة التي كنت قد أشرت إليها ذات ارتباط بهذا النشاط، الذي توقف منذ زمن بعيد.

تسمى مجموعة من التلال الصخرية الرملية التي تقع على الجانب الأيمن للوادي باسم «جبل تنور» وذلك لوجود واحد منهما يشبه -إلى حد بعيد- فرناً كبيراً مستديراً قطره (٣٠) بوصة وعمقه (١٨) بوصة، وعلى الرغم من أنني لم أكن مقتنعاً تماماً إن كان هذا الحجر الفرن من عمل الإنسان أو كان طبيعياً. يحمل أعلى هذه الهضاب آثاراً لمتاريس ذات خصائص حربية. تسمى قلعة بدر محلياً باسم قشلة أو «ثكنات»[١] لا يميزها تركيب هندسي معماري، فهي عبارة عن بناء عادي من طابقين مبني من اللبن ويعتقد أن الدعاة قد أقاموه ليؤدي وظيفة مركز للرئاسة الإدارية والعسكرية. تعيش فيه الآن قوة الشرطة السعودية، والقلعة صغيرة إلا أنها بالتأكيد تسيطر على منظر ممتاز للمحيط المجاور.

تقع بلدة بدر نفسها، وقد انتشرت على سفوح الجانب الأيسر للوادي الذي تناثرت فيه مزارع غير منتظمة وحقول ذرة صفراء، في ثلاثة أقسام تتجه من الشمال إلى الجنوب، فوق مساحة تقدر بأربعمائه أكرات وتتألف، تقريباً من (٧٥) منزلاً. تنتشر البلدة، كما قد رأيتها من عند القلعة، على شكل وتر تغطي الربع الجنوبي الغربي مع وجود ضاحية حشا على اليسار، التي تندمج في انسياب مع الضاحية الوسطى سند التي كانت قد انفصلت بشريط من حقول الذرة الصفراء والحدائق، عرضه (٢٥٠) ياردة من عند ضاحية المضمر الشمالية إلى اليمين وعلى الجانب الفعلي للوادي، والتي تنفصل عن البقية بأرض بساتين.

---

(١) الثكنة أو القشلة:ــ هي في الغالب بناية مكونه من عدة أدوار وأجنحة وممرات وغرف تستخدم لأمور عسكرية وإدارية من قبل الإمارات والحكومات التي قامت في شبه الجزيرة العربية خلال العهود الماضية. ولا زلنا نشاهد أطلال بعضها في أجزاء عديدة من البلاد. (ابن جريس).

لم يكن هنالك شيء جذاب في البلدة، التي -بصفة عامة- كانت تمثل مظهراً للتدمير والتآكل، غير أن بعض المنازل الكبيرة ذات الثلاث طوابق أو الأربع الخاصة بالمكارمة، خاصة في ضاحية حشا، فإنها ما زالت تحكي قصة الأيام الأحسن. يقع أكثر الأقسام المريحة في الوقت الحاضر، في البلدة، في الفلل المبعثرة التي تكون منفردة أو في مجموعات وتقع داخل الحدائق والبساتين. تقع الفلة صاغر المنعزلة الوحيدة ناحية اتجاه أسفل الوادي وعلى بعد الميلين من القلعة، وبجوارها ثلاثة بيوت تابعة الحمضة تكون على يمينها، وكلها داخل حدائق جذابة بالقرب من مكان التقاء واديي بدر ومحجر. تقع قريباً منها وعلى الجانب القريب مجموعة أكبر من المساكن داخل حديقة أكبر وتسمى خضران وبها سبعة منازل. تقع الصبيخة عند منتصف المسافة بين القلعة وصاغر وهي فلة منفردة وملحقة بها حديقة بينما تقع القرية الصغيرة التي تسمى قضان (سبعة منازل) في داخل الحقول المكشوفة على يمين المجرى. توجد عشرة منازل بين قضان وحشا، كلها على الجانب الأيمن، وملحقة بها حدائقها وتسمى جعران، بينما تقع الفلّتان المسميتان الرحبة عند منتصف الطريق بين القلعة وقضان على الجانب الأيسر. يكتمل المنظر بوجود برج مراقبة نحيل على الجانب الأيمن للوادي ويقع قريباً من معسكرنا إلى جوار عشة حقيرة من اللبن تقع قليلاً إلى أسفل وكما يوجد مزرعتان في كل منهما بئر وكلاهما يقع أعلى موقع التقاء الخانق مع الخضرة، كما يوجد بئر صالح على الجانب الأيمن للخضرة، وبئر قيس على الجانب الأيسر للخانق[1]. يبلغ عمق بئر عزيزة في المضمر حوالي تسع قامات وبرجها مبطن بألواح من صخر رملي ويبلغ

(١) لقد شاهدت آباراً عديدة في منطقة نجران، وبعضها يظهر عليها العمق الشديد في باطن الأرض وكذلك قدم تاريخ حفرها، ومنها ما لحقه الخراب والدمار، وبعضها لا زال يستخدم بالرعاة وأهل البوادي والأرياف. (ابن جريس).

قطرها (٢٠) قدماً ويتم سحب الماء منها بواسطة ستة حبال، وكان يعمل منها اثنان فقط حينما قمت بزيارته.

انتشرت أشجار نخيل طويلة هنا وهناك في القرية، وقد شمخت برؤوسها الرشيقة، غير أنها هنا في بدر، وفوق الهضبة المرتفعة بصفة عامة، فإنها كانت فقط للزينة. تحمل هذه الأشجار الثمار كطبيعة الأشياء، غير أن الثمار كانت صغيرة لا تؤكل، ويرفضها حتى البدو. يبدو أن الهضبة تقع على ارتفاع يفوق ذلك الذي يناسب الإنتاج التجاري لأشجار النخيل، والذي أتخيله أن يكون في حدود حوالي (٥٥٠٠) قدم على أقصى تقدير في هذه الأجزاء. أذكر كتاباً تم نشره أثناء الحرب العظمى لقصة مجهولة لتجسس مضاد تركزت في مدينة عربية تقع في حضن أشجار نخيل وشجيرات البن، غير أنني بالتأكيد لم أر هذه التوافقية في الحياة. كان أعظم ما تخصصت فيه بدر، هو زراعة أشجار التين، التي كان أجودها ما كان نامياً بالقرب من الوادي، حيث توجد أسوار ضخمة منها هناك وهي أكثر ما تكون تشتتاً في البساتين. كانت أشجار التين في هذا الوقت تسقط أوراقها سريعاً، وبرغم ذلك فهي لا تزال ذات ظل كافٍ. ينمو العنب كذلك هنا ولكن لا يجد العناية ويقال إنه ينتج ثماراً من نوعية متدنية. كانت هنالك شجيرات الرمان بكثرة ولكنها قد أهملت وتركت لرحمة مياه السيول إذ لم تعد تروى بمياه الآبار- لذا كانت ثمارها متوسطة النوعية. كانت هنالك أيضاً أشجار الخوخ وأشجار فواكه أخرى، ولكن على مستوى انتشار محدود، لقد انحصر كل النشاط الزراعي في بدر في زراعة الحبوب، يتخللها محصول برسيم معتبر والذي كان يجد تسويقاً جيداً في الجزيرة العربية. ينتج الدخن هنا محصولين في السنة، مقابل ثلاثة أو أربعة محاصيل في نجران وحبونا وقد تم حصاد محصول الخريف

بالفعل. ويزرع كل من القمح والشعير على مدار العام في تتابع متصل، على الأقل ثلاث، ربما أربعة مرات. كان محصول أواخر الخريف في هذا الوقت في مرحلة تكوين السنابل، ووقت حصاده ليس بالبعيد. بينما ينمو معه المحصول التالي في المساحات المكشوفة والذي قد بلغ ارتفاعه بوصتان، ويتوقع حصاده في أوائل مارس.

لقد وجدت بعض الرسومات الغريبة على صخور جبل تنور[١] حيث الفرن، غير أنني أستطيع أن أؤكد، حتي هذه اللحظة، غياب النقوش حول بدر نفسها- بمعنى أنه لا توجد نقوش قديمة- علماً بأن النقوش العربية قليلة الفائدة كانت متوافرة. كان من بين الرسوم العديدة لثعابين تتلوى، وصورة لكائن يشبه فرخ الضفدع وصورة لسحلية كبيرة، -ربما تمساح-، وشيء شبه السمكة برأس مستدير تحيط به أشعة. كان من أميز طيور بدر طائر الأبلق وثلاث حمامات خضراء (غرد). كما كانت طيور يمام الصخور والحمام في وفرة. إلى جانب أبلق آخر، كما تحصلت على طائر أبيض الحنجرة الأصفر ولعله كان يقضي الشتاء هنا.

هكذا كانت بدر. هرع رجل يجري نحوي، قبل مغادرتنا لها، يطلب العلاج لابنه الذي فقد سمعه حديثاً بعد هجمة للحمى. لم أستطع أن أفعل له شيئاً، وتحركنا في مسيرتنا، بينما حلق فوق رؤسنا صقر، يقال إنه يبحث عن شاة، وكان هذا أسلوب فقدانهم للشياه من حين لآخر.

---

(١) جبل تنور:ـ نسبة إلى التنور المعروف عند أهل البلاد، وهو وعاء يصنع من الفخار أو الحجارة، ثم يغرس في الأرض ويعمل فيه الخبز. وهو معروف عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية إلا أنه يختلف في شكله وأحجامه وطريقة استخدامه من مكان لآخر. (ابن جريس).

هبت علينا رياح باردة حادة شرقية ونحن نصعد وادي الخانق، تكون حيناً في بطنه وحيناً خارج شريطه، ونكون أحياناً ممتطين دوابنا، وأحياناً أخرى مترجلين عبر الأجزاء الصعبة المنحدرة والتي أجهدت حيواناتنا البائسة. كان معنا المرشد الجديد الذي اعترف لنا بعد أن تحركنا منطلقين بأنه لم ير مطلقاً النقوش المزعومة على سلسلة العشة أمامنا، والتي وظفه الأمير من أجلها، الذي كان قد رآها بنفسه خلال رحلاته، لأجل أن يقودنا إليها. كان في صحبتنا، لحسن الحظ، أحد رجال الأمير واسمه ضاوي، وهو أصم كالحجر، وقد صرَّح بأنه يعرف الطريق إليها. اتصلت سلسلة مبنى البيت الطويلة على يميننا تجاه الشمال مع سلسلة منخفضة تسمى مرقان ومن فوقها سلسلة سفلى تسمى العرف تبعد حوالي ستة أميال من طريقنا ناحية الشمال الشرقي.

يقال إن هذه السلسلة الأخيرة العرف هي رأس المسايل التي تقود إلى أسفل إلى حزيمة وإلى وادي ثار. يجري طريقنا في هذا الوقت عند منتصف المسافة بين مجريي الخانق والخضرة، ويكون أقرب قليلاً إلى الأخير منهما، وهو يجري فوق سطح من حجارة رملية صعبة وتنمو عليه أشجار القرظ المبعثرة حتى إذا ما كنا على مسافة أربعة أميال من بدر وصلنا إلى مفترق الطريق، يقود فرع الطريق الأيسر، والمتجه ناحية غرب الشمال الغربي، إلى سوق الأحد ماراً ببركان قرن سبط التابع لقرية أهل صروم. يقام السوق في بدر، بالمناسبة، أيام الثلاثاء تحت الإشراف القبلي لأبي ساق. سلكنا الطريق الأيمن نازلين مع مصرف عين جربوع الضحل والذي يوجد فيه نبع «ميت» في مكان ما إلى أسفل في الطريق إلى الخانق. وقد مررنا في مجراه على زرائب أغنام مبنية من الصخر لحماية الحيوانات ليلاً من الذئاب.

تحولت البلاد الآن إلى أرض شجيرات تنتشر بين مجرى عين جربوع ومجرى نعيمة وسرعان ما وصلنا إلى بئر سبكة (ينطق سبجه) وتقع داخل أخدود خنق نفسه والذي يقع رأسه الفعلي على بعد الميل الواحد تجاه شمال الشمال الغربي. يبدو أن الجمال تهوى قضم أغصان أشجار القرظ، فتركناها لذلك وذهبنا لنفحص البئر التي احتوت على ماء وافر على عمق قامة ونصف القامة، كان بعض البئر من صخر طبيعي وبعضها مدعم بالبناء عند قاعدة لصخرة ارتفاعها ٤٠ قدماً والتي لابد أن ينحدر منها شلال رائع أثناء السيول. كان هنالك رجل من أفراد قبيلة يام ومعه صبي صغير وبعض الماعز تشرب، كما مررنا بقطعان أخرى صغيرة تقوم برعايتها النسوة، تظلل هذه البئر أعداد من أشجار الآثاب (التين البري) وتعد بئراً قديمة قدم الزمن، إلاَّ أنه كان «ميتاً» حتى وقت قريب، وحيث تم حفره بواسطة مرافقي الأصم ضاوي، تحت أوامر الأمير. يوجد على الصخرة رسم جذاب لرجل مسلح بقوس وسهام مهدداً شخصاً عارياً، عديم الحيلة، رافعاً يديه إلى أعلى، رمزاً للاستسلام. كان العضو الذكري في كليهما مبالغ في تصويره، وكانت بجانبها علامة البئر وهي عبارة عن دائرة وبجوارها (١٨) نقطة.

شمخت ناحية الغرب وعلى مسافة ميل واحد السلسلة الصخرية الرملية المنخفضة التي تسمى قهرة زبيدة، وهي الموقع الذي ذكره لنا الأمير والذي توجد فيه النقوش القديمة والصور. توجهنا إلى هناك وكان الارتفاع حوالي (٧٠٠٠) قدم، وأمضيت ساعة ونصف الساعة أنسخ هذه الوثائق القديمة، التي كانت بالفعل تستحق الزيارة، إلى جانب النزهة. تبعد (قرن السبط) على بعد ميل ونصف الميل من هنا.

حيث قررت أن يكون معسكرنا الليلة عند مشارف عتبة أرض جديدة. لقد انتهينا من أرض الحشاشين ومن منطقة نجران وسنكون في أرض قحطان القديمة غداً. كان معسكرنا هنا على ارتفاع (٧٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر.

الفصل العشرون

تثليث الأعلى[١]

شمخت قمة قرن سبط على ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت القمة مخروطاً بركانياً قديماً، ولم يكن تسلق سفحها المنحدر البازلتي أمراً صعباً، إلا أن الصخر المعدني قد أثر بفعل بحقله المغناطيسي على بوصلتي التي بدأت تعمل بأسلوب غريب مما فرض عليَّ أن أصرف النظر عن قيمة اتجاهاتها. كان اتجاه قرن سبط من عند قلعة بدر هو (٣٠٢) درجة بينما كان الاتجاه المعاكس من قرن سبط إلى بدر هو (١٠٨) درجة بفارق أربعة عشر درجة. كانت صخرة البازلت ممتدة في طبقات عمودية ومن ثم برزت من فوق القمة غير أن البوصلة بدأت تعمل بأسلوب عادي حينما استخدمتها في الجزء المسطح الذي تكسوه الرمال. كان عليَّ، على كل حال، أن أراجع ملاحظاتي في النجوم لأتحقق من تقلبات بوصلتي، غير أنها كانت تجربة مربكة في حينها. لقد مررت بالظاهرة نفسها من قبل في المخروط البركاني لقرن القاعة بالقرب من طريب، الذي يمكن رؤية بعض تلاله البارزة من هنا: منها أم القصص والعار، إلاَّ أنها ليست واضحة تماماً.

تقع إلى مسافة ناحية اليسار السلسلة المرتفعة لقعم عبيدة (سلسلة أحد) التي كنا قد رأيناها من عند أبها وخميس مشيط، والتي تواصلت جنوباً لسلسلة مشابهة

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن وادي تثليث من بدايته في أعالي السروات حتى يصب في رمال أعالي هضبة نجد من الناحيتين الغربية والجنوبية الغربية، انظر: عبدالرحمن الشريف، **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ٤١٣ ــ ٤٢٨ ، فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص ١٤٥ ــ ١٤٦، علي الحربي، **المعجم الجغرافي.. (منطقة عسير)**، جـ١، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ . (ابن جريس).

مسطحة بركانية مع زوائد من حين لآخر منها: مشرفة، ونطفة، والمسورة على الجانب الغربي لحوض تثليث الأعلى الذي يمتد أمامنا والذي سندخل إليه سريعاً. ينحدر مجرى شعيب راحة من عند المسورة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، فوق قاعدة تلال عالية ماراً بالبلدة الصغيرة التي تسمى الحرجة (تقريباً غرب قرن سبط) ليصبح باسم وادي الفيض والذي بدوره يتصل مع وادي القصب في قرية القصب، التي يملكها آل حرّان وال جبرة التابعان لسنحان قحطان[١]، ثم يصبان في مجرى واحد يسمى «المضيق» وبعد ذلك يطلق عليهما اسم «تثليث». ينحدر في هذه الأرض المتقلبة، إلى الغرب من هذا الشريط، وإلى تلال عبيدة الرافدان العظيمان وهما العرين وطريب. يشترك وادي القصب نفسه مع وادي ثار في حد فاصل حيث أنه يمثل استمراراً لوادي ضحل يسمى البياض وهذا بدوره يمثل استمراراً لمسيل يسمى الخوايس ينحدر من عند الفاصل فوق الشفة الشمالية للهضبة العالية. توجد في مجرى بياض مجموعة من القرى عبارة عن المجمع وقمم جرانيتية بارزة تسمى اضكر ينتهي الطريق من بدر إلى هذا الموقع فجأة على حافة هضبة الحجر الرملي أسفل قرن سبط -حيث تميل الهضبة نفسها لتصرف مياهها جنوباً وشرقاً. ينساب كل من الخوايس ومسيل آخر صغير يسمى وقيره فوق الحافة إلى حوض تثليث. كنا هنا على القاسم المؤثر بين حوض تثليث وحبونا[٢]. نستطيع الآن رؤية شثاث والتلال العديدة الواقعة إلى ما يلي ظهران.

---

(١) سنحان قحطان: ــ إحدى القبائل الرئيسة لقبائل قحطان الحالية، وهي مجاوره لبلاد نجران من الجهة الشمالية والشمالية الغربية. للمزيد عن عموم قبائل قحطان وأوديتها وقراها، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٣٨ ــ ١٥٠ . (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن واديي حبونا وتثليث انظر: عبدالرحمن الشريف، **المرجع السابق**، جـ٢، ص ٤٠٧ ــ ٤٢٨ (ابن جريس).

بدأت تهب علينا رياح شديدة البرودة ونحن فوق تلك القمة المكشوفة بينما كنت أنسخ النقوش العديدة التي كانت على صخورها، كنا سعداء ونحن نغادر القمة ونعود إلى المعسكر وذلك قبل غروب الشمس. لم يبرهن مرشدي عوض، وهو من أبناء شريف سنحان[1]، جدارته كمساعد لي حيث أنه لم يفعل شيئاً غير العمل العادي في حدود معلوماته عن بلاده وكان يعتقد بأن الأشياء البعيدة ليست ذات أهمية لتثير التطلع إليها. استطعنا الإمساك بحرباء أثناء النهار والتي بدأت في وضع أعداد ضخمة من بيضها ونحن نعد العدة لإدخالها إلى زجاجة الموت. وضعت مع تقدم الليل (١٩) بيضة، وفي الصباح، وهي لا تزال حية، واصلت وضع البيض. بدأنا نتفقد الهلال الجديد لرمضان بعد وصولنا إلى المعسكر، غير أننا لم نره بسبب وجود شريط من سحاب نحاسي اللون متدنياً فوق السماء الغربي. لقد كان كل من الزهرة والمشتري مقتربين من بعضهما وكان ذلك نهاية مناسبة لليوم. لقد تأجل صومنا ليوم آخر. إلاَّ أنني لاحظت أن رجال يام القائمين على العناية بالجمال كانوا قد بدأوا بالفعل صيامهم في بدر (١٤ نوفمبر)، لعل ذلك كان استجابة لتوجيهات من أحد وكلاء المكارمة. إنهم يكملون بذلك يومين من شهر الصيام قبل أن نبدأ نحن برغم أنه من الواضح جداً أن الهلال الجديد كان لا يمكن رؤيته في الثالث عشر من نوفمبر. كان ذلك، على أي حال، أمر خاص بينهم وبين الداعي، وكانوا بالتأكيد ملتزمين بالصيام. أطبق الليل مع رياح غير طيبة وقد امتلأت السماء بالسحب، كان العراء المكشوف بارداً دون ملجأ، غير أنه لم يكن هنالك صقيع.

(١) شريف: ليسوا أبناء سنحان، وإنما شريف عشيرة وسنحان عشيرة أخرى، وجميعهم يعودون في قبيلة قحطان الأم. (ابن جريس).

يقع قرن سبط على بعد ميل واحد عند طرف الهضبة العالية وفي شريط عريض صافٍ، والذي قد تآكل من فوقه الشريط النحيل للصخور الرملية، أو أنه قد غسلته الأمطار من فوق سطح الصخور الرسوبية التي تقع أسفله. كانت الجلاميد الخارجية للهضبة من البازلت والجرانيت وهي مبعثرة في اضطراب شديد لتمهد مجرى للعديد من الجداول فوقها، والتي تصب مياه الأمطار من خلالها داخل شريط الصرف الرئيس الذي يقع إلى أسفل. توجد عند قواعد هذه المسايل وكذلك في المجاري الكبيرة الكثير من القرى الصغيرة التابعة لسنحان قحطان، وتكون عادة في مجموعات صغيرة. هبت علينا رياح باردة لاسعة من جهة الشرق. فتوقفنا لفترة عند رأس مسيل أثبة، حيث رغبت في مراجعة بعض اتجاهاتي من عند القمة المغنطيسية. اتضح لي أن الاتجاه من هنا إلى ناحية العار، مثلاً، كان (٣٢٢) درجة بدلاً عن (٢٩٧)، وهو فارق (٢٥) درجة. امتدت حافة الهضبة من هذا الموقع وعلى يسارنا ناحية الجنوب الشرقي مسافة ثلاثة أميال ثم اتجهت ناحية الجنوب الغربي في أرض صعبة تسمى العذار والتي يتصرف ماؤها جنوباً عن طريق شعيب مقم الذي يصب بدوره في شعيب أمتره، الذي ورد ذكره، كواحد من رؤوس حبونا. تتجه حافة الهضبة، على يميننا، بعد امتدادها إلى مسافة نصف الميل تجاه الشمال الغربي. إلى جهة الشمال الشرقي لتختفي في الفضاء البعيد قبل أن تدور جنوباً. يقوم مسيلان رئيسان هما الأجوف والخوايس بتصريف مياه الصخرة إلى كل من شعيب السميكة، الذي يقع تحت أرجلنا، وإلى وادي القصب بالتتالي.

وصلنا بعد سير صعب على الأقدام مدة نصف ساعة إلى شعيب السميكة عند ملتقى كل من الأثبة والأجوف، من حول الرعن المنحدر الذي نزلنا منه.

تكسو سميكة شجيرات جافة خفيضة وبعض شجيرات الطلح وكان الوادي دافئاً بشكل مريح مقارنة بالبرودة الشديدة في أعلى الجبل. لقد لاحظت أكواماً كثيرة من الحجارة على الطريق، ربما كان قد وضعها جامعوا الحطب المحليون، هذا الحطب الذي ينقل معظمه إلى سوق الحرجة، وذلك لوضع حمولتهم عليها أثناء توقفهم لتهدئة أنفاسهم قبل التقاطها مرة أخرى دون الحاجة إلى الانحناء. يحمل ناقلوا الملح في الهند معهم عصاة ذات قمة مسطحة للغرض نفسه. بدأنا نرى طلائع مزارع المجمع عند منحنى الوادي، حيث يدخل المسيلان وحيث كانت الصخور مغطاة برسوم لحاملي الرماح، وسرعان ما وصلنا إلى أولى قراها الصغيرة واسمها آل قناع على جانب الوادي الأيسر. تقع عرق بن مسلم من وراء آل قناع وعلى الجانب نفسه، وهي قرية أكبر قليلاً إلاَّ أنها مخربه تأتي قرية آل حاجب في مقابل عرق بن مسلم على الجانب الأيمن، بينما تستقر مجبه إلى أسفل قليلاً وعلى الجانب الأيسر وفي قسمين داخل حضن وتر مهيب من صخور جرانيتية. تقع آل جحيش خلف عرق بن مسلم عند قمم شعيب الوقيرة في موقع دخوله السميكة من جهة الغرب، ويكتمل المنظر بوجود مزرعتين فيهما بئران هما: بئر جلا وبئر الوادي. كانت هذه هي قرية المجمع الواقعة في شعيب السميكة الذي ينساب شمالاً ليتصل مع منخفض بياض. تسمى الصخور الجرانيتية الجميلة باسم تضكر. كان معظم سكان المجمع غائبين حين وصلناها لذهابهم لسوق الأحد في صروم ، ولذا يبدو المكان مهجوراً ومنعزلاً إلا من بعض النسوة وقد علمنا أن الناس هنا قد بدأوا صيامهم في اليوم السابق بأمر من المكارمة! كان أهل المجمع يتبعون سنحان، وكان من المثير أن نجد التأثير الديني للمكارمة ينطبق على إقليمهم. كانت مجمع قرية صغيرة بائسة بها بعض حقول الذرة الصفراء وبها الكثير من الأثل وبعض مساحات للتين البري والرمان.

واصلنا السير مع وادي سميكة مدة ربع الساعة إلى جزيرة ضخمة من جلاميد جرانيت رمادي تسمى حريمة تعلّم رأس أرض يسمى بياض - وهو عبارة عن فرجة واسعة بين مجموعة من تلال حجرية أكثر منه وادياً، إلاَّ أنها تحمل معها إلى أسفل استمرارية مجرى السميكة وهو يجري عبر مساحة زراعية أخرى متجمعة حول عدد من القرى الصغيرة تابعة لآل حيان (سنحان). يندمج بياض، عند النهاية البعيدة، على مسافة تجاه شمال الشمال الغربي مع وادي القصب، والذي لم تكن قراه مرئية لنا من هنا، برغم أنني قد رأيتها من قمة قرن سبط. تنتمي قريتاه الرئيستان وهما آل حران وآل الجبرة إلى سنحان وعبيدة بالتتالي[1]. لقد تسلقت إلى قمة الكتلة الجرانيتية، مزعجاً أثناء ذلك بحركتي هذه ثعلباً، وسرباً ضخماً من حمام الصخور، وأسراباً صغيرة من طائر «الحجل» ومجموعة كبيرة من طيور السوَّادية. كان الارتفاع عند القمة (٦٧٠٠) قدم فوق مستوى البحر وكان الوادي على مسافة (٢٠٠) قدم إلى أسفل، وعليه نكون قد هبطنا إلى (٧٠٠) قدم من عند مستوى الهضبة، وكانت الأجواء هنا دافئة ومريحة بما فيه الكفاية مما يؤمن لنا وقفة طويلة في منتصف النهار.

نظرت من عند القمة إلى قرية بائسة، وإلى ما حولها من منظر غير منظم لصخور وتلال في هيئة يصعب تصورها. لا يمكن الخروج بأي نظام جغرافي من هذه الفوضى. كان عرض حوض بياض حوالي نصف الميل غير أن معظم قراه الصغيرة تقع على شريط المجرى الفعلي الضيق للسيول. تقع قرية ثغر الصغيرة،

(١) عبيدة:ــ هي ما يعرف اليوم بسراة عبيدة، وهي من المراكز الرئيسة في بلاد قحطان ومن المحافظات الرئيسة في منطقة عسير. (ابن جريس).

وهي الأقرب إليَّ، على بعد ربع الميل وبها ستة منازل فقط. كانت قرية الشويكة والتي تلي ثغر هي القرية الرئيسة وبها (٢٥) منزلاً. وتوجد مزرعة ذات بئر مع اتجاه الوادي على بعد نصف الميل تسمى بئر البغدادي، وبئر أخرى اسمها بئر شويطر على مسافة نصف ميل آخر. كان ذلك هو كل ما يمكن مشاهدته، إلى جانب أرض لزراعة الذرة الصفراء والقمح والشعير، ومجموعات قليلة من أشجار التين والرمان. لقد أطلقت رصاصة أثناء نزولي للحاق برفاقي وهم يستريحون في ظل الصخور عند سفح التلال صوب سرب حمام بني وأسقطت أربعة منها، والتي كانت إضافة نرحب بها لإثراء وجبة الغداء.

يتكون رأس بياض من اندماج كل من وادي شعيب السميكة وشعيب الجيرة ويأتي هذا الأخير من جهة الغرب. وقد سلكناه لمواصلة مسيرتنا المتكاسلة، بعد أن سبقتنا في بداية السير جمال العفش بمسافة ساعة كاملة. كانت طيور الحجل والسيسي كثيرة هنا وبشكل مدهش، خاصة بين الجلاميد الجرانيتية والتي ملأت الوادي في سلاسل وأكوام والتي سرنا بينها بصعوبة، وكنا نمشي أحياناً بدلاً من أن نكون راكبي الجمال وذلك حسب صعوبة الممر الذي جاهدت فيه الجمال بحق. يسمى الجزء الأعلى من الجيرة باسم جنب[1]، وينحدر من عند السلسلة التي تقع على يسارنا برفقه عدد من الرعنات المنتشرة شمالاً لتتصل كلها مع الأرض الجبلية التي تقع على اليمين من موقعنا. مررنا بمجرى أزبيات أثناء خروجنا من جنب وذلك لعبور هذه الرعنات، والذي بدوره سيلتقي مع جنب بعيداً إلى الأسفل.

(١) جنب:ــ المقصود بها سراة قحطان اليوم وهم أساساً من مذحج القحطانية. لمزيد من التفاصيل عن ذكر اسم (قبيلة جنب) في التاريخ، انظر: الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ١٣٩ ، ٢٠٥، ٣٢٢، عاتق البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص ٧٢ ــ ٧٦ . (ابن جريس).

لقد قابلنا في الطريق مجموعة من القرويين وهم عائدون من سوق الأحد الذي أقيم في وادي صروم الذي يقع أمامنا. أوصلتنا سلسلة أخرى متعارضة ومنخفضة إلى شعيب مقصر وهو أحد روافد أزبيات الذي كنا قد سلكناه باتجاه أعلى الوادي إلى سفح بجلاميد ووصلنا إلى ما يليه إلى مزارع وإلى قريتين توءم هما نسلة وآل نزيه ويسميان معاً «العرف» وكلاهما في مسيل السواد. كانت فعلاً قرية واحدة ومنظارية جداً، تقف على سلسلة من جلاميد جرانيتية، والتي نهبط من عندها إلى تفرع المسيل إلى حيث حقول الذرة الصفراء التي تصل إلى الطرف المقابل. يجري من هذه النقطة خط صرف آخر يسمى جنب إلى داخل السواد من جهة الجنوب، ويتجه السواد نفسه إلى مقصر ومنها إلى أزبيات ثم إلى وادي القصب فيما يلي أزبيات.

وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق من جنب إلى مجموعة من أربع قرى صغيرة إحداها كانت مدمرة وبلا اسم بينما كانت أسماء الثلاث المتبقيات هي وسط، والعرق ورزقة بهذا الترتيب إلى أعلى. لقد كانت هذه القرى، بالإضافة إلى حفير، ذات أهمية قليلة على الرغم من ازدهار أشجار التين المزروع منه والبري (حمط وأثب) بين الحقول المبعثرة، كما يوجد في حفير نفسها أبراج جيدة. وقفت قرية كبيرة عند ملتقى شعيب الحباب مع جنب، تسمى القرن وفيما يليها قرية المعزب وبئر ورخة، وقد امتلأ الوادي في هذا الموقع ومن الجانب إلى الآخر بحقول القمح والدخن والبرسيم. توجد مزرعة بئر أخرى، تسمى بئر ابن رزقة إلى أعلى وبها قلعة مبنية على هضبة صغيرة مرتفعة، ويبدو أنها تعلّم الخط الفاصل بين قريتي العرف التي تقع وراءنا الآن، وقرى آل جشمة التي تقع أمامنا. تواصلت المزارع ترافقها أبراج مراقبة نحيلة متكررة تحيط بالحقول.

مررنا بآل ساري وآل هادي بالتتالي لنصل إلى آل جشمة نفسها وهي على جانب الوادي الأيمن، وتقع الزرقان على الجانب المقابل لها، وكانت هذه القرية التؤام آخر قرى شعيب جنب، الذي يتصل به هنا عند رأسه مسيل عبب القادم من جهة الغرب، والذي توجد فيه بعض الحقول كما يوجد فيه بئر تنتمي إلى مجموعة الزرقان. واصلنا سيرنا من هنا إلى أعلى حوض عبب الضحل، العاري، إلى حيث ممر من أرض صخرية ينتهي في مضيق الذي كان على ارتفاع حوالي (٧٠٠٠) قدم أو تقريباً على مستوى الهضبة العالية. ثم هبطنا من عنده إلى مسيل شعيب الحماطة ناحية الغرب ومدة عشر دقائق إلى حيث الموقع الذي ينحني فيه بشدة إلى جهة الشمال، تجاه شعيب صروم الذي يذهب بدوره إلى وادي الفيض. يكوّن مضيق عبب (أو الحماطة) هذا، تبعاً لذلك، الرأس الأعلى للنظامين التصريفيين وهما الفيض والقصب، اللذان يتحدان في الأسفل ليكونا وادي تثليث، غير أن الفيض، كما سنرى، ما هو إلاَّ استمرار لوادي راحة، الذي يحمل بدوره تثليث إلى الخلف إلى منبع بعيد.

تهمني دراسة شعيب الحماطة، برغم أنه غير مميز وكئيب المظهر، لقد عبر درب الفيل المشهور من هنا، عند منحنى الحماطة قادماً من الشمال عبر قرى الفيض وعلى امتداد شعيب صروم (حيث أسواق الأحد)، ومن فوق طريقنا هذا، صاعداً إلى الهضبة العالية عن طريق مسيل رافد ضحل ومنه إلى الطلحة، وإلى ظهران، وإلى سهل الحماد فيما يليها. لقد رأيته آخر مرة عند طريب. ولا يوجد ما يميزه هنا غير ذكراه الحية. من المدهش تأمل عمق تأثير درب الفيل على

الروايات المحلية القديمة في أعماق الناس هنا، الذين قد نسوا تماماً كل شيء غيره[١].

يواجهنا الآن صعود صعب إلى حيث مضيق آخر، يقع على الارتفاع نفسه كما في عبب، التي نزلنا من عندها إلى رأس شعيب صروم نفسه، حيث توجد مجموعة أخرى من قرى صغيرة ومن حقول. يدخل مسيل باقم إلى صروم من جهة الجنوب الغربي، وتكون مجموعة القرى الصغيرة ومجموعة الحقول في هذا الموقع ما يسمى بالديرة، عند الرأس الفعلي لصروم في سلسلة منشر على بعد ميل واحد إلى أعلى من عند طريقنا، وتقع آل حامد على يميننا وتتكون من كل من ابن حقة (التابع لآل زمر) وآل زاهر بالقرب من فم باقم. تعرف كل هذه القرية الصغيرة باسم الصدر أو الرأس (لصروم). يهبط باقم من عند السلسلة البركانية المنفصلة التي تسمى قعمة القلح البارزة من بين الحاجز الرئيس من خلف مجرى وادي راحة. لقد تتبعناه قليلاً إلى مسافة قصيرة فقط قبل أن نصعد إلى أرض ذات منحدرات على امتداد مسيل سوس، الممتلئ بأشجارالطلح. ثم ترجلنا عن دوابنا لنسير على الأقدام إلى أعلى السفح المنحدر إلى رأسه الذي يرتفع حوالي (٧٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر، أو على مستوى معسكرنا عند سفح قرن سبط، والذي من الممكن رؤيته الآن ناحية الشرق من موقعنا.

---

(١) درب الفيل: مشهور إلى اليوم عند سكان شرق بلاد قحطان وشهران، وغيرهما من القبائل الواقعة إلى الأجزاء الشرقية من بلاد السروات. وذلك لعدة أسباب منها:ـ (١) عبور أبرهة الحبشي بجيشة وفيلته من اليمن إلى الحجاز بغرض هدم الكعبة. (٢) إن حادثة الفيل واقعة مهمة عند المسلمين اليوم، بل هناك سورة في القرآن حول هذا الموضوع، وبالتالي فإن نسيان هذا الطريق وتلك الحادثة أمر صعب وبخاصة الأقوام الذين يعيشون قريباً من هذا الدرب (درب الفيل) وآثاره الموجودة حتى اليوم. (ابن جريس).

غربت الشمس الآن، وواضح أننا لن نستطيع الوصول إلى الحرجة هذا المساء دون أن نترك عـملاً كثيـراً أود أن أقوم به في هذه المنطقة المـتشعبـة من البلاد، لا توجد إشارة تدل على جـمال الحمل التي كانت قـد سبقتنا، ويبدو أنهـا ضاعفت الخطو للوصول إلى قدور اللحم في الحرجة قبل موعد الإفطار. كان من الممكن لنا أن نتركهم يذهبون ونعسكر في استقلال عنهم لولا أن ساعاتي الكرونومتيرية كانت معهم ولا بد أن يعبأ نابضها. لقد أرسلنا رسولاً لإحضارها وتحرك بقية الفريق إلى الأمام إلى أسفل شعـيب قليطة بحثاً عن موقع مناسب للمعـسكر إلى جوار مرعى للحيوانات. كان علينا أن نصعد المضيق التالي لنجد مثل هذا الموقع، والذي وجدنا في أسفله قطعـة أرض ذات شجيـرات في مسيـل يسمى شعـيب غربان في وسط جلاميد جرانيتية.

وصلت جمـال العفش إلى الحرجـة ولم تعد إلينا إلا عند السـاعة (٥, ١٠) ليلاً، وقد قادها ناحيتنا ضوء مصباحي والذي يمكن رؤيته من عند السلسلة الثانية، وقد سـعدنا كلنا بذلك، خاصـة شخصي. لـقد تم إنقاذ سـاعاتي، والآن يتطلع رفاقي إلى وجـبة طعام، ذلك لأنه لم يكن مـعنا شيء إلا تمر جاف صلب، وهو التموين الراتب العادي لرجال جمالنا، وقد كنا نجلس من حول النار لنشويها كأنها اللوز وذلك لنجعلها مستساغة للأكل. كان التمر بعد تلينه بهذا الأسلوب لذيذاً مع تناول الشاي معه.

نظر إلينا المبـذرون العائدون نظرة عـتاب وهم ينصـرفون إلى مـواقعـهم في المعسكر دون أن ينبـسوا بكلمة. ولقد رأيت بدوري أن ألزم الصـمت أيضاً، ذلك لأنني كنت المسؤول عن إعادتهم من عند مشارف وليمة إفطار رمضان. شاهد فرج في هذه الأثناء الهلال الجـديد لرمضان، وقـد فاتني أن أنتبه لذلك، إذاً يبـدأ غداً

صيامنا. لم يتم إعـداد وجبتنا البسـيطة الخالية من اللحوم إلاَّ قليـلاً قبل منتصف الليل، غيـر أنه إدراكا بأن أعمالي في مـوضوع النجوم غير ضـرورية في مثل هذا المكان، فقد استمتعت بالجلوس حول النار بلا عمل.

لم يكن هنالك صقيع أثناء الليل، غير أن رياحـاً شرقية باردة كانت تهب في الصبـاح عندما واصلنا مسـيرتنا ونحن صائمون. وصلـنا إلى المضيق بعد مسـيرة دقائق قليلة، وتوقفنا عند السلسلة التالية له مدة ساعة ونصف الساعة لتسجيل كل التفاصـيل عن المنظر الجديد. لقد نظرت إلى أسفل مـن عند ارتفاع (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى حوض وادي راحة، أو راحة سنحـان كما يسمونه محلياً. كان المشهد العـام لوادي مرتفع ممتلئ بالأشجار يخترق من جـهة لأخرى، العديد من المسـايل والمصاريف ويعترضه مجـرى واحد رئيـس يرتفع إلى (٨٠٠٠) قـدم أو أكثر من صخور داكنة بركـانية تقف على قاعدة مربعة لصخور متـقطعة محمرة اللون الأبيض. كما يمكن رؤية جزء من الحرجـة نفسها من عند هذا الموقع، وهي ليست بالبعيدة، ولما كان كل فرد الآن صائماً، فلا ضرورة للإسراع.

يدخل وادي راحة، الذي ينساب على امتداد قاعـدة سلسلة جبال بعيداً ناحية الجنوب، إلى الحـوض العظيم الذي أمـامنا، من بين سلسلـة جنعان علـى جانبـه الأيسر وسلسلة قعمة القلح عند قرية آل الطويل عند ملتـقى مسيل صغير قادم من ناحية الغرب مع المجرى الرئيس. ينساب هذا الآن إلى أسـفل عبر حقول آل نجيب المرقطة بالبروج إلى ناحـية القرية المتـوسطة الحجم التي تسمى آل بحـير وتقع إلى الجنوب الغربي لطريقنا المتجه إلى الحرجة.

يمر الوادي بعد ذلـك في منحنى عريض لمجـراه الكثير الأشـجار ليـتصل به وبالتتابع، كل من شعيب ولج الهابط من عند مـضيقنا هذا، والمجرى المشترك بين

قليطة وغربان (يسمى مضـرة) والذي يدور حول السلسلة على يميننا ومن خلفنا. كانت كل هذه النقاط تبعـد مسافة ميلين ونصف الميل وميلين في خط مـستقيم من عند المضيق من هنا. يمر المجرى نفسه، عند قرية آل السويد، على بعد ثلاثة أميال وبقربهـا يوجد بئر أم قطرة داخل مـجال رؤيتنا وهو في طريقـه إلى الفيض. تقع قرية ضـير، إلى الغرب من مـوقعنا، داخل مسيل يـجري بين جوعان ونتـفه، ثم يستمر هذا المسيل مـاراً بقرية سلعان الصغيرة والحرجة نفسـها ليتصل براحة وذلك بعد مروره بقلعة قـديمة تسمى أشرف تقع عند قدم الصخرة الجـبلية. يوجد مصب آخر يقع بعيداً إلى ناحـية الشمال يسمى شعيب جريدة حـيث توجد قرية حجراف على تل في وسط الحـقول، وقرية آل حـجر عند التقـائه مع راحة حـوالي ميلين ونصف الميل من موقـعنا. يخرج شعيب محله من عند نـتفة وبه قريتان صـغيرتان تابعتان لآل سرفـان وحصونهم المبعثرة، من عند الحاجـز الجبلي عند قرية آل زاهر ليتـصل مع راحة في آل السويد. يأتي بعـد ذلك في الترتيب شعـيب شعف وتقع قرية آل محيرث في مجراه ليتصل مع الوادي الرئيس أسفل آل السويد.

كانت كل هذه خطوط تصريف صغيرة نسـبياً، غير أن الخط التالي الذي يتبع من عند الحاجز على بعد سـتة أميال غرب الشمال الغربي كان ذا أهمـية عظيمة. أنه وادي يعوض والذي لم أقم بزيارته والـذي قيل إنه يجري لمسافـة طويلة بين أحضان الجـبال والذي تقع عليه قـرى عديدة والتي نرى منها واحدة فـقط من هنا هي آل التيس وهي عند مخرجه ناحية المشرف، وهي عبارة عن مخروط بركاني عند طرف السلسلة.

يحضن وادي يعوض الـصخور من هنا ويمر من الجانب القـريب بالمخروط البارز المسمى قرن الخبط تجاه الشمال الغربي من موقعنا لكي يعبر من خلال التلال المنخفضـة ليتصـل مع راحـة عـند أعلى موقع التقائه مع وادي الفيض. يمر يعـوض في موقع ما

بين آل التيس وموقع التقائه مع راحة، عبر القرية المهمة التي تسمى آل دليم، مقر إقامة رئيس سنحان الذي يشغل مركـزاً إداريا في الحكومة السعودية[١] بصفته أميراً على كل بلاد سنحان، مع بعض القيود في أمور المالية والقوانين الشرعية. تتجمع القرى في هذا الوادي داخل الحاجـز الجبلي تحت الاسم العـام شريف[٢]. يمكن رؤية العار وسلسلة جبال القعم في عبيدة، ناحية الشمال الغربي، في اتجاه طريب.

ذكرتني البـلاد التي تنتشر فـيها الجـلاميد الصخـرية والتي نزلنا من عندها الآن، بمحيط الطائف. وصلنا خلال عشـرين دقيقة إلى مجموعة قرى صـغيرة، منها قرية آل بحير وقرية البصرة، وقرية آل نجيب، وقرية فطيس، وقرية القلعة، وقرية آل الصعب، والعديد من الأبراج في أرض زراعيـة واسعة عند منفرج مسيل السـد إلى أسفل ناحية الجانب الأيمن لراحة نفسها حيث توقفنا لفتـرة وجيزة على صخرة ارتفاعها (٤٠) قدماً من جـرانيت مكشوف تطل على الـقرية المبـعثـرة والمحطمة. كـانت المزارع متـواصلة ومستمرة فعلياً من هذا الموقع إلى الحرجة نفـسها على بعد ميل واحد فقط، وقد مررنا بين حقول محاطة بالحجارة، وكلها كانت تبدو مـهملة ومهجورة غير أنها منتجة وذات محاصيل جيدة وذلك استجابة طبيـعية لسيول جيدة، ذلك لأن هذا المزج بين الصخور الجرانيتية والبركانية ينتج عنه عادة تربة خصبة. كانت الحرجة نفسها خارج خط الوادي عند منفرج مجرى تابع لها والذي كنا قد أقـمنا معسكرنا في بطنه عند الساعة الواحدة مساءً بعد مسيرة قصيرة في يوم كان كثير العمل.

---

(١) القرية الـتي تسمى (آل دليم) أو (الكولة) هي مـقر إقامـة شيخ شـمل قحطان ووادعة المـعروف بـ (ابن دليم). أما سنحان فهي عـشيرة من عشائر قحطان المتـعددة ومشيختهم في آل راسي، لكنهم جـميعاً مع غيرهم من عشائر قحطان ووادعة يعودون لشيخهم الرئيس (ابن دليم). (ابن جريس).

(٢) شريف: من قبائل قحطان الرئيـسة ويتبعون في مشيختهم إلى ابن دليم. للمـزيد انظر: محمود شـاكر. **شبة جزيرة العرب ـ عسير** (بيروت: المكتب الإسلامي، (١٤٠٠هـ / ١٩٨١م) ص ١٠٥ ـ ١٠٧. (ابن جريس).

كنا محظوظين أن نصل إلى هنا في يوم السوق المحلي، ففي الحرجة يقام السوق أيام الإثنين، وكان المكان مزدحماً بالزوار من الريف المجاور. كما يتوقع المرء منهم معظمهم من القحطانيين التقليديين، زبدة فرسان القبائل العربية، غير أن النسوة كن أقل ظهوراً في الأسواق مقارنة بنجران، واللاتي يأتين للسوق منهن كنَّ أكثر تحفظاً من أخواتهن في يام. وصلنا بالطبع إلى السوق في وقت متأخر وكان السوق قد بدأ يتفكك. كان هنالك تجمعاً لا بأس به في السوق، مع ذلك، والذين قد بدا عليهم الاهتمام العميق بشخصي وبتحركاتي. فأينما ذهبت تبعني فيلق من المتفرجين، غير أنني استفدت من هذا لأبعد الحدود، فقد كانوا على استعداد تام للإجابة عن أي سؤال أوجهه لهم، غير أنهم كانوا متشككين ومتخوفين من آلة التصوير. كانوا رجالاً مكتملين قويين، ذوي مظهر أرسطوقراطي أكثر من أولئك، قاطعي الطريق السابقين في يام.

استمعت إلى شكاوى من كل الجهات تدور حول الفقر والبؤس الذي تعانيه بلادهم ويعزى هذا إلى حقيقة أن العربي الحقيقي التابع لقبائل عظيمة لم يكن إطلاقاً مزارعاً. ينظر هذا العربي إلى الزراعة بأنها مهنة تناسب العبيد والخدم، وأن الأرض ستنتقم منه[1]. كان على الأيدي العاملة المؤجرة أو المكرهة أن تستفيد إلى أقصى حد من الأرض ومن الماء المتوافر، ولا يوجد رأس مال متوافر لتطوير الوسائل الزراعية لاستغلالها. ونادراً ما كان يتم حفر آبار جديدة، ونادراً ما كانت

(١) العربي من قديم الزمان يأنف من العمل في المهن المختلفة، بل إن هناك بعض المهن لا يعمل فيها إطلاقاً ويحتقر من يمارسها. أما مهنة الزراعة، وبخاصة عند سكان تهامة والسراة، فتأتي من المهن الرئيسة التي يقتاتون منها، وما ذكر فيلبي قد ينطبق على البدو الرحل، أما الذين يعيشون في القرى والحواضر والأرياف فإن الزراعة تعتبر مهنة رئيسة عندهم. (ابن جريس).

تصان السدود القديمة، والمساطب والقنوات، فضلاً عن تمديدها. كان على ملاك الأرض أن يقبلوا بما منحهم الله، وقد تكون المنحة أحياناً كافية بالكاد، وتكون أحياناً في وفرة عظيمة.

لا توجد وسائل مواصلات لنقل الفائض إلى الأسواق المربحة، وإذا تم ذلك فهو بتكلفة عالية. كانوا بصفة عامة يعيشون بأسلوب الحياة من اليد للفم ولم يكن هنالك فائض لثروة حقيقية. وقد اتجهوا -تبعاً لذلك- إلى الحكومة وشكوا من انصرافها عنهم وعن الاهتمام بشأنهم. وقد اعتقدوا بأسلوب غامض بأن حضوري لهم مع تبريكات ابن سعود هو تنبوء لهم بمستقبل أفضل[١]. كان المخزون لغرض التجارة لهذا السوق كما هو في أية مكان آخر هو تلك البضائع التي تباع بالقطعة وهي رخيصة الثمن، والتوابل الضرورية وما يباع في البقالات، والمنتجات المحلية، برغم أن التمور كان بنداً بارزاً وذلك لأنه غائب.

باشَرَت الحكومة السعوودية قبل فترة سبقت هذه الأيام العمل بتجربة الإدارة المباشرة لمنطقة سنحان، وقد أوفد إليها أمير من الرياض واسمه عبدالله بن عثمان. وسرعان ما دخل عبدالله في خصومات مع العادات المحلية ومع شيخ القبيلة المحلي وقد تم إعادته حديثاً. لقد جاء دليم بن دليم خلفاً له ودليم هذا هو شيخ السنحان الذي كان قد منح لقب أمير على منطقته القبلية وكان مقر عمله الرسمي هو الحرجة[٢]، حيث بقي معه عدد قليل من كتبة الخدمة المدنية من الإدارة النظامية

(١) فعلاً كان الناس في حاله اقتصادية سيئة، ولكن بعد توحيد البلاد في عهد الملك عبدالعزيز، وتوفر الأمن بدأت الأحوال الاقتصادية تتحسن، بل صار الناس يأمنون على أرواحهم وممتلكاتهم بعكس العهود السابقة. (ابن جريس).

(٢) دليم بن محمد بن دليم هو شيخ مشائخ وادعة وقحطان. وقرية الكولة كانت المقر الرئيس للمشيخة ثم حل محلها قرية الحرجة التي تقع بين سراة عبيدة وظهران الجنوب. (ابن جريس).

وذلك لأداء العمل المالي والدخل الضروري، بينما تم تعيين قاضٍ جديد لتنفيذ العدل طبقاً للشرع. لقد ترك كل ما عدا ذلك لصلاحيات دليم، ولم تواجهه مشكلة في إدارة أمور قبيلته.

كان دليم مشغولاً في المجلس حين وصولنا، ينظر في الدعاوي العادية الموجهة لعناية الأمير في أيام الأسواق، وبمجرد استقرارنا في معسكرنا ذهبت ومعي فرج لزيارته. لقد كان فعلاً بمظهر الرئيس لقبيلة عربية فهو رجل قوي، وفي متوسط العمر، ويظهر عليه السمات السامية. لم يقدم لنا دليم قهوة أو أي منعشات أخرى، وذلك بسبب الصيام ولم أعطله طويلاً عن رغبته في العودة إلى يعوض لينعم باستراحة الظهيرة وقيلولتها. ومن جهة أخرى لقد كان كثير الحماس، في أن يمدني بمرشدين ممتازين وذلك لاستكشاف إقليمه وقد أصر على أن أعده بزيارة أخرى في وطنه الخاص بعد عودتي من ظهران.

ما كدت أستقر في المعسكر حتى وصل أحد عبيده واسمه شعبان ومعه شاتان قد أرسلهما لنا سيده بغرض إعداد عشائنا. أكرمته -بالطبع- بالبقشيش العادي وأدهشني أنه رفض أن يأخذه. لم يكن هذا بالأمر المألوف، غير أنه متوقع. كان هذا الرجل هو نفسه الذي كلفه الأمير في غيابه، مع أوامر مشددة، أن يقوم بتأمين أحسن المرشدين المتوفرين لخدمتي. لقد زارني شعبان عدة مرات أثناء فترة الظهيرة وبرهن لي على أنه شخص يجمع بين قوة الشخصية وبين السلوك الجذاب. وبرغم أنه مصنف ضمن طبقة العبيد وهو بالفعل زنجي الأصل[1]، إلاَّ أنه يبدو في تطبيق

(١) كان الرقيق موجودين بكثرة في جنوبي البلاد السعودية، وكان يؤتى بهم إلى البلاد عن طريق الحجاز واليمن وسواحل البحر الأحمر، وربما نجد والخليج العربي. (ابن جريس).

سلطات سيده وكأنه جبل على ذلك. أخبرني أن يعوض تبعد مسافة ساعة سفر من الحرجة، لنقل خمسة أميال في بلاد صعبة كهذه.

كان هنالك القليل من الظل حول المعسكر، وكانت استلقاءات القيلولة عند الظهر كثيرة التقطع وذلك بسبب أشعة الشمس التي كانت تتخلل الموانع التي وضعت في طريقها. كنت أحس بالإرهاق إما نتيجة ذلك، أو بسبب الصيام، وخاصة حرماني من التدخين، عند نهاية فترة العصر، وقد كنت سعيداً بمغيب الشمس في ذلك اليوم الأول من رمضان. لقد أسيء طبخ شاة الأمير للأسف بواسطة زملائي وكان عشاؤنا فاشلاً. أطبق المساء في دفئه تحت سماء ملبدة بالغيوم وهو الأمر الذي تداخل إلى حد ما مع ملاحظاتي للنجوم، ثم برد الجو في وقت متأخر من الليل، وسقطت علينا بعض درجات من الصقيع. كانت أقصى درجة حرارة في الظل عند فترة ما بعد الظهر حوالي (٧٢) درجة فقط، وكانت الحرجة عند ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تنهض القرية، وهذا كل ما فيها، من الجانب الأيسر لمسيلها فوق منحدر لطيف والذي من عند قمته بدت منازلها ذات الثلاثة طوابق شديدة الجاذبية. يقع السوق ناحية الغرب من القرية في مكان واسع مكشوف محاط بجلاميد جرانيتية. اختلط اللون الرمادي لهذه الصخور مع لون البناء الداكن البازلتي للقرية ومع جدرانها المتبقية على امتداد المسيل، لتصنع صورة كئيبة. تدعم هذا المظهر الكئيب قربة من الجبال البركانية الداكنة، الناهضة في معظم أجزائها إلى شريط مستوى مسطح عند القمة يطل على، أو بالقرب من، لج تهامة. ويحمل إلى جانب ذلك قرى مشرف، والنطفاء، وجوعان، وقلح بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب، وقد ورد ذكرها. كانت أبرز السمات للجانب المرئي من سلسلة الجبال وفي ترتيب تجاه الجنوب هي أبا ثول، وأبا الصبر،

والسعدي، وليطان وحـمَّل -تقع كلها تجاه الجنوب من الحرجة- ثم شيـبة. يبدو، من بين هذه القرى، أن سعدي وشيبة مميزتان وقد علّمتهما لكي أقوم بزيارتهما.

ربما كان مسيل الحرجة هو الذي أشيـر إليه من قبل باسم ضيسر أو هو فرع منه، عبـرنا سلسلة منخفضة، عندمـا واصلنا السير في الصـباح كانت تفصل الحـرجة عن شعيب عقيقـة والذي عن طريقه وصلنا إلى قرى آل الطويل التي ورد ذكرها تتكون من آل بحير والبصرة إلخ إلخ. ذلك بكونها تـقع على أسفل المجرى حيث تتصل مع راحة سنحان التي تقع الآن ناحية اليسار لطريقنا وليست هي بالبـعيد كثيراً، إلى جانب قرية أخرى تسمى القـروات، التي تشاهد إلى البعيد في مـجراه، وقرية آل جهيم الصـغيرة التي تقع أمامنا على جانبه الأيسر. قابلتنا هنا فتـاة كانت متسلقة لشجرة طلح طويلة، وكانت تقطع بالفأس أغصـانا كبيرة منها توفر العلف لقطيع مـاعزها الذي تجمع أسفل الشجرة، والذي كان يلتقط الأوراق العصارية الصغيرة وبشهية واضحة. تمكن الملاحظة الآن وبسهولة كيف أن مثل هذه البلاد من خلال سلوك أجيال مهملة قد أصبحت معرّاة من غاباتها. سيكون من عديم الجدوى بالطبع أن نعـترض على ما تقوم به هذه الفتاة، فهي بعد كل هذا مسؤولة عن إطعام قطيعها[١].

تقع قـرية آل سويد عند مـعبر عين الوعـل، بالقرب من انبـعاج التقـائه مع راحة، على بعد نصف الميل باتجاه أعلى الوادي وكانت القرى الصغيرة المماثلة هي آل مونس ومحـجر القضا وكلاهما أسـفل منا. كما تقع إلى مسافـة في آل شماخ مجموعة صغيرة من المنازل، مقابل راحة، وتكون أطلال آل الحمال إلى أعلى منها وعلى الجانب نفـسه. كان الـوادي ممتلئاً بكثافـة بأشجار طلح قـديمة طويلة والتي

(١) في الآونة الأخيرة صارت وزارة الزراعة تقوم على حماية الغابات من الخراب وقطع الأشجار، بل هناك قوانين صارمة لمن يمارس أي تشويه أو قطع للأشجار دون إذن مسبق من الجهات المسؤولة عن ذلك. (ابن جريس).

حلقت فوقها البلابل الكثيرة، وقد استغرقت في التفكير إن كان نقار الخشب الذي كنت قد اكتشفته من قبل يصل بعيداً إلى هذا الجنوب. وصلنا بعد مسيرة دقائق قليلة إلى آل حريج وآل جهيم (آل جعدنه). تقع هاتان القريتان في مسيل صغير والذي من عند رأسه هبطنا إلى جانب الوادي راحة مرة أخرى بالقرب من آل حيان وسرعان ما وصلنا إلى القرية الطويلة المتعرجة واسمها القروات. استقرت في مقابل هذا المكان وفي مسيل يأتي منحدراً ناحية الجانب الأيمن لرحة، القريتان الصغيرتان، وهما هجرة وآل باهر من فوقها.

يدخل الوادي العريض المسمى وادي الحبيط، من عند النهاية أعلى الوادي باتجاه قروات، على ارتفاع (٧٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى راحة وعلى جانبه الأيسر. يقود طريق هام يقع أعلى هذا الوادي، ماراً بقرية آل عبدالله، والتي تشتمل على ثلاث قرى صغيرة، ثم الصمعة وتقع أعلاها، ثم إلى ممر عقبة شراقب عند قدم سعدي. هذا هو أفضل وأيسر طريق من بين كل الطرق التي تقود إلى تهامة جنوب منطقة أبها وسأترك وصفه إلى الوقت المناسب، ذلك لأنني سأسلكه في نهاية الأمر في طريقي إلى الساحل.

كان لدينا عمل آخر يشغلنا في هذه الأثناء، وقد عبرنا راحة إلى قرية الحوط التابعة لقبيلة شريف حيث توجد مباني مهيبة غير أنها في معظمها كانت في حالة مدمرة. توقفت هنا في طريق العودة ولن أذكر شيئاً عن ذلك الآن. يجري الوادي فيما يليها تجاه الجنوب لفترة قبل أن يدور فجأة ناحية الشرق في واجهة جبل شيبة، الذي كان هدفنا المباشر. وقد سلكنا طريقاً مختصراً، لنصل إلى قاعدته، عبر قاعدة المثلث الذي يكوّنه الوادي، وهو يتبع خط شعيب الظفارة، الذي يجري إلى أسفل راحة في الحوط.

تقع قرية جزعة على يميننا عند منحنى حاد لراحة، عند مدخل شعيب جيسان من جانب الوادي، وتكون قرية جيسان إلى أعلى الرافد. ذكر مرشدي وهما رجلان قويا البنية من رجال القبائل التابعة لبلاد ابن دليم أن الجزعة وهي أول قرية تابعة لسنحان في راحة، بينما كانت كل القرى الصغيرة التي عبرناها حتى الحوط تابعة إلى آل شريف. لقد كان هذا محيراً لي، ذلك لأنني توقعت أن يكون آل شريف فخذاً من سنحان وبعد إعادة التفكير توصلت إلى الاستنتاج بأن هذا يجب أن يكون هكذا، علماً بأن فخذ شريف، وهو القسم الذي يتبعه الرئيس، يمكن النظر إليه كفرع مستقل لقحطان، مثله مثل سنحان وعبيدة. يجب أن أعترف بأنني غير متأكد من ذلك[١]. كنت قد رأيت قرية آل فاضل الصغيرة وذلك عندما وصلنا إلى جانب الوادي الأيمن لراحة مرة أخرى، وتقع على الجانب المقابل، على مسافة نصف الميل عند قاعدة شيبة. اعترض طريقنا المسيل الصغير المسمى عطيف وتقع عليه قرية آل أبو مخروقة قليلاً باتجاه أعلى الوادي، وذلك قبل أن نصل إلى آل دشان في راحة نفسها حيث ترجلنا لنبدأ الصعود.

كان ارتفاع الوادي (٧٣٠٠) قدم وتقع قمة شيبة ناحية الجنوب من موقعنا وهي شامخة فوق رؤوسنا. كانت حقول آل دشان ذات المساطب قائمة في الجزء الأسفل من جانب التل مع جدران متبقية ترتفع إلى عشرة أقدام[٢]، واحتلت القرية الصغيرة الثانية مستوى أعلى قليلاً، بينما يمكن رؤية آل يصبا على الجانب الأيسر لراحة على مسافة ميل واحد باتجاه أعلى الوادي. كانت هنالك بعض

(١) نعم عبيدة، وشريف، وسنحان فروع رئيسة في قبيلة قحطان، ولكل قبيلة من هذه القبائل شيخ يدبر أمورها، لكنهم جميعاً يعودون إلى المشيخة العامة لقحطان ووادعة عند ابن دليم. (ابن جريس).

(٢) تسمى هذه الجدران باسم (المدرجات الزراعية) تبنى حول المزارع لتمنع تربتها من الانجراف، وبلاد السروات من الحجاز إلى اليمن تشتهر بهذا النوع من المدرجات. (ابن جريس).

أشجار الفـاكهة بالقرب من الوادي في هذه الأرض التي تحتوي أيضـاً على حقول ذرة صفراء كان معظمها قد تم حرثه حديثاً، والتي كـان السير فوقها صعباً غير أنه ليس بالسطح المنحدر. كان الجزء الأول من الصعود إلى أعلى تجاه الصخرة الحمراء عند قاعدة الجبال البركـانية، وقد وصلنا إلى موقع التماس بين الاثنين - وهو خط طويل مستقيم حاد يقع على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم.

كانت كتلة التل فـيما يلي هذه من بازلت شبيـه بذلك الذي شاهدناه في قرن سبط، وكان مركـباً عمودياً ويبدو أنه من المحـتمل أن تكون كل سلسلة السراة من عند قـعم عبيـدة جنوباً هي من نوعـية التكوين نفـسه، بينمـا يوجد أيضـاً سبب للاعتـقاد بأن الشريط التحـتي المحمر البيـاض يحتوي على البوكـسيت. لم تكن هنالك صـعوبة في التسلـق وذلك لأن مرشدي كـانا يعرفـان الطريق جيـداً، وقد وصلنا إلى قمة سـفلى لقمة الهضبـة العالية الواسعة، على ارتفـاع (٧٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وذلك في خلال (٤٠) دقيقة من عند القاعدة.

يمكننا الآن أن نسير بسهـولة عبر المنحدر اللطيف إلى قاعدة القمة الحـقيقية، ومرة أخرى وجدنا الـصعود سهلاً، وقد استـغرق إكمالنا لكل المهمة حـتى القمة (٦٥) دقيقة من عند مجرى رحـة، حوالي (١٠٠٠) قدم، وذلك لأن القمة تقف على ارتفاع (٨٣٠٠) قـدم فوق سطح البحر. وقـد وجدنا عليها مـصلى وكانت بعض جدرانه ترتفع إلى ثلاثة أقدام غير أننا لم نجـد محراب القبلة التي تقول عنها الروايات المحلية، كمـا يقول مرشديَّ، أن النبي (صلى الله عـليه وسلم) قد زارها وصلى فيـها![1] ويقع بالقرب من المصلى تذكـار قديم، عبارة عن لـوح صخري عليه نقوش وصور تمثل رمّاحين ممتطين.

(١) هذا ضرب من الخرافات والأسـاطير؛ فالرسول لم يصل هذه البلاد التي يتكلم عنها فيلبي في هذه الدراسة وبخاصة ما يقع جنوب بلاد بني سعد في الطائف حتى بلاد اليمن. (ابن جريس).

كان المنظر من هذه القمة عظيماً بمعنى الكلمة ويدفع للرهبة، لقد قمت بمراجعة بوصلتي في كل من الحرجة والحوط ودخفة وقد وجدت أنها كانت تعمل طبيعياً وقد أصبح بإمكاني مواصلة العمل بها دون مخاوف في بقية مسوحاتي. فوق آل يصبا تعرج مجرى راحة حول قاعدة شيبة وقد انتشرت فوقه خمس قرى صغيرة التابعة لآل الأشعث على امتداده من ناحية الشمال الشرقي إلى ناحية شرق الشمال الشرقي على بعد ميل ونصف من مكاننا في خط مباشر. وعلى بعد المسافة نفسها كما تقع في راحة أيضاً قرية آل ملعب ومن فوقها قرية العوران الصغيرة. تقع في مسيل شعب آل مسعود الذي يهبط من عند عرن قعمة القلح إلى راحة قليلاً أعلى آل ملعب، قريتان صغيرتان وهما آل خاري وآل الشعب التي تليها من أسفلها.

لم نستطع رؤية أي من قرى راحة أعلى العوران من عند هذه القمة، وذلك لأنها كلها كانت محجوبة بكتلة الجبال. يجدر بي أن أقدم قصتها هنا، وقد رأيتها أثناء عودتي إلى أسفل من المضيق الجنوبي لشيبة الذي كان يسيطر على منظر كامل لراحة إلى عند رأسها في قمة مسوره قليلاً ناحية الجنوب الشرقي. كانت هذه البقعة على بعد (٣٠٠) ياردة من القمة وفي ذلك الاتجاه. تقع أولى القرى الصغرى التابعة لراحة وتكون أعلى العوران إلى الشرق من موقعنا وعلى بعد ميل ونصف الميل في خط مباشر، وتقع قرية آل علي[1] ومعها آل جحلان على مسافة نصف الميل أعلى منها وتقع قرية أهل بقعان إلى أعلى أكثر، حيث يدور الوادي بعنف ناحية الغرب في تدرج منحدر. كما تقع قرية ومزارع آل لوي في هذا الامتداد الذي يصل طوله إلى ميل ونصف الميل قبل أن يدور مرة أخرى ناحية

(١) آل علي: ـ يطلق عليهم أيضاً آل بن علي، أو آل علي بن علي. (ابن جريس).

الجنوب ليصعد للمرة الأخيرة. نستطيع أيضاً رؤية أجزاء من الصفراء وآل عيفة على قمة الوادي، وهما أعلى من آل لوي، حيث تتجمع مسايل المسورة لتكونه. يتضح للقارئ من هذا أن وادي راحة، من رأسه إلى محيط الفيض هو عبارة عن منظر لمناطق مأهولة باستمرار ومشغولون بالزراعة التي يقوم بها عدد قليل ومبعثر من السكان الذين يعيشون في مجموعات صغيرة ونادراً ما يزيد حجمها عن الأسرة الواحدة[١].

لنعد الآن إلى المنظر العام من عند القمة ولو من على بعد أمكننا الآن أن نرى، بعض معالم المرتفعات العليا لوادي يعوض داخل الحاجز الجبلي. تقع هذه المعالم فعلياً تجاه الشمال من عند موقعنا، وقليلاً ناحية الغرب وكانت أعلى القرى هي آل العباس التي تقف على صخرة تبدو لصدع عميق في الجبل عند قاعدة القمة الأعلى. يمر هذا المجرى الصخري العميق بآل شارد ثم كانت بالتتابع بعد ذلك قرى آل قبس والشرمان وآل صيت مع قرى صغيرة أخرى لا ترى، وذلك لأن المسيل يدور إلى أسفل حول قرية آل التيس حين دخوله حوض راحة. يمكن رؤية الجزء الأعلى من وادي محلة القريب من هنا، وتقع على جانبه قريتا ضبعة وعقلة (الزرقان).

يكفي هذا لمسح المناطق المأهولة التي يسكنها الإنسان. لم تكن بدر نفسها مرئية لنا غير أن قرية قرن سبط كانت بارزة. لقد حملت كل من سلسلة العرف وسلسلة مرقان خط الأفق الشرقي إلى مبنى البيت وإلى دخفة على جانب الوادي

(١) المناطق الجبلية الممتدة من سنحان في بلاد قحطان حتى بلاد الطائف مأهوله بالسكان، وذلك لما تتميز به هذه البلاد من مقومات للحياة مثل:ـ التربة الصالحة للزراعة، والمياه الجوفية، والتضاريس الصالحة للرعي والصيد وجمع الحطب وغيرها من المهن الضرورية لعيش الناس قديماً. (ابن جريس).

الأيمن لحبونا وكلاهما يطل على الخضرة. كان المنظر قميئاً في ذلك الاتجاه بصفة عامة وناحية الجنوب، فيما عدا القمة الجذابة التي ترى في المجال الرئيس إلى أسفل قرية المسورة، ويعرف باسم رميح ويشبه في شكله أحد الأهرامات المدرجة في مصر. انتشر الوتر لجبال خولان العالية من جهة الشرق تقريباً إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب الغربي، وبدا رائعاً غير أنه يقع إلى البعيد حيث لا ترى تفاصيله. لا حاجة لي للحديث عن المنظر الشمالي أكثر من ذلك، وذلك لأنه لا توجد سمات رئيسة فيه لم ترد من قبل في قصتي. يترك هذا المجال للربع الذي يقع بين الجنوب الغربي والشمال الغربي - وهو منظر رائع بمعنى الكلمة لجبال عالية ولسلاسل عظيمة متدحرجة ذات أودية عميقة ومضايق خطرة تبدأ كلها من تحت أقدامنا وتمتد إلى البعيد إلى مرمى البصر وذلك لأننا لم نر سهل تهامة من ورائها فضلاً عن رؤية البحر. تنبع كل هذه الأودية والصدوع والشقوق التي تشاهد باتجاه الغرب، من عند هذا الحاجز الجبلي العظيم الذي يرتفع إلى حوالي (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يشاهد رأس وادي بيش من عند الحدود الشمالية لمنظر الجرف، وهو يأتي من سلسلة من الصدوع والمسايل التي تجري منسابة إلى أسفل من عند طرف الحلقة التي تتكون من الجوانب الغربية لكل من النطفاء، وثروع، ونودان، وكتفاء، وليتان، وسعدي، وتقع القرية الصغيرة المنعزلة التي تسمى الجوه عند قاعدة كتفة، غير أنني سأكتب عن وادي بيش بتفاصيل أكثر في فصل آخر. كشف الامتداد الأمامي للجرف، عند النهاية إلى اليسار لهذا الوتر، وفي اتجاه الغرب، عن منظر للشريط الطويل لقمة السراة يمتد إلى البعيد، ناحية مرتفعات أبها، والذي توجد فيه سلسلتان بارزتان بهما قمم عالية، ويجهلهما مرشداي، وقد أعادا إليّ ذكرى

تمنية[١]. وقد ارتفعت أمامهما سلسلتا الجبل الأسود والقهرة، كما أسماها مرشداي، برزت جيسان الغربية، من عند ليتان، الذي ورد ذكره، منطلقة من عند قاسم مشترك مع مسيل بالاسم نفسه يتجه إلى أسفل، إلى راحة، مائلاً عبر حافة منحدر الجرف عند مروره بأكتاف شيبة الخارجية لينبعج في رأس شعب السهوة الذي يقع أسفلنا (يقبل من جهة الجنوب)، قليلاً فوق التقائه مع وادي بيش، في المكان الذي يدخل منه مضيق ضلع إلى النظام نفسه. يتكوَّن المنظر الذي يشاهد أمامنا، حقيقة، من سلسلة من سلاسل متقاطعة متوازية متجهة نحو مجرى بيش على الجانبين. شمخت القمة النبيلة لفيفاء إلى البعيد، وهي أعلى من تلك القمم التي تشاهد على الجانب الأيسر من بيش وتتكون من: حمار، والغول، وأثيث، وغيرها -أي تجاه جنوب الجنوب الغربي- ومعها شقيقاتها العملاقة والتي كانت أسماؤها غير معروفة لمرشدي.

كانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن ننتهي من مهمتنا في شيبة ونبدأ نازلين المنحدرات الجنوبية اللطيفة، المتجهة ناحية قرية راحة التابعة لآل لوي. واصلنا سيرنا على الأقدام مدة ساعة إلى المجرى، الذي كان ارتفاعه هنا (٧٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، عند منتصف المسافة بينه وبين القرية العليا من قريتي بقعان، وكانت كل منهما على مسافة نصف الميل من موقعنا. وجدنا جمالنا تنتظر بصبر، ثم عبرنا منحنى الوادي وكنا نسافر بصعوبة فوق الصخور البركانية. كان كل الوادي أعلى من بقعان ممتلئاً بحقول الذرة الصفراء والشعير وكلها جاهزة للحصاد. كانت بقية الحقول غير جاهزة بعد وكان الدخن نصفه مكدس ونصفه

(١) تمنية: ـ إحدى مناطق شعف شهران، هي تبعد عن مدينة أبها حوالي (٣٠ كم) جنوباً وتعد من أجمل المناطق السياحية في منطقة عسير. (ابن جريس).

الآخر ينتظر المنجل. كما كان هنالك الكثير من أشجار التين وبعض أشجار الرمان المبعثرة وأشجار أخرى.

تتبعنا مجرى الوادي الذي يتجه ناحية الجنوب الشرقي حينما عدنا إليه مرة أخرى، والذي لا يزال يخترق حقول الشعير والدخن والذي كانت فيه الطبقة المحمرة البياض (بوكسيت) بارزة عند قاعدة منحدراته السهلة البازلتية، على الجانبين. استدار المجرى أكثر ناحية الجنوب وقد انحصر عند المنحنى ومن أعلاه بآبار من بازلت والتي تقع فوقها مجموعات من شجيرات العثرب وهي مزهرة، ووردية وجميلة جداً. كان لون الرمال في المجرى في هذه اللحظة أسود عند وأسفل موقع التقاء ثلاثة شعيبات تكوِّن رأس راحة. هي: شوقبه على اليسار، والأبتر في الوسط، وآل عيفة على اليمين، مكوِّنة في موقع التقائها حوضاً ضحلاً. وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق إلى أعلى مجرى عيفة الذي كان مكسواً بحقول الشعير إلى حدود القرية، وصلنا كذلك إلى نهاية عمل اليوم. كان معسكرنا قد تم إعداده فوق أرض غير مزروعة على بعد (٢٠٠) ياردة من حد القرية الصغيرة وبعيداً عن عمليات الطبخ التي كانت تجري قبل غروب الشمس لهذا اليوم من رمضان. كانت هذه مسيرة يوم كامل لبعض رفاقنا تحت ظروف الصيام، غير أنني فيما عدا الامتناع عن التدخين، لم أحسّ بأي مضايقة ولما كان لدينا أكثر من ساعة كاملة قبل الإفطار فقد انطلقت في جولة استكشافية.

لا يمكن تمييز منازل القرية بين بساتينها ما عدا برج مربع بارز. كانت تحتوي على أشجار تين متخشبة، غير أنني لاحظت أن مواد بناء المنازل هنا، كما في العديد من القرى الصغيرة إلى أسفل، تحتوي على نسبة معتبرة من الصخر المحمر مع شيء من البياض ليخفف كآبة البازلت الشائع. انتشرت حقول الذرة الصفراء

عبر الوادي، مع قليل من مساطب ترابية عند رأسه تكونت من اتحاد مسيلين صغيرين، ينحدران من عند كتف مسورة، والمحجر من جهة الغرب ومن هيجة من جهة الجنوب الشرقي. يصرف كل من الأبتر وشوقبة إلى أسفل، سفوح مسورة تجاه الجنوب الشرقي، غير أن حوض آل عيفة محصور داخل دائرة من تلال منخفضة، حددت علينا مجال الرؤيا في كل الاتجاهات. كان الارتفاع عند آل عيفة نفسها حوالي (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر، بينما كانت رؤوس كل من المحجر وهيجة وكلاهما معاً يعدان الرأس المؤثر لوادي راحة ومن ثم لوادي تثليث، فهما يرتفعان فوق ذلك بحوالي (٢٠٠) قدم.

وصلنا الآن إلى ارتفاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر لأقصى حد ممكن لتثليث وهو أعظم وأطول وادٍ في الجزيرة العربية، يبدأ من هنا على مرأى من البحر الأحمر -في يوم صافٍ جميل-، ويجري شمالاً مسافة (٣٠٠) ميل ثم يدور ناحية الجنوب الشرقي عبر وادي الدواسر والربع الخالي على الخليج العربي. من المؤكد أن الطول الإجمالي لهذا الوادي أكثر من (١٠٠٠) ميل. لقد رأيت الآن ثلاثة أقسام معتبرة من تثليث في مساره شمالاً، والآن ولأول مرة يمكن وضع مساره على الخريطة مع درجة من الدقة. يتقاسم شعيب شوقبة مستجمع الماء الذي يقع على مسافة الميل الواحد من هذه المنابع، مع وادي الحمرة وهو واحد من المصادر العديدة لوادي حبونا. لم ير أوربي غيري أي جزء من هذين الواديين العظيمين. شعرت بنشوة الارتياح وأنا أرى شمس يوم صيامنا الثاني وهي تغرب[1].

(١) للمزيد من الإيضاح عن وادي تثليث انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤١٣ ــ ٤٢٨ . (ابن جريس).

بدأت السحب تتجمع في السماء قبل الغروب، وقد سقطت بعض القطرات بالفعل. أفطرنا بالأسلوب التقليدي، حبات من التمر وفناجين من القهوة حول نار المعسكر قبل صلاة المغرب وقبل العشاء، وكنا نجمعهما دائماً أثناء السفر. ثم تعشينا وقد اجتمع كل من القمر والزهرة والمشتري في مثلث منفرج الزاوية في مساحة خالية تقع بين السحب وكأنها تراقب ما كنا نقوم به. اكتظت السماء بالسحب سريعاً، وكان عليَّ أن ألزم الصبر حتى ينكشف السحاب عند منتصف الليل لأقوم بملاحظاتي حول النجوم. أدرك النوم كل المعسكر وكل القرية الصغيرة بينما ظللت أنا ومعي سعد نعد المزواة لنثبت موقع تثليث.

صحونا مبكرين لنتناول السحور قبل بداية صيام يوم جديد وعدنا إلى نومنا بعد أداء صلاة الفجر وكانت الشمس قد ارتفعت عندما دبت حركتنا مرة أخرى. لم يكن الجو بارداً أثناء الليل حيث كانت الدرجة الدنيا (٣٧) درجة. بدأت صعود مسورة مع مرشدي بمجرد أن أحسسنا بدفء شمس الصباح، تاركين البقية يخلدون للراحة في المعسكر إلى حين عودتنا. لقد أزعجنا سرباً من طائر الحجل كان داخل حقول الذرة الصفراء أثناء سيرنا عبر مسيل محجر الصعب، كانت أشجار التين ممتلئة بمجموعة من طيور السوادية والبلابل، ويبدو أنها كانت تستمتع بالتقاط الحبوب. كانت طيور الأبلق وافرة على سفوح الصخور وعلى أطراف المزارع، متضمنة النوعين النموذجي والجنوب الغربي (O.S.bottae). (O.lugentoides) وجدت عند رأس المسيل منبع محجر آخر، ناحية اليمين، يجري أسفل الجانب الشمالي لسلسلة عيفة ليتصل مع راحة عند المنحنى الحاد أعلى قرية آل لوي[1].

(١) ربما يطلق أيضاً على قرية آل لوي اسم (آل الهويج). (ابن جريس).

تتبعنا الآن الكتف الأسفل لمسورة تجاه الجنوب مارين برؤوس هيجة، ويقع الجرف الرئيس لها على يميننا، يسقط في مدرجات منحدرة من صخور سوداء إلى مضيق شعيب الغول والذي كان يزدهر بالشجيرات والأشجار الخضراء. كما كانت الهاوية كالحة المنظر.

وصلنا الآن إلى ما يبدو أنه المستوى العام لحاجز قمة السراة، الذي يكوِّن حافة الجرف وقد برزت فيه النقاط العالية مثل شيبة ومسورة وكأنها أهرامات عظيمة.

قابلتنا فتاة راعية أثناء هبوطنا إلى قاعدة مسورة، وهي من قبيلة سنحان وكانت ترعى قطيع أغنامها في هذه المرتفعات المنعزلة وقد تبادلنا معها التحيات ولولا الصيام لكان صاحَبَها جرعات من اللبن. كنا على ارتفاع (٨١٠٠) قدم، عند هذا الموقع، فوق سطح البحر ولم نجد صعوبة في الصعود إلى القمة التي ترتفع إلى (٤٠٠) قدم. كانت القمة عبارة عن مسطبة مسطحة صغيرة تنتشر عليها جلاميد ضخمة وألواح من بازلت يصل قطرها إلى حوالي (١٠٠٠) ياردة. كانت الصخور هنا مغناطيسية للأسف، كتلك التي شاهدناها في قرن سبط، وقد أحسست بعدم الارتياح لأداء بوصلتي واتجاهاتها غير أن المنظر مرة أخرى كان عظيماً.

كان منظر حاجز السراة، كما يرى من هنا، ناحية الشمال، منسقاً على شريط يبدأ من عند شيبة إلى الشمال الغربي من موقعنا وليس بالبعيد منا وينتهي عند مرتفعات تمنية وأبها ناحية غرب الشمال الغربي، بينما توجد في الاتجاه المعاكس السلسلة العالية البركانية التي تسمى مرعة والتي يقال: إنها تطل على باقم من ناحية الغرب، وتقع فعلياً ناحية الجنوب.

ويبدو أن حافة الجرف داخل الأراضي العربية السعودية من عند الحدود في ممر علبين إلى مرتفعات أبها، تكون وتراً لطيفاً، يتجه ناحية الجنوب الغربي ليحتضن البانوراما الرائعة لقمم الجبال والسلاسل العالية والمضايق العميقة التي تؤلف مرتفعات تهامة، هذه المساحة التي تختلف كثيراً من السراة العارية من حيث الطقس ومن حيث مجموعاتها النباتية والحيوانية. أنها تنتمي إلى الإقليم الأثيوبي تحت المداري ولا تنتمي إلى الجزيرة العربية، وتبدو كأنها شريحة من الجبال الأثيوبية قد تركت على الجانب الخطأ للمياه وذلك حينما تكون وادي الصدع العظيم بعد مخاض الأرض في العصور القديمة[١]. وقف جبل فيفاء، من هذه الجبال العظيمة، في شموخ ومعه كل من حشر ومنجد وزهوان وقمم عالية أخرى كثيرة وسوف أتجول بينها كثيراً ولأسابيع كثيرة.

يجري الشريان العظيم لوادي بيش في وسط هذه المساحة الضخمة مع عروق جانبية له تربطه مع الجبال من على الجانبين. يصرف جزؤه الشمالي ناحية البحر عن طريق وادي بني شعبة متجهاً نحو شعيب ضلع بالقرب من أبها. كان الشريان الرئيس النائي، فيما يلي هذا، ويقع خارج نطاق الرؤيا، هو وادي حلي، بينما في الجنوب وداخل حدود مجال الرؤيا، فإن المرتفعات كانت مجرّحة بروافد وادي جازان. سيتم وصف كل هذه بتفاصيل أكثر في فصول لاحقة[٢].

---

(١) عن تضاريس بلاد السروات وبخاصة المنحدرات الغربية منها انظر: عبدالرحمن الشريف. **المرجع السابق** جـ٢، ص٢٧٥ ــ ٣٨٨ . (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع عن الأدوية التي تصب من بلاد السروات ناحية الغرب حتى البحر الأحمر، انظر: محمود شاكر. **المرجع السابق**، ص١٣ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، حـ٢، ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

تقع المنابع العليا لوادي حبونا على الجانب الآخر، ناحية شرق ضلع السراة، وذات أهمية كبيرة لي ذلك لأننا سنهبط إلى هناك قريباً بمجرد فراغنا من مسحها من أعلى، وهي تنهض في دائرة تتجه ناحية الشرق للجبل عند ما يقدر بست نقاط ويجري عبر الهضبة الحجرية الرملية المكسرة وغير المنسقة إلى مضايق صخرية تقود إلى أسفل إلى حيث الوادي العظيم. نبدأ برأس شعيب مقم الذي يقع عند سفح قرن سبط - أو بدلاً من ذلك من عند رأس الخانق -بدر- قاب فيما يليه- فإن أكثر المنابع أهمية هي:

١- سلسلة مرحض وتقع على بعد أربعة أميال من مسورة، وعرن جنوبي قعمة القلح الذي يكون رأس وادي الحمرة وهو ينساب إلى قرى الطلحة.

٢- الفرع الشرقي لمسيل شوقبة الذي ينحدر إلى وادي الحمرة عند سفح مسورة.

٣- شعيب قحيث وهو مسيل على الجانب الشمالي لمسورة، يصعد بالكاد نصف الميل عن القمة، ويجري متعارضاً أسفل الجبال ليتصل مع شعيب الدرة الذي يهبط من قمة رميح من عند القريتين التوأم التابعتين لآل ثابت، ومن عندهما ينساب ليتصل مع الطلحة أعلى منفذه بين حقول وبساتين كل من المحجر وطرف الذراع.

٤- شعيب آل فروان، وبه قرية ابن داهش الصغيرة (آل فروان) وتقع على جانبه الأيسر وينساب مستقيماً إلى موقع آخر من جوانب شثاث. تتقارب كل هذه عند مضيق الضيقة الذي يقع مباشرة أسفل طرف الذراع لتكون مجرى أم طرا، والقرى التي تقع أعلاه، والتي تشتمل على الطلحة وغيرها بالإضافة إلى تلك

التي ورد ذكرها، وتسمى كلها في شمولية «الغيل»[١]. يمكن بالكاد رؤية مجرى ظهران من هذا الموقع، ويمكن تأخير الحديث عن اتصاله مع الروافد المختلفة فيما يليه ومع حبونا إلى الفصل الآتي.

أشرت إلى أن سلسلة السراة وقممها كانت بصفة عامة عارية، وأن التأثير الذي تتركه في المرء هو الجفاف مقارنة مع الغطاء النباتي الثري للأودية ولسفوح الجبال الواقعة ناحية الغرب. كانت هنالك بعض أشجار العرعر، حتى في الأطراف السفلى من مسورة، وليس، حسب معرفتي، في شيبة التي لم أرها منذ مغادرتي مقاطعة أبها، كما كان هنالك غطاء نباتي خفيض وبكثرة خاصة في المسايل المناسبة له وفي الصدوع منها أشجار الطلح والشث والجبر والثول والطباق والحوشة والمستعار (نبات حساس) والعشرب وردي الأزهار[٢]. كان النباتان الأخيران متوافرين بكثرة خاصة حول حقول آل عيفة التي قد عدنا إليها الآن وذلك لمواصلة مسيرتنا إلى الحوض الأعلى لحبونا. لقد اكتشفنا، على الأقل، منابع تثليث، وقمنا بوضع الحل للمشكلة التي كانت قد شغلت الجغرافيين مدة قرن كامل.

(١) الطلحة:ـ قرية في بلاد قحطان لا تتبع (الغيل) الذي يجمع اسمه عدد كبير من القرى. (ابن جريس).

(٢) جنوبي البلاد السعودية تمتاز بغطاء نباتي جيد، فيوجد بها مئات الأنواع من النباتات والأشجار المختلفة في الأشكال والألوان والاستخدام، للمزيد انظر: **كتاب النبات للدينوري** (عدة مجلدات)، فريدة قدح، **الغطاء النباتي الطبيعي في الإقليم الجنوبي الغربي**، ص ٢٨ وما بعدها. (ابن جريس).

الفصل الحادي والعشرون

المنابع العليا لحبونا[١]

تمتلك شوقبة رأسين يتجهان في ناحيتين متضادتين من عند ممر يقع على الطريق الرئيس بين ظهران والطلحة ناحية الجنوب وبين قرية الحرجة وقرية راحة تجاه الشمال. كان المجرى الذي يقود إلى راحة أسفل حقول آل عيفة قصيراً، وصعباً ومنحدراً بلطف، بينما كان الثاني طويلاً ومنحدراً بهبوط (٣٠٠) قدم، وكان طريقه صعباً بصفة بارزة (للحيوانات) ويقود إلى أسفل إلى الرؤوس العديدة لشعيب الحمرة. هبطنا راجلين تاركين الجمال لتجد الطريق المناسب لعودتها.

وصلنا بعد هبوط ١٥٠ قدماً إلى قمة صخرة محمرة مشربة بالبياض ويطلق العرب عليها اسم مغر ويستخدمونها على شكل مسحوق في الأغراض البيطرية - وهي صخرة ناعمة وسهلة الانسحاق تمتد إلى مسافة أسفل تماسها مع البازلت الذي يعلوها، غير أنها تتصلب إلى صخرة ناعمة بيضاء وصلبة عندما تكون وسطاً وتعود مرة أخرى للتكسر حين تعلو هي فوق صخور جرانيتية والفلدسبار المكشوف من أسفل. تعرف الخبراء في المتحف البريطاني على الصخرة بأنها بوكسيت بناءً على العينة التي كنت قد أرسلتها إليهم، وهو خام الألومونيوم. وقد وجدته في وقت لاحق متكشفاً على الجانب الغربي لحاجز السراة ويستنتج من هذا أن هذا العرق من البوكسيت الذي يبلغ عمقه، حوالي (١٠٠) قدم يمتد أسفل امتداد

(١) لمزيد من الإيضاح عن وادي حبونا ومنابعه وفروعه، انظر: عبدالرحمن الشريف. **المرجع السابق**، جـ٢، ص ٤٠٧ ــ ٤١٠ . (ابن جريس).

القلنسوة البازلتية للسراة والتي يبلغ طولها (١٠٠) ميل من ناحية الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرضها حوالي الميل الواحد. تمدنا عملية حسابية سريعة بالحجم الكلي للصخر بما يقدر بـ (٧٠٠٠) مليون طن شحني، ولا أدري كم من البوكسيت سينتجه هذا، أو حقيقة، إن كان مربحاً تجارياً. خطر لي أنه من المجدي إجراء التعدين ثم نقل المادة على الطريق الجبلي الرأسي. سيكون إنشاء طريق مكلفاً جداً بلا شك، ولكن هنا -مع ذلك- فيبدو أنه مصدر لم يستغل بعد من مصادر الثروة الطبيعية.

يقع رأس هذه الأرض التي تسمى شعيب الحمرة حوالي ميل واحد إلى الخلف ناحية الشمال الغربي، وبعد أن امتطينا دوابنا سلكنا مساره الشرقي إلى أسفل عبر غابة خفيفة وكثيفة من أشجار الطلح تقف في وسط خليط من جلاميد جرانيتية، تذكرني مرة أخرى، ببلاد الطائف. اعترضت طريقنا عشرات المسايل الصغيرة المنحدرة من عند سفوح الجبال وذلك أثناء ما كنا نقترب تدريجياً من مجرى حمرة الرئيس الذي يجري إلى يسارنا إلى أسفل إلى وسط حوض ضخم غاطس بين آبار من صخور بركانية أكسبته مظهر الفوهة البركانية الضخمة. كانت هنالك خيام مبعثرة في المسايل الأكبر وهي: عين البقرة وشعيب دخس، تدخل مجرانا من ناحية الغرب، ممرنا بأناس ربما كانوا رعاة يرعون قطعانهم في هذا الغطاء النباتي، بينما مررنا من حين لآخر بمجموعات منهم راجلين ومرحين أو هم على ظهور الحمير عائدين من سوق طلحة الأسبوعي وهو سوق الأربعاء. لقد منعتنا زيارتنا إلى قمة مسورة من هذا النشاط، وكان النهار قد تقدم كثيراً. كانت المسيرة أحياناً صعبة جداً في مسارات ضيقة جداً بين جلاميد بينها أشجار الطلح ذات أشواك رهيبة.

تركنا المجرى الآن لنجد أنفسنا مرة أخرى في رافد آخر من روافد الحمرة، وهو شعيب النقيل الرملي الضيق الذي تحيط به من على الجانبين سلاسل جرانيتية عالية، تقع سلسلة القرارة العليا من خلفها على مسافة ميل واحد على يسارنا، ويجري تحتها -كما قيل لي- طريق وجد أنه مناسب لحركة سيارات الأمير سعود وجيشه أثناء حرب اليمن. جاءت السيارات من أبها، أغلب الظن أنها كانت سالكة طريقنا هذا حتى الأمواه ومنها إلى الفيض ومنها إلى الطلحة وظهران. ربما كان الطريق من الفيض إلى الأمام هو درب الفيل القديم. يتصل النقيل مع مجرى آخر يسمى الحنكة الذي مررنا فيه بواسطة طريق مختصر فوق أرض صعبة جداً من جلاميد ضخمة وقادنا إلى سلسلة منخفضة وإلى مضيق. ترجلت عن دابتي لأسير على قدمي صاعداً أتفقد أكوام الحجارة العديدة على جانبي ما يبدو وكأنه ممر شيد بعناية، غير أنني لم أجد معنى يفسر هذا، وكان بمقدورنا أن نظل في المجرى إلى الموقع الذي ينبعج فيه مع شعيب الإصادين من ناحية الشمال والغرب بالتتابع ويجري إلى داخل حوض الحنكة. يعني الاسم «ضيق»، والذي يشير بوضوح إلى ذلك الممر الضيق مهما كان مغزاه في الأزمان الغابرة.

ضربنا في سيرنا فوق منحدرات حجرية منخفضة، بعد أن تركنا المجرى يواصل مساره إلى الحمرة، أيضاً تسمى القو، تقع على جانبه الأيمن، الذي تشاهد عليه آثار إطارات سيارات عبرته قبل عامين، لا تزال معلمة فوق سطحه الصلد. كانت الآثار تتجه ناحية الجنوب الشرقي ولكنها لم تصمد أمام خط الصرف التالي، وهو فرع آخر الإصادين الذي استدرنا فيما يليه ناحية الشرق إلى أسفل

(١) لقد أعطت الدولة مؤخراً فرصة التعدين للمستثمرين في البلاد، والأجزاء الممتدة من الحجاز حتى اليمن غنية بمعادنها الجيدة والمتنوعة. (ابن جريس).

إلى حيث شعيب آخر لنصل إلى مصرف الحمرة الرئيس في أرض تسمى وادي الأفياض، وهي فرجة جميلة يبلغ عرضها ميلاً واحداً وكانت أرضيتها من رمال وردية جميلة وعلى الجانبين وقفت سلاسل صخرية كان طير الحجل الذي كنت قد اكتشفته متوافراً فيها.

يمكننا الآن أن نرى الطلحة أمامنا وقد وصلنا إليها خلال عشر دقائق وذلك قبل غروب الشمس بقليل لنعسكر بجوار أشجار الطرفاء الكبيرة في بطن السيل الرملي لأحد المجاري العديدة التي تصب هنا والتي تكون حوضاً ذا اعتبار لحقول القرية. لم نتمكن من الذهاب إلى السوق، غير أنه يبدو أن بعض الزوار من خارج المنطقة قد تخلفوا مع مضيفيهم لتناول إفطار رمضان معهم ولقضاء الليل. كان اسم أحدهم ابن داهش وهو رئيس شعيب آل فروان الذي أقبل ومعه رئيس الطلحة[١] واسمه ملفي[٢] ليتفقدانا بعد عودتنا. لقد دعوتهما لمشاركتنا طعام الإفطار، غير أنهما لم يستطيعا ذلك، إذ كان ملفي يتوقع ضيوفاً آخرين ينتظرونه في منزله، وقد غادر كلاهما قبل غروب الشمس. يبدو أن الطرفاء الكبيرة التي عسكرنا تحتها كانت هي الوكر للصقر المحلي الذي راودتني الآمال أن أضيفه إلى مجموعتي. ولكن هذا لم يحدث.

أقبل الطائر العظيم في حذر على ارتفاع كبير، وأحس بأن هنالك شيئاً غير طبيعي يحدث عند شجرته، ومن ثم طار لحال سبيله غير أنه عاد مرة أخرى ليجدنا لا نزال محتلين الموقع، وأخيراً اختفى تماماً ليبحث لنفسه عن سرير في موقع آخر لقضاء الليلة. كانت طيور الغداف هنا من الصنفين المعروفين في الجزيرة العربية

(١) يسكن الطلحة فرع من عشيرة آل منصور اليامية، وهم داخلون بالحلف في قحطان، ولهم خصوصيتهم، كما يسكن الطلحة أيضاً أسر من قبائل وادعة وقحطان. (ابن جريس).

(٢) ملفي، يسمى ملفي العرام، وهو من أعيان قرية الطلحة. (ابن جريس).

الصنف الجبلي أو المروحي الذيل والصنف الصحراوي الشائع البني الرقبة. كان كلاهما وافراً هنا وكانت كلها عائدة لمأواها وجاثمة بإزعاج لقضاء الليلة.

كان ابن داهش رجلاً ذا تأثير، قوياً وذا ميول أرسطوقراطية قد أسرَّ إلينا بفخر بأننا لم نعد في أرض قحطان، بل نزلنا ضيوفاً على قبيلته العظيمة وادعة[1]، والتي مثلها مثل قبيلة يام وقبيلة دهم وغيرهما تكون قسماً مستقلاً ومهماً للأصل التاريخي العظيم لهمدان بن زيد. تشق الحدود القبلية بين وادعة وسنحان خطوط صرف لكل من الإصادين والحنكة وتعبر فوق خط الحمرة عند الطرف وباتجاه أعلى الوادي لأفياض لتواصل الانسياب إلى حافة الهضبة العالية. يستمر خط الحمرة – والأفياض، وعلى جانبه الأيمن تقف قرية طلحة عند منفرج المجرى الصغير الذي عسكرنا فيه فوق منحدرات سلسلة تسمى الخيالة، وأيضاً يطلق عليها اسم الطلحة ومنها إلى قرية طرف الذراع حيث تصبح مضيقاً يسمى الضيقة والذي بدوره يصبح شعيب مرار في قرية تسمى ملحة، ثم يستمر عبر أم قرة إلى مجرى الخانق عند قرية القرن. ومن عند هذا الموقع وإلى بقية الأجزاء إلى أسفل فهي أرض تابعة لقبيلة يام خالصة، بينما إلى اتجاه أعلى الوادي بما في ذلك ملحة فهي أرض تابعة لقبيلة وادعة.

تقع قرية الطلحة، التي تحتوي على (٢٠٠) منزل وعدد من السكان -بما في ذلك قاطني الأبراج المبعثرة- حوالي (١٠٠٠) نسمة، في المنحنى الذي يكونه مجرانا هذا الصغير وفي الوادي الرئيس على هضبة مرتفعة قليلاً بين حقول مستوية

(١) قبيلة وادعة من القبائل الرئيسة في بلاد قحطان، وشيخهم الرئيس هو ابن دليم، مع العلم أن قبائل وادعة لها العديد من المشائخ المحليين، للمزيد انظر: محمود شاكر. المرجع السابق، ص ١٠٥، عاتق البلادي. بين **مكة وحضرموت**، ص٧٤ . (ابن جريس).

واسعة، وتوجد في هذه حصون من حين لآخر تلتحم مع سفوح سلسلة الخيالة وتمتد إلى مسافة مع اتجاه أسفل الوادي في شكل وتر لتنتشر من حول القرية. أحسست بسريان الحياة الطبيعية في هذه القرية وهو إحساس لم أجده في أي قرى أخرى تابعة لسنحان أو شريف التي كنا قد عبرناها، وكانت بها مساكن يبدو أنها حديثة إذ إنها مبنية بعناية وقد برزت فتحات نوافذها داخل إطار مستطيلات عريضة من الجير الأبيض، كانت القرية متعرجة إلى حد ما وبها مجموعة من المنازل التي تبدو وكأنها مهجورة[١].

يلتف طريق السيارات حول سلسلة الخيالة المسننة حيث علامات دواليب السيارات واضحة، ليواصل مسيرته إلى وادي الطلحة وإلى قرية المعلف الصغيرة على بعد مسافة ميل واحد. ثم يضرب إلى أعلى شعيب القحيف قبل أن يتفرع. يصعد الفرع الأيمن الذي سنتبعه إلى السفوح السفلى لشثاث إلى مضيق يقع بينه وبين السلسلة المجاورة (للقهرة)، ثم يهبط عبر طريق صعب إلى ظهران. أما الفرع الآخر الأيسر والذي سلكته سيارات الأمير سعود في طريقها إلى سهل الحماد على الحدود بالقرب من النقعاء، فهو درب الفيل، ويصعد مجرى شعيب قاوية إلى ممر منخفض من سلسلة القهرة وسلسلة بياح[٢]، ثم يهبط إلى قرية المجزعة في وادي العرين، تجاه الوادي بالنسبة لظهران ثم يمر عن طريق سلسلة تسمى المصلولة تجاه النقعاء، وأخيراً يتجه إلى صعدة وصنعاء.

---

(١) الطلحة:ــ قرية قديمة وردت في كثير من كتب التراث الإسلامي، وبخاصة كتب الرحالة الجغرافيين مثل:ــ الهمداني، وابن خرداذبة، والإدريسي، وابن حوقل والاصطخري، وابن الفقيه وغيرهم. (ابن جريس).

(٢) بياح: ربما يطلق عليه أيضاً اسم (المبرح). (ابن جريس).

أخبرني ملفي، مرشدي، أن طريق الفيل إلى الشمال من الفيض يمر خلال سهل خبت ومجرى خنقة، ثم يعبر الجزء الأعلى من وادي العرين (ربما عند الغارس) في طريقه إلى طريب وما يليها. كانت معظم التلال المنخفضة والسلاسل في منطقة طلحة من البازلت، الذي برزت سفوحه من عند أرضية رقيقة من الصخر الرملي. تقع طلحة نفسها على ارتفاع (٦٧٥٠) قدم فوق سطح البحر، وقد أحسست بلطافة المساء هنا تحت سماء امتلأت بالسحب منذ غروب الشمس، غير أن مقياس الحرارة سجل أربع درجات من الصقيع أثناء الليل، كما سجل عند الساعة (٨,٣٠) صباحاً وفي الشمس (٦٢) درجة فقط.

لقد تسلقت إلى قمة الخيالة لألقي نظرة لما حوله، وذلك قبل أن نترك المعسكر للمرحلة التالية من رحلتنا، والتي من أجلها تحركت جمال العفش متقدمة علينا. لقد شكرت رفيقي القويين وصرفتهما مع إكراميات لهما مني، وكلاهما ينتمي إلى سنحان، كانا عظيمين، متيني البناء الجسمي، كما كانا نحيلين وشديدي الاحتمال وكانت سماتهما نموذجاً للسامية ولكن للأسف، وقد أدهشني أن أجد ذلك فيهما، فقد كانا متأثرين بعقدة النقص برغم أنهما كانا رقيقي الحديث والسلوك ومتواضعين. يطلق أهل سنحان وشريف شعورهم الطويلة مفرودة أو مجعدة وفي الحالتين فهي مدهنة بكثافة[1]. يصعب التمييز من أول وهلة حقيقة بين العنصرين إلا أن اليهود -وهم قاطنو المدن- كانوا ذوي قامات أصغر مقارنة بهؤلاء الذين يعيشون في الجبال. وربما جرى الدم العربي نفسه في كليهما؛ وذلك

(١) هذه سمة قد تكون منتشرة آنذاك بين أفراد كثيرين من القبائل في نجران وقحطان وبلاد شهران، وأجزاء عديدة من الديار التهامية. كما لا زال بعض التهاميين إلى اليوم في تهامة قحطان وعسير وشهران يطلقون شعورهم حتى يصل طولها إلى (٢٠، و ٣٠ ، وربما / ٥٠سم)، ويقومون على دهنها وتضفيرها، وأحياناً تزيينها ببعض النباتات العطرية المحلية، (ابن جريس).

لأن اليهود الأصليين في جنوب الجزيرة العربية كانوا قد تحولوا من الوثنية القديمة. رافقني أحد الرجال المحليين إلى قمة الخيالة التي ترتفع إلى حوالي (١٥٠) قدماً فوق مستوى الحوض، غير أنني قد سبق لي أن وصفت معظم ما قد رأيت هناك.

تقع قرية محاري الصغيرة[١] مباشرة تحت طرف الطلحة تجاه أسفل الوادي، على بعد ثلاثة أرباع الميل، وتتكون من ٣ أو ٤ مبانٍ أبراجية في وسط الحقول مع وجود بعض أشجار التين وأشجار أخرى على جانبي المجرى. يوجد في قسم الطلحة وعند قاعدة الخيالة، غابة جميلة من الأثل الكبير مبطنة الجانب حول بئر تابعة للقرية. كما تقع، على بعد ميلين ناحية الجنوب الشرقي وعند رأس مضيق الضيقة القرية المتعرجة التي تسمى طرف الذراع، والتي تمتد حقولها وبساتينها مسافة أعلى فوق كل من وادي الطلحة ورافده شعيب القحيف، الذي تقع فيه كذلك وعلى مسافة أربعة أميال ناحية الجنوب الغربي، قرية آل ثابت.

توجد المزرعة ذات البئر والمسماة بئر الطيار على بعد ميلين إلى الغرب من مجرى صغير آخر بينما يبدو أن قرية العار هي استمراراً لطرف الذراع في أعلى القحيف أو في مسيل رافد، وتقع، أخيراً، وفي الطريق إلى ظهران، وعلى بعد ميل واحد قرية المعلف، وهي واقفة إلى الخلف من الجانب الأيمن لوادي الطلحة وبجوار غابة طرفاء ذات اعتبار توجد داخل حقول الذرة الصفراء. لم تكن الملحة، وهي أسفل المضيق، مرئية لنا، إلاَّ أنها تقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من الطلحة. كان تل شثاث، الذي يبرز من داخل الجدار الرئيس للجبل، وتماماً ناحية الجنوب من موقعنا، بينما كانت هنالك قمة منعزلة أخرى إلى شمال شثاث تسمى

(١) قرية المحاري: ــ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (المهاجرة). (ابن جريس).

عمان الأعلى وهي منبع شعيب راية، وهو أحد روافد وادي العرين الذي يدخله من أعلى ظهران. يهبط مسيل آل فروان من الدارة، وهي عبارة عن سنام على سلسلة السراة المسطحة البركانية.

سرنا حتى المعلف وإلى ما يليها سالكين طريق السيارات الذي كان أيضاً هو «طريق الفيل». تفرع الطريق واتخذنا الجانب الأيمن منه ناحية منحدرات سفوح شثاث إلى حيث يوجد ممر تحيط على يمينه صخرة بازلت مربعة القاعدة ينهض من فوقها التل. كان ارتفاعنا هنا (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر ثم هبطنا على المسيل الصخري المسمى المعيجب الذي قابلتنا فيه جماعة من سنحان عائدين من سوق الخميس في ظهران، التي تبدو لنا عن قرب. يجري المعيجب داخل شعيب السد الذي كنا قد دخلناه على بعد نصف الميل أعلى قرية آل جبير وعبرنا إلى المنحدر المقابل، والذي من عند قمته نظرنا إلى أسفل إلى حيث البلدة. ثم عبرنا حول حافة ساحة السوق خلال دقائق وقد كان السوق عامراً بالناس، ثم مررنا عبر البلدة – التي كانت أكثر قليلاً من مجرد قرية- لنعسكر في مجرى وادي العرين حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر.

أسرعت لأرى ما أقدر على مشاهدته حيث رأيت واحداً من أفضل الأسواق وأكثرها حيوية مقارنة بكل الأسواق المحلية، وعلى الرغم من أن كل الناس كانوا -بالطبع- صائمين. لم يكن العنصر النسائي واضحاً، غير أن الرجال كانوا مرحين وطروبين، وكانت التجارة كما هو واضح لنا، جيدة[1]. ترك معظم الناس

(١) شاهد فيلبي التجارة النشطة عندما دخل السوق المحلي بقرية الطلحة في بلاد قحطان. ونستطيع القول إن معظم الأسواق الأسبوعية في جنوبي البلاد السعودية كانت نشطة خلال العقود الماضية من القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الهجريين، والسبب في ذلك يعود إلى عدم وجود الأسواق المحلية الدائمة (كما نشاهد اليوم)، ثم إن سكان القبائل كانوا لا يجدون غير هذه الأسواق للممارسة تجاراتهم من خلالها. (ابن جريس).

مساوماتهم عند وصولنا، واصطفوا بجمهرة كثيفة على حافة ساحة السوق ليرونا ونحن نعبره. توجد لديهم هنا صناعة مثيرة للاهتمام ألا وهي صناعة القدور والمقالي المنزلية من حجر أخضر رمادي، وهو نوع من الحجر الصابوني - يقلع من المحيط الصخري المجاور. يمكن وضع هذه القدور بعد دهنها جيداً بالشحم أو الدهن، فوق النار لأغراض الطبخ. كما يصنع أناس هنا معاطف نسائية مريحة من جلود الحملان ويكون الصوف الطبيعي إلى الداخل ويزخرف الجلد بخياطات ملونة، أما في حالة معاطف الرجال، فهم يستخدمون جلد الأغنام الخشن ويكون الصوف فيها إلى الداخل مثل البوشتين الأفغاني. كانت المعاطف النسائية قصيرة ولا تصل إلى أسفل الخصر. كما كانت أعمال الحديد والفضة في ظهران في يد أسرة يهودية واحدة مكونة من ثمانية أشخاص ويسمى رئيسها جميلاً وهو الذي كان قد زار نجران حينما كنت أنا هناك. وقد صنع لنفسه الآن طقماً كاملاً لأسنان صناعية للفك الأعلى، من الفضة، وكان في ذلك إرضاء كاملاً له.

كان من حظي أن أجده مقيماً هنا وذلك لأنه كان ميالاً لقضاء معظم وقته في صعدة. لقد وقعت لي كارثة كبيرة في طلحة وذلك حينما كنت مشغولاً بملاحظاتي للنجوم بمزواتي حينما توقف النابط التانجستي، وقد فشلت كل محاولاتي لإعادته للعمل. بدا لي وكأنها نهاية أعمالي في ملاحظة النجوم. وهو أمر محتمل ملأني بالرعب، وذلك لأن بوصلته موشورية ولا يمكن تحديد قيمتها، وتحتاج إلى عمل دقيق أكثر لتعطي القيمة الكاملة لنتائجها، خاصة في حالة الشوشرات المغناطيسية في بلاد بازلتية مثل هذه الأنحاء. كان سعد هو الذي شاركني الحزن وهو الذي قدم لي الاقتراح بأنه إذا كان ذلك اليهودي لا يزال في ظهران، فربما استطاع أن يصلح التلف. وقد وجدناه في ظهران، هذا حقيقة، غير

أن جميلاً بدا كئيباً جداً حينما رأى الأداة التي لم ير مثلها من قبل قط. أريته النابض التانجستي، غير أن كل ما عمله هو كان الوعد بالتفكير في الموضوع. حضر إلى معسكرنا صباح اليوم التالي ليقول: إنه مستعد لمحاولة التجربة دون ضمانات بالنجاح. جلسنا وجلس هو يراقب حركاتي باهتمام شديد، وأنا أشرح له كيفية عمل النابض وكيف أنه لا يؤدي هذه الوظيفة الآن. ثم قمت بتفكيكه من الأداة بعد ذلك وفككته أكثر إلى أجزاء صغيرة. التقط جميل هذه الأجزاء بعناية ثم ذهب. كانت أمامه فترة عشرة أيام للفشل أو النجاح، وذلك لأننا كنا نعد العدة خلال هذه الفترة دراسة لمسح الحدود.

كنت أقابل في هذه الأثناء بعض زوار السوق، من أولئك الذين قد زاروني في المعسكر. طلب مني محمد بن داهش -من أبناء شعيب آل فروان والذي كنت قد قابلته من قبل في الطلحة، وكان ينوي زيارة سوق الخميس في ظهران، بلطف- أن يكون مرشداً لي خلال الرحلة القادمة. كان الانطباع الحسن الذي تركه في مقابلتنا الأولى لا يزال قائماً، وقد وجدته كما كان رفيقاً جذاباً وذكياً وملماً بالكثير من المعلومات في إطار الأبعاد المحدودة للبلاد ولأهلها، لقد تزوج محمد حديثاً من فتاة بدوية عمرها (١٤) عاماً، وكان يضج متذمراً من هذه الرحلة إلى ظهران تلك التي ستحرمه من صحبتها لمدة (٢٤) ساعة وحتى بعد عودته للوطن في الصباح التالي فإن صيام رمضان سيحرمه من متعة اللقاء بها حتى غروب الشمس. لقد أصبح محمد شديد العاطفة تجاهها، ولم يكن بأي حال رجلاً شاباً، ولم تكن هي، بالطبع، أول زوجاته. لقد توصل محمد إلى حل وسط في النهاية وهو أن يقوم بتأخير عودته إلى المنزل بغرض مرافقتي إلى قمة ششاث في اليوم التالي، ولم نفترق إلاَّ عند الساعة (٤,٣٠) عصراً وعند سفح هذا التل ليذهب

كل منا بعد ذلك في طريقه. لقد كان محمد بالتأكيد رفيقاً ممتازاً وقد قدّم لي الكثير مما زاد معرفتي ببلاده.

قام بزيارتي بعد إغلاق السوق كل من ابن كعبان رئيس قرية العر، وابن عرير وهو أيضاً رئيس قرية المجزعة التي تقع إلى أسفل وادي العرين[١]. لدى كل أعيان وادعة العديد من المظالم وكانوا بلا شك يأملون فيَّ ويتوقعون مني أن أتدخل لصالحهم مع السلطات. برزت المظالم بسبب تعيين دليم بن محمد بن دليم الذي تولى رئاسة شريف بعد وفاة والده، محمد، فأصبح بذلك أميراً على منطقة هذه الهضبة التي تشمل حرجة وظهران، العاصمة، خلفاً للأمير النجدي الأصل واسمه عبدالله بن عثمان[٢].

لم أدرك وأنا في الحرجة أن صلاحيات دليم قد امتدت إلى ما وراء كل من بلاد شريف وبلاد سنحان، لتصل إلى منطقة وادعة التابعة لظهران؛ لذا، فإن أهالي وادعة محقون في مظلمتهم في تعيين رئيس من قبيلة منافسة لهم -وكانت منافسة لهم في السابق- لموقع السلطة عليهم. كل ما كانوا يريدونه هو إعادة الوضع كما كان في السابق، بإيفاد موظف من الرياض أو مكة أميراً للمنطقة، إذا ما كان الغرض من ذلك هو معاملتها كوحدة واحدة لأغراض إدارية.

لم يكن من حقي بالطبع أن أتدخل في مثل هذه الأمور، غير أنني أرى بالتأكيد أن الشكوى منطقية بما فيه الكفاية، برغم أنه، حسب معرفتي، فإن دليم

(١) ابن كعبان وابن عرير لا زالوا من المشائخ الرئيسين في قبائل وادعة حتى اليوم، وهم وغيرهم من مشائخ وادعة وقحطان يعودون إلى المشيخة الرئيسة عند ابن دليم. (ابن جريس).

(٢) ابن دليم هو في الأساس شيخ قبائل شريف، ثم صار خلال الحكم السعودي الحالي شيخ مشائخ قحطان ووادعة. (ابن جريس).

نفسه، برغم إنه كان أميراً إسمياً على المنطقة، إلا أنه نادراً ما كان يقحم نفسه في بلاد وادعة، التي يبدو أن إدارتها تقع على كاهل كل من محمد بن بريكان، مدير الجمارك والمالية، ومحمد القدسي، مدير قوة الشرطة الصغيرة المؤلفة من (٢٠) رجلاً.

ولد محمد القدسي في أبها. وهو ابن مواطن من القدس وكان قد شغل منصباً رسمياً في تلك المنطقة خلال النظام التركي القديم. وقد كان رجلاً غريب المظهر، صغير الحجم، حقير الطلعة، إلاَّ أنه فيما يبدو كان قادراً وحاذقاً في عمله. لقد قابلته في أجنحته المريحة جداً في منزله في البلدة ووجدت أن غرفة الاستقبال لدية كانت نظيفة أكثر من العادة وأنيقة. كانت الأجزاء العليا من الجدران مطلية بالجير الأبيض، بينما طلي الجزء الأسفل بالأخضر الناعم، مع شريط تزييني ملوّن يمتد في خط عريض حول جدران المجلس على أسلوب أبها[1]. كانت الغرفة بسيطة ولكنها أنيقة، وكانت -بلا شك- من عمل امرأة من أبها كانت تشارك زوجها في منفاه في هذه البقعة النائية. تناولنا طعام الإفطار إلاَّ أن محمد القدسي قد أصر على تقديم الأطعمة المنعشة إلى جانب القهوة العادية والشاي وكان يمطرنا بالتمر الممتاز الذي جلبه من بيشه، وبالزبيب، وبالرمان الطازج المحلي.

كما احتفى بنا محمد بن بريكان، وأصله من حضر عنيزة، الذي دعانا عنده للإفطار وقدم لنا مأكولات مشهية منعشة، وبعد مضي نصف ساعة، قدم إلينا

(١) هذا الفن الجمالي في تزيين المنازل كان منتشراً في عموم بلاد قحطان وشهران وعسير، ورجال الحجر (بنو شهر، وبنو عمر، وبللسمر وبللحمر)، وكذلك عند معظم القبائل القاطنة في أرض السراة بين الطائف ونجران. (ابن جريس).

عشاءً كاملاً في منزله الفاخر الذي يقع على الطرف الغربي للبلدة. تناولنا عنده الإفطار المكون من القهوة مع تمور بيشة وعنب الخريف الأسود الذي جلب من صعدة، وبعض اللقيمات الصغيرة اللذيذة، وهي ضرب من الكعك المحلي المقلي بالدهن. كان العشاء أساساً الرز الوافر مع لحم الضأن، غير أن اللحم كان غير مطهو جيداً وكان قوياً مع قرع مقلي ومشرح في أطباق من صلصة مرق اللحم. كانت وظيفة مضيفنا تنحصر في ضبط وإقرار الضرائب على تجارة البن من اليمن، والتي أصبحت ظهران هي المركز الرئيس لها في أراضي المملكة العربية السعودية. كان البن مصدر دخل مهم للحكومة وقد علمت من محمد أن تجربة الريال السعودي كانت قد طبقت ثم ألغيت هنا كما في نجران.

كانت ظهران نقطة حدودية ذات أهمية كامنة على الرغم من أن محمداً لم ير أنه من الضرورة إقامة حامية عسكرية هنا، وكانت وظيفة الشرطة الأساسية هي ضبط التهريب عبر الحدود. كان رجال الشرطة حتى هذه اللحظة يعيشون في مساكن سيئة محطمة على أطراف البلدة، غير أن محمد بن بريكان بما لديه من الصلاحيات قام ببناء نقطة شرطة جديدة على الموقع المسيطر من فوق هضبة تطل على البلدة. كاد بناء نقطة الشرطة هذه أن ينتهي في هذا الوقت، وبقيت الزخرفة الداخلية، والطلاء بالجير الأبيض والنظافة العامة وقريباً سيتم تسليمها للشرطة. تبدو النقطة مهيبة بلا شك، مبنية كلها من مواد حجرية ومن أخشاب العلب للأعمدة والرافدات. كان تقدير تكلفة الأشجار التي تم قطعها للحصول على هذا الخشب (٤٥٠٠) ريال ماريا تريزا أو حوالي (٢٢٥) جنيه إسترليني ذهبي. والذي يبدو أنه مبلغ مرهق وذلك لأن قطع الأشجار وإعداد الخشب قد تم كله على حساب الحكومة.

يسهر الناس إلى وقت متأخر من الليل خلال شهر رمضان، ولقد رتبت برامج رحلاتي المسائية بزيارة إلى جميل اليهودي الذي كان قد دعانا إلى الشاي والقهوة مع الزبيب والرمان. كان الرمان يقدم على هيئة بذور في الصحون وكانت حبوبه طازجة هذا الوقت، غير أنها هنا في ظهران يتم تخزينها بعد الحصاد وتدوم بسهولة من موسم إلى آخر دون أن تفقد مذاقها - كانت الثمار صغيرة ولكنها حلوة جداً. شاركنا في تناول الوليمة ابنا جميل وهما ولد وبنت غير أن زوجته لم تظهر إطلاقاً. غير أن مما لمحته عنها أثناء غسيلها للصحون، يدل على أنها جميلة جداً، وامرأة شابة. يبدو أن هذه الأسرة، إذعاناً لقيود رمضان، ظلت تحافظ على ذلك، برغم أن هذا الإذعان قد لا يكون ملزماً لها.

تقع ظهران على أرض عالية على امتداد الجانب الأيسر لوادي العرين، الذي كان عبارة عن صخرة من طمي يصل ارتفاعها (٢٠) قدماً مرتداً إلى الوراء بقوة وتبدو أشجار التين وشجيرات أخرى قد ضربت جذورها فيه لتساعد في التصاق كتل البازلت الكبيرة التي كانت قد استخدمت في عمل المنحدر الخفيف. كان المنحدر على جانب الوادي الآخر، البعيد من المجرى سهلاً، غير أنه على كلا الجانبين على مسافة إلى أعلى وأسفل، فإن الحقول والبساتين ذات المساطب قد غطت الوادي. لقد استمتعت بإغفاءة القيلولة في فترة ما بعد الظهيرة في أول يوم لنا هنا، تحت ظل الحائط الحاجز الكبير وقد شعرت بالبرودة عنده، غير أن الجو كان دافئاً في الجانب المشمس من المجرى. كان المساء لطيفاً ودافئاً، بينما جلس كل من جميل والقدسي معي ليستمعا للأخبار التي تبث من جهاز اللاسلكي، برغم أنه كان هنالك صقيع بنسبة ثلاث درجات ليلاً. فقد كان استقبال اللاسلكي ممتازاً غير أن جميلاً لم يكن على طبيعته وهو يستمع إلى الحديث العبري من القدس

الذي وجهت مؤشر الراديو إليه لمصلحته. «اشكانزي! قالها» كما قالها زملاؤه في نجران.

تبدو المياه في هذا المجرى في شكل غيل بعد السيول الموسمية، غير أن الوادي في هذا الوقت كان جافاً ورملياً. كانت آبار ظهران ضحلة نسبياً، إذ يتراوح عمقها بين (٤) إلى (٦) قامات، على عكس آبار طلحة حيث يكون عمقها من (١٠) و (١٥) قامة، علماً بأن مستوى الماء في كل الآبار في هذه المنطقة يرتفع في موسم السيول. كان اليوم بصفة عامة يوماً مريحاً ومملوءاً بالعمل بالنسبة لي، ولمَّا لم يكن لدي عمل خاص بالنجوم، فقد خلدت إلى مذكراتي.

كنت قد قابلت في منزل القدسي رجل دين جمع بين وظيفة القاضي والكاهن، وهو رجل ضخم، سمين يميل للتودد والشحاذة. كان مبكراً جداً -حقيقة- للوصول إلى معسكرنا صباح اليوم التالي، وقد شحذ بالفعل، وقد أعطيته ريالاً واحداً وقبله برشاقة. كان عليَّ أن أنهي أموري مع الرجال القائمين على أمر الجمال الذين رافقونا من نجران وقد انتهت الآن عقود عملهم. كان الإيجار لعشرة جمال -وهنالك جمل لم يتضمنه الحساب لإصابته بالعرج إذ كان العدد الأصلي (١١-) هو (٦٠) ريال ماريا تريزا فقط لرحلة (١٧) يوماً بالإضافة إلى الطعام لكل من الرجال والجمال على طول الطريق. وقد انصرفوا وكلهم فرح وغبطة بإضافة عشرة ريالات أخرى تعبيراً عن الشكر لهم.

ترتفع شثاث إلى (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر فوق مخروط ضخم مسطح القمة من البازلت، مخرَّم من كل الجهات كأنه أنابيب أورغان عملاق. كان الهيكل العاري للصخور المعدنية، اللامعة، غير الملائم تماماً للغطاء النباتي، ومع

ذلك فإن كل صدع وكل شق فيه كان يبرز كأنه شجرة خليجية، وكان من أبرز هذه النباتات نبات الأغاف ونباتات أخرى سميكة الورق كانت لها المقدرة على الإمساك بالمياه وتخزينها لفترات جفاف طويلة، قد مكنها ذلك من احتلال موقع مسيطر فوق المنحدرات العارية وفوق القمة التي كنستها الرياح. لم يكن الصعود صعباً، فهو صعود إلى مسافة (٢٠٠) قدم من الممر، وقد استغرقت مهمتنا أنا وابن داهش، حوالي ست ساعات نهارية فوق الجبل. لم يكن هنالك ما يدعونا للقلق، وقد منع الصيام عنا كل المنعشات، ولا بد أن نوفر فسحة من الوقت تمكننا من العودة إلى أوطاننا قبل غروب الشمس. كان المنظر رائعاً بحق، غير أن أداء بوصلتي المضطرب تحت تأثير المغنطيس المحلي كان مزعجاً لي بعض الشيء.

كان السجل الوحيد الذي وجدناه لزيارات سابقة لرجل إلى هذه القمة قد امحى ويصعب قراءته وهو نقش باللغة العربية يحمل التاريخ (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)، الذي يدل -ربما- على فترة سيطرة السعوديين على هذه الأجزاء كما في اليمن بصفة عامة. كان النقش على صخرة بجوار كوم حجارة تم وضعه عند أعلى موقع بالقرب من تركيب دائري من الحجر والذي يبدو أنه كان بهدف جمع مياه المطر.

كانت السمة المثيرة للانتباه التي نلاحظها من عند القمة هي تلك الأرض التي لم تستكشف بعد والواقعة في شمال اليمن إلى ما يلي حدود الهضبة، لعام ١٩٣٤م بين سلسلة هضاض شرقاً وممر علبين في تجاه الغرب. والتي تكون في تضاد مع الهضبة شمال ظهران وشريط وادي العرين التي يخترقه، والذي يتألف أساساً من طبيعة بركانية مع تداخلات جرانيتية وغطاء خفيف من صخور رملية هنا وهناك، فإن كل الهضبة، تجاه الجنوب على جانبي الحدود يبدو أنها مغطاة بطبقة

سميكة من الصخر الرملي إلى شرق السلسلة البازلتية المسطحة التي تسمى السراة، والتي كانت بعض سماتها البعيدة في أرض اليمن التي تشاهد من هذا الموقع منها سلسلة قعمة آل قراد ومرع وشحاط، التي تحتل وتراً ضيقاً من الجنوب إلى الجنوب الغربي. تقع على القاعدة الشرقية لشحاط على حدود اليمن عند قرية باقم، التي لا نراها بين سفوح التلال.

شمخت جبال عرو إلى الخلف قليلاً ناحية الجنوب الشرقي، ولا تزال بركانية، -وهي نقطة حدودية أخرى- وكذلك سويد في قرية ساقين التي لا نراها وتقع خلف سويد. كما يوجد تل الصبر إلى الوراء مرة أخرى، وهو متواصل، أو منفصل قليلاً عن سلسلة السراة، ناحية الشرق داخل سهل آل سعيد وبالقرب من صعدة وبذلك يكوّن منبع شعيب مروان والذي هو الجزء الأعلى من وادي نجران. يهبط منبع مماثل آخر هو مسيل الفلاح من جانب سويد.

تقع الهضبة العالية الصخرية الرملية إلى الشرق من هذه السمات العالية، ترافقها سلسلة عوير وصعدة نفسها ويقع سهل بني سحار على جانبيها. تصطف إلى وراء عوير، في أراضي اتحاد كل من حاشد وبكيل المشهور، تل وسلسلة مفلك، وهي أقصى سمة، تشاهد إلى البعيد، ناحية اليمين وترتفع من سهل يسمى عمشية. نهضت قمة رأس السكر البديعة لجبل براش وهي من أبرز السمات، قليلاً ناحية شمال مفلوك، وربما كانت مخروطاً ناتئاً من الجرانيت، ويوجد قريباً منها وعلى الجانب نفسه تل بربر، وهو على هيئة سنام مسطح القمة مكون من صخر رملي يقف على هرم جرانيتي. يقال إن المسافة بين براش وصعدة حوالي رحلة ست ساعات، لنقل (١٥) إلى (٢٠) ميلاً، كان هذا كل ما أمكننا رؤيته من جانب اليمين، أرض مهيبة عارية. لقد كانت مفصولة من مجال الرؤيا ناحية الشرق تجاه الأرض الذي رأيناها من نجران، بسلسلة هضاض المتعارضة.

تقع سلسلة هضاض وبهـا أحد الأعمدة الحدودية ناحـية الجنوب الشرقي من موقعنا، ويوجد تل صـغير بارز عند طرفها الأيمن معلماً المـوقع لقرية النقعاء على سطح مـسيل الحنكة الذي يهـبط إلى اليـمن من عند الحدود ويتـصل مع شعـيب العرض وهو في طريقـه إلى وادي نجران. يوجد قليلاً ناحـية الغرب، مسـيل آخر يجري أسفل المجرى نفسه وفي بطنه تقع القرية الحـدودية (اليمنية) الصغيرة، بينما يهبط المصرف الرئيس لشعيب العرض نفسه من عند سلسلة شحاط التابعة للسراة. يمكننا متـابعة الشريط العـام، من هضاض نفسهـا، للحدود على امتـداد سلاسل وعوع وشيبة وضراوية. وقـفت بارزة إلى حيث ممر علبين الذي يقع ناحية الجنوب من موقـعنا والذي يعلمه تل مـربع القمة وجـرف فاغر، والذي إلى أسـفله يهبط الطريق إلى حيث أرض جبال تهامة غرب الجرف. سأتمكن من وصف هذا الشريط الحدودي بتفصيل أكثر ولا ضرورة للخوض فيه هنا. كما لا أحتاج أن أحكي شيئاً عن البانوراما العظيمة لجبال فيفا التي تملأ المنظر ناحية الجنوب الغربي.

تنقسم الهضبة بواسطة مضيق عميق لوادي كتام[1] قريباً من هنا وعلى مسافة نصف الطريق بين شثاث والحدود، وهو وادٍ يهبط من السراة من بين صخور رملية طويلة مكسرة تدعمها السـلسلة المتعارضة الجرانيتية العاليـة التي تسمى قعمة آل أبا الشـيخ. ولقـد برزت الأبراج السكنيـة من عند رأس المجـرى، التـابعـة لقـريتين صغيرتين هما زاوية وآل زاهر بينما نستـطيع رؤية الحوض الواسع الكثير الشجيرات الذي يتحد فـيه ومعه مضـيق آخر يسمى القبضـة مع وادي العرين في طريقه إلى حبـونا. يوجد عدد من القـرى الصغيـرة في معقـد المسايل هذا وهي تكون رأس

(١) كتام:ــ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (قتام). (ابن جريس).

وادي العرين أعلى ظهران وهذه القرى هي: آل السحامي[١] وتقع على بعد أربعة أميال من موقعنا، آل سيار وآل رشيد، وهما قريبتان منا، وآل محض وسعرا على بعد الميلين منا وليستا بالبعيدتين من ظهران والتي يقع بالقرب منها مجموعة قليلة من الأبراج، الحصون. يقع عدد من القرى الصغيرة في العرين وناحية أسفل البلدة وفي انبعاج معتبر للوادي الذي تكونه روافد ثانوية من السفوح المجاورة، وهذه القرى الصغيرة هي: العرق، وقعه، وحيدان، والعطف وهياج وكلها مبعثرة على مسافة ثلاثة أميال من موقعنا وفي خط مستقيم. يتكون الأفق إلى البعيد إلى شرق مبنى البيت والسلاسل التي تقع وراء بدر، وتقود إلى المعلم المخروط البارز دائماً وهو قرن سبط والذي يقع الآن قليلاً ناحية الشمال الشرقي فوق قرى الغيل.

كان الحيوان الوحيد من ذوي الأربع الذي شاهدته في شثاث هو الفأر الصغير الذي تأقلم مع الحياة في هذه التلال العارية، غير أن فرج كان قد أصاب بالرصاص ثعلباً أثناء غيابنا في واحة العرين. كما ظهر صقر طلحة في الصورة على ارتفاع عالٍ وكأنه يراقب أعمالنا، كما تكثر هنا طيور الغداف مروحية الذيل، إلى جانب بعض القنابر وسمنة الصخور، وطائر العوسق وهو يطارد الجراد. حان الوقت أن نغادر المكان وجدت عند الممر رجلاً متجهاً إلى ظهران وبرفقته جمل وجحش. امتطيت الجحش نازلاً معه قافلاً إلى المعسكر حيث كانت استعدادات إفطار رمضان قد شارفت على النهاية. زارني أربعة من رجال الشرطة المحليين في المساء، ويبدو أنها كانت حملة شحذة، غير أنني قد صرفتهم خالي الوفاض على الرغم من إدراكي أنهم لم يتسلموا رواتبهم لعدة شهور خلت. لقد كانوا مجموعة

(١) آل السحامي يطلق عليهم أيضاً اسم (آل أمسحامي) أو (قلة أمسحامي). (ابن جريس).

حزينة حقيقة، وعلى الرغم من أنهم قد بادروا بزيارتي، إلا أنهم عاجزون عن الإدلاء بأي حديث حول أنفسهم، عدا أنهم لا يحبون ظهران إطلاقاً وهذا أمر غير عجيب، إذ لم تكن مكاناً مثيراً يشجع على الحياة فيه.

سرني أن يلتحق بمجموعتي ثلاثة من هؤلاء الرجال لمرافقتي وإرشادي للرحلة على امتداد الحدود. وذلك ليس فقط لأنهم سيتحصلون على بعض المال لشراء بعض الحنطة لطاحونهم، ولكن لأنهم قد التحقوا من قبل وبمستوى وظيفتهم هذه مع القسم السعودي في لجنة الحدود المشتركة وهم يعرفون تماماً المواقع الصحيحة للأعمدة الحدودية. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف صباح يوم (٢١ نوفمبر) عندما بدأنا رحلتنا على ظهور الحمير أسفل الجانب الأيمن لوادي العرين، سالكين درباً سهلاً يرتفع تدريجياً مع الخطوط الكفافية لطبقة الانحدار للسفوح إلى عند مضيق في السلسلة يكون الفاصل بين كل من وادي العرين ووادي القبضة. وصلنا إلى كومة كبيرة من ألواح صخور رملية ضخمة متساقطة من قمة سلسلة بازلتية، بعد أن مررنا بمجموعة من القرى كنا قد رأيناها من عند شثاث عند المنحنى العريض لوادي العرين، وإلى مساحة معتبرة لأراض زراعية ذات أشجار الأثل وبعض أشجار النخيل.

لقد تركت العديد من الأجيال المسافرة عبر هذا المكان بصماتها هنا، إذ كانت الألواح ممتلئة بالنقوش وبالرسوم. لم تكن الرسوم ذات أهمية تذكر -فهي رسوم بدائية من النوع الذي قد ألفناه وتنحصر في رسوم لأناس، ولوعل، ولحصين، ولحاملي رماح ممتطين وما شابه ذلك. ويرجع تاريخها إلى العصر الثمودي[1]،

(١) من يتجول في بلاد تهامة والسراة فإنه يلاحظ كثيراً من النقوش والرسوم العديدة التي بعضها يعود إلى العصر الثمودي. كما أنني أنادي الآثاريين والمتخصصين في التاريخ القديم إلى أن يولوا مثل هذا التراث بعض العناية والاهتمام في دراساتهم وبحوثهم. (ابن جريس).

وقد كتبت فوق بعضها نقوش عربية من النوع العادي، وليس عليها إشارة للتاريخ. كان على أحد هذه الألواح شعارات توحي بالحروف الثمودية أو نحو ذلك، غير أن أكثر سمة مثيرة كانت عبارة عن نقوش عبرية، اثنتان منها كانتا ذاتا طول لافت للنظر. كانت هذه النقوش العبرية ذات تاريخ حديث نسبياً، من عمل يهود مسافرين بين صعدة وظهران.

كان وادي القبضة، الذي نزلنا إليه من عند المضيق موقعاً جذاباً. تقع القرية عند سفح الممر على جانب الوادي الأيسر وهي محاطة بالبساتين وبمزارع العنب التي كانت ألوان طيفها تتراوح بين الأحمر العميق والأصفر والأخضر وكلها ممتزجة بجمال مع الجرانيت والصخور الرملية عاكسة صورة جميلة وبشكل غير عادي. كانت البساتين مزروعة بالتين والخوخ والرمان، وكلها عارية من الأوراق الآن، غير أن مزارع العنب هي التي أكسبت المكان تميزه بالجمال. رأيت حتى الآن أشجار العنب كشجرات منفردة أو مجموعات صغيرة، غير أنها هنا كانت تزرع على مستوى تجاري مما جعل شمال اليمن مصدراً كبيراً للعنب، يقع رأس الوادي على بعد الميل الواحد باتجاه أعلى الوادي فوق صخور رملية صعبة، والتي قد ألقت بساطاً ضحلاً فوق الجرانيت التحتي للجانب الأيسر والتي كونت جداراً أعمق كثيراً إلى حدود مستوى المجرى على الجانب المقابل، والذي ارتفع إليه طريقنا بانحدار شديد بين كتل الصخور، وقد كان بطن الوادي مكوناً من الرمل الصافي.

نظرنا من عند المضيق على الجانب البعيد، على ارتفاع (١٤٠) قدماً فوق مستوى الوادي ناحية وادي كتام المستوى العريض الذي يهبط من عند سلسلة القبضة ليجري موازياً لها إلى موقع التقاء مشترك له مع وادي العرين. يهبط

الطريق بعد ذلك إلى حوض ضيق صعب عبر السلسلة الصخرية ليوصلنا إلى مستوى الوادي وإلى مزارعه الكثيفة. كان الوادي كثيف الشجر وتوجد به أشجار الطلح ومجموعات من الأثل وشرائط من أشجار الخروع ومزارع عنب، وبساتين وحقول ذرة صفراء مبعثرة- كانت المنطقة مدينة كبيرة وأكثر ازدهاراً من القبضة، وبها أربع قرى صغيرة. تقع اثنتان من هذه على الطريق وهما العمدة وآل طوق مجتمعتان معاً «كموقع وسط» تليهما مع اتجاه أسفل الوادي كل من رهوة وشط، وبهما أبراج خلابة يقعان قليلاً إلى أسفل عند موقع اللقاء مع العرين. تقع قرية الحنكة، الكبيرة شيئاً ما، عند رأس الوادي في مدرج طبيعي للتلال الصخرية الرملية. لقد توقفنا هنا مدة ساعتين وقد تجولت حول المكان دون أن أجد شيئاً ذا أهمية خاصة، إلاَّ من مصيدة خشبية بدائية يستخدمها الناس لصيد طيور الحجل التي تدخل حقولهم من عند الصخور المجاورة.

يتصل المجرى، عند قرية آل طوق على جانب الوادي الأيمن، مع بطن مسيل محذ الذي يشبه الدلتا والذي بدوره ينحدر من سلسلة مرتفعة على الجانب الجنوبي. كانت ارتفاعاته السفلى مغطاة بكثافة بالأشجار، وقد كانت أشجار الطلح مهيبة، وقد تأخرت بينها لفترة أطارد طائر ناقر الخشب، وهو أول طائر من هذا النوع أراه منذ مغادرتي محيط خميس مشيط. كانت مطاردتي له ناجحة وقد تحصلت على عينة منه لأسجل هذا الامتداد البعيد إلى الجنوب لطائر عربي صرف والذي لم يسجل وجوده بعد في اليمن أو في مناطق شمالية لا تتجاوز قرية محدثة. كان من بين الطيور التي شوهدت في هذا الموقع: الطائر الناسج والردستارت والشادي والطيور الصحراوية العادية. مثل الحمام والبلاكستارت والأبلق.

ينحدر مسيل محذ من عند هذه المرتفعات الواسعة الكثيفة الأشجار عبر سلسلة عالية إلى وادي صغير ضيق وجميل عبر الممر المحاط بالصخور إلى ارتفاع (١٥٠) قدماً فوق كتام و(٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر.

وصلنا إلى بركتين صخريتين قبل أن نصل إلى الممر، تسميان معاً ميين وتغذيهما العيون التي تسيل من جانب الجبل عند قاعدة الصخر الرملي الذي يرتفع هنا على الجانبين إلى الوادي الصغير في الصخور الترسبية وإلى ارتفاع (٣٠٠) قدم. قررنا أن نقضي الليلة في هذا الموقع الجميل حيث الماء الوافر وقد عسكر الرعاة الذين كنا قد اشترينا منهم جديين بسعر ريال واحد في الوادي الضيق، وقد انتشرت سراخس كزيرة البئر ونبات القصب ونبات الحرف وبغزارة في الجداول الصغيرة التي يدخلها الماء من البرك ومن منابعها في الصخور. يقال إن المياه هنا تنساب على مدار العام، غير أنها في مجراها العادي نادراً ما تصل إلى الجزء الأسفل من المسيل. كان الطقس دافئاً ومريحاً تحت حماية الصخور العظيمة وقد بلغت درجة الحرارة أثناء الليل (٤٢) درجة.

أقبلت حشرات العثة وحشرات أخرى بأعداد كبيرة إلى ضوء مصباحي ليلاً، وقد عمنا الإحساس بالراحة والاكتفاء بعد أن تناولنا الوليمة المعدَّة من لحوم الجديين والرمان الذي اشتريناه في ظهران بسعر (٥٠) حبة مقابل ريال واحد. كان هذا الرمان من إنتاج مزارع جميل اليهودي ومن مخزون شتائه، غير أنه أفادنا بأنه في موسم الحصاد يرخص السعر وقد يشتري المرء هذه الفاكهة بسعر (١٠٠) حبة أو أكثر بريال واحد وذلك لأن الرمان يكون حينها وافراً في كل هذه الهضبة العالية. تعتبر قرية ميين واحدة من المواقع المثالية لإقامة معسكر من بين كل رحلاتي فهي منظر لا ينسى لجمال فطري.

صعدت إلى قمة إحدى الجلاميد الصخرية الرملية في الصباح بصحبة أحد مرشدي، تاركين بقية الزملاء الآخرين لرفع المعسكر استعداداً لبداية مسيرة اليوم التي يمكنني متابعة موقع مسارها العام من أعلى، وستتجه ناحية الجنوب الشرقي من عند ممر يقع في وادي الضحضاح الذي يبدو وكأنه مجرد مسيل فقط أول الأمر، ثم يتسع أثناء انطلاقته مع تدفق مسايل عديدة أخرى وروافد إليه من جهة تلك البلاد الصعبة المكسرة ناحية الغرب، وإلى ما وراء موقع عبورنا لمجراه، ثم يستمر في اتجاه جنوب الشرق ليتصل مع مجرى آخر يسمى الخانق الذي يتصل بشعيب حلال بالقرب من هدادة ويكون بذلك أحد روافد حبونا.

تؤدي السلسلة التي أقف عليها الآن خدمة أخرى وذلك لأنها هي المنبع لمصدرين من المنابع المساهمة في صنع هذا الوادي العظيم. تهبط روافد الضحضاح من عند كل من قعمة آل أبا الشيخ وقعمة عرابة، وهما فرعان مائلان لسلسلة السراة الرئيسة والتي تقع قريباً منا وأمامنا ناحية الجنوب الغربي، وتقع قعمة آل أبا الشيخ قبل قعمة عرابة. لقد كانت ظهران نفسها محجوبة عنا بسلسلة الحمرة، غير أننا نستطيع رؤية القرى التي تكون تحتها وكذلك قرى كتام إلى أسفل حتى ملتقى العرين. كما توجد أمامنا منطقة حدودية في كل امتداد هضبتها، وقد كانت سلسلة المذراع ذات أهمية خاصة لي، وقد كنا قد رأيناها على مسافة من قبل، غير أنها الآن تبدو مهيبة بتركيبها الشديد الانحدار ويمر طريق نجران - ظهران الرئيس عند سفح طرفها الغربي، والذي يغادر نجران -كما ذكر سابقاً- عند ممر يقع في أعلى شعيب برن.

تمكنّا من اللحاق بقافلتنا سريعاً في شعيب الضحضاح، ورجعنا مرة أخرى إلى أسفل المستوى للحجر الرملي في وسط الجلاميد والنتوءات الكثيبة المكونة من تركيب بركاني ورسوبي. ثم عبرنا من فوق سلسلة منخفضة بعد أن عبرنا المجرى،

وقد كانت تفصله هذه السلسلة عن خط محـر وجعار الصرفي الضحل والذي هو أحد روافد الخـانق وقد ملأته أشجـار القرظ التي تحولت إلى غـابة، إلى جانب شجـيرات الباليتـو التي توجد داخل وخارج مجرى شـعيب الفرح، الذي ينبثق من عـدة مسايل معقدة نازلة من سفوح السلسلة الـصخرية الرملية التي تقع قليلاً إلى الخلف من طريقنا وتجاه الغـرب. وجدت عدداً من النقوش على صـخرة ساقطة من الحـجر الرملي على جانب الطريق، ومعظمـها كان باللغة العـربية وكانت كلها ذات قيـمة قليلة، وإحداها كانت بالعبـرية. لا نزال مستمرين في المسيـرة في مجرى محر، متـجهين إلى أسفل، ناحية الشرق، وقـد تسلقنا إلى خارجه قبل اتصاله مع جـعار، وذلك من على منحدر سهل من صخـر رملي، ثم على سهل متمـوج تخترقه بحـيرات عديدة لشعـيب جعر نفسه، وكلها كـانت منحدرة من عند السفوح الصخـرية الرملية لسلسلتي كل من قدم منصور ونزوح وتبعدان على مسافة ميل واحد من هنا.

كان الجـانب الجنوبي من نزوح هو أيضـاً منبع لوادي نجران، وذلك لـوجود مسيل آخـر له اسمه الخاص به يجري جنوباً من عند وادي نجـران ليتصل مع وادي ثويلة، وهو رافـد لشطيبـة الذي هو بدوره رافـد لوادي الحصن الذي يجـري إلى أسفل إلى وادي العرض والذي يكون حين اتصاله مع وادي مروان، وادي نجران.

وصلنا الآن إلى مستجمع الماء الذي يقع بين حبونا ونجران، وقد زرنا وعبرنا، بالقرب من منبعه، كل روافد حبونا، تكون حبونا. ومنابعه، في رأيي، النقلة من العربية السعيدة إلى الصحراء العربية[1] تاريخياً وجغرافياً وجيولوجياً.

---

(١) العربية السعيدة (Arabian Flex) والصحراء العربية (Arabian Deserta) هما مصطلحان جغرافيان تم استخـدامهما من قبل الكتاب الإغـريق، غير أن العربية الـسعيدة كانت تشمل جـميع أراضي الجزيرة الواقعة جنوب الخط الممتد من الخليج العربي شرقاً وحتى خليج العقبة غرباً. وللمزيد انظر: محمد بيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٩٣ وما بعدها، السيد عـبدالعزيز سالم. **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص٦٤ وما بعدها. (ابن جريس).

الفصل الثاني والعشرون

حدود الهضبة

إن الإنسان كائن سياسي وهو قليلاً ما يهتم بتنظيمات الطبيعة أو حتى بتجاربه الماضية. وكانت نجران دائماً ضحية للصراعات الداخلية. لقد تحركنا بعيداً من الجزء التلّي للهضبة دون أن نحس بذلك، تجاه السهل المستوي لأطرافه الشرقية لنجد أنفسنا فجأة ونحن نتبع خطي السلف المتنافس في كل من الشمال والجنوب. لقد تقدمنا لمسيرة خمس دقائق من آخر مسيل عبرناه من مصرف جعار حينما وصلنا إلى حافة هوة ضحلة في أرضية الحجر الرملي والتي يقع أسفلها حوض شعيب العرقة وهو أحد الرؤوس العديدة لوادي نجران.

غير أن الأهم من ذلك هو أن الطريق العريض المعبد الذي يقود إلى أسفل، كان مائلاً على امتداد جانب الجلمود إلى المجرى أسفل. عدنا مرة أخرى إلى طريق الفيل والذي يحف البلاد الصعبة من عند جنوب المجزعة، وقد وصل إلى حاجز لا يمكن للفيل أن يدور حوله دون مساعدة الإنسان له، ولا نحتاج هنا إلى روايات محلية لتفيدنا بأن طريق السيارات العريض، المنحدر، والمتعرج في بعض أجزائه والذي قد انتزع من وجه الصخرة الرملية، كان بالفعل من عمل الإنسان.

لم تكن هنالك رسوم أو نقوش قديمة (أو حديثة) لتؤرخ هذا الموقع، والغريب في الأمر أن فترة الثلاثة عشر قرناً ونصف القرن التي فصلت بين درب الفيل ودرب السيارات وتعاقبهما في اتجاهين متضادين قد تركا أثرهما، فقد مرَّ

الفيل وقد مرت العربة لاحتلال الأراضي التي تقع وراءه، لقد ترك الفيل آثاره في ذاكرة الإنسان، إلاَّ أن آثار سيارات الأمير سعود كانت لا تزال منطبعة وواضحة في الممر الصخري وفي مداخله لمن يرى. كان هنالك جهد يدوي بشري حذر بمساعدة الحبال والبكرات، وقد كان ذلك ضرورياً، بغرض إنزال السيارات بسلام إلى أسفل الجزء المتعرج من الطريق، وقد تمت هذه العملية بنجاح وبلا خسارة. غير أن ذكرى عبور فيل أسعد كامل إلى أعلى الممر، وهو بطل الاحتلال الأول، لا تزال ترفرف في أعلى الذاكرة المحلية. لقد رأى هؤلاء الناس، على كل حال، السيارات، وتقبلوها كأمر واقع، إلاَّ أنهم لم يروا الفيل إطلاقاً وربما كانت لديهم فكرة غامضة عن هذا الحيوان العظيم. رجع ابن داهش، بعد زيارة قصيرة لزوجته، وهو لا يزال متذمراً لمرافقته لي في هذه الحملة ومعه مرشد محلي اسمه مسفر، الذي كان أشبه ما يكون بالقرد منه بالإنسان، وقد سرني أنهما معاً كانا يتحدثان عن ذلك الفيل.

يسمى هذا الممر أحياناً الشطيبة، وقد ظهر بهذا الاسم في رسائل الأمير سعود، غير أنني لم أجد تأكيداً محلياً لهذا الاسم، والذي يمكن أن يكون اشتقاقه من مجرى الشطيبة الذي يقع قليلاً وراءه. لقد هبطنا إلى خليج العرقة العريض في غير ما صعوبة، ومن ثم تتبعناه إلى أسفل إلى قرية قرض التي تقع بين جلاميد صخر رملي، ترتفع أحياناً إلى (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم فوقنا. ثم اتسع تدريجياً إلى أكثر من الميل الواحد إلى حيث موقع اتصاله مع مسيل عطفة الذي يدخله من جهة اليمين لنعبر من بعده إلى وادي ثويلة، الذي كان جانباه ممتلئين بأشجار القرظ وأنواع الطلح الأخرى، كان البدو الرعاة يقومون بقطع أغصان كبيرة من هذه الأشجار علفاً للماعز. كانت الأشجار ليست فقط كثيفة ولكنها أيضاً مرتفعة العلو

بحوالي (٣٠-٤٠) قدماً، برغم هذا التخريب المتعمد الضارب في التاريخ. لقد تكون أمامنا الآن منظر جميل لأرض غابات في وسط الصخور الرملية الكئيبة في هذه الأقفار. أشار ابن داهش إلى طريق، قبل أن نغادر مجرى العرقة، وهو الطريق القادم من ناحية نجران ماراً بتل المذراع، الذي يقع الآن ناحية الشرق من موقعنا، ويبدو أنه متصل مع الممر، الذي كنا قد سلكناه من ظهران، عن طريق ممر العرقة وممر ميين، ثم يتفرع هنا أيضاً إلى الشمال على طريق الفيل إلى كل من المجزعة والطلحة، بينما يقود الفرع الطويل الآخر إلى النقعة ناحية الجنوب الشرقي.

كان هذا الممر الأخير هو الذي سلكناه لنعبر وادي ثويلة ومنه إلى سهل عريض رملي، كثيف الشجر، لقد كانت آثار عجلات السيارات التي عبرته عام ١٩٣٤م لا تزال واضحة. لقد أوصلنا صعودنا اللطيف إلى مستجمع أمطار منخفض ومن عنده اتجه السفح إلى الأمام إلى وادي الحصن، ويقع طريقنا عن النقطة الوسطية بين مجرى رافد حجر (أو طيب الاسم) وذي كحل[1]، على يسارنا، وهما يصرفان مياه أرض من الصخر الرملي كانت عليها تلال وسلاسل غريبة وكان بعضها قد نحتته الرياح فأصبح في شبه عش الغراب العملاق ويقف على سيقان عالية، بينما اكتسب الآخر بشكله القضيبي اسم زب واردة. أصبح سطح السفح الآن صعباً وقد انتشرت قطع من حجر صخري أسود نقلتها مياه الأمطار من السلاسل العليا، فوق طبقة حجر صخري ذي لون وردي.

لقد اقتربنا تدريجياً إلى مجرى ذي كحل المطوق بالصخور، لنصل إلى وادي الحصن، الذي يقع على بعد (٢٠٠) ياردة من موقع تدفقه. وقد كانت على بطنه

(١) وادي ذي كحل يقع جهة حصن الحماد. (ابن جريس).

الواسعة، المبطنة بألواح الصخر الرملي، العديد من البرك المائية يحيط بها نبات القصب الطويل مع الكثير من نبات الحلفاء وأشجار القرظ المتناثرة من حولها. قررنا لذلك أن نعسكر هنا لقضاء الليلة بالقرب من بركة كبيرة ذات ماء عكر والتي خفف عندها زملائي، عند الغروب، عطش صيام نهار اليوم، وبإسراف للدرجة التي لم تكن لديهم بعدها الشهية لتناول وجبة المساء الخالية من اللحوم، والمكونة من عجين طبخ بالسمن. لم أشرب ولا قطرة ماء منذ بداية رمضان، مكتفياً بالشاي والقهوة، وقد كنت الشخص الوحيد في هذه المجموعة الذي قام بإعداد وجبة حسنة الشهية في ذلك المساء وقبل الفجر، وقد لاحظت لأول مرة رطوبة مميزة على الأرض، وهي الندى. أقبلت في وقت لاحق من الصباح، بطة منفردة ناحية البرك، وقد أطلقت عليها رصاصة وهي تقترب من سطح الماء، غير أنني أخطأتها ولم أرها بعد ذلك.

يكتسب وادي الحصن اسمه من هضبة صخرية رملية منخفضة تشبه القلعة تقع في حوضه. كانت هذه الربوة وغيرها داخل المجرى ومن حوله قد حصنه بصخر يصل ارتفاعه إلى مستوى الصدر تم وضعه بواسطة القوات الزيدية، الذين تغلغلوا إلى هذا الموقع من منطقة النقعة عند بداية حملة عام ١٩٣٤م. استطاع حفيد الملك، وهو فيصل بن سعد، الذي كان يقود المجموعة المتقدمة من جيش الأمير سعود وبالقليل من المصاعب أن يرغمهم على الانسحاب من الوادي، الذي عسكر فيه هو لبعض الأيام أثناء ترتيبه للقوة لتتقدم على باقم. كما عسكر سعود هنا أيضاً عندما كانت قواته تجول سهل الحماد الذي يمتد من جانب الوادي الأيمن إلى أسفل إلى جوار الحدود، ثم قام بدخول أرض اليمن حتى حدود قري النقعة وعار، التي تم احتلالها ثم تدميرها.

كان حفيد الملك في هذه الحادثة، وهو خالد بن محمد، هو القائد، وقد قتل في المعركة ثمانية من رجاله بما فيهم حامل اللواء الذي سقط في الجبهة الأمامية للمعركة وقد أصيب بجرح مميت. لم يذكر عدد أفراد العدو الذين قتلوا في المعركة، إلاَّ أن (٦٥) أسيراً قد أخذوا.

يرتفع الوادي في قعمة أبالشيخ ويتصل به على مسافة ميلين إلى أعلى تل حصن شعيب العاقة، الذي ينساب فيه شعيب حجر عند أعلى موقع الاتصال. وتقع مجموعة من التلال المرتفعة، أمامنا ناحية الجنوب الشرقي، وهي متمركزة في سلسلة هضاض وتشمخ منها قمم بارزة في كل من مرتكزه والأتم وكلاهما إلى يسار مسيل الحنكة، الذي ينحدر إلى النقعة ماراً بذات انشان. يمكننا رؤية هضبة علب، بعيداً ناحية الغرب وهي تعلّم النهاية الأخرى للحدود على الخط القاسم لمسايل علبين، ويجري أحد الفرعين إلى باقم بينما يسقط الآخر في هوة تهامة على عمق (٢٠٠٠) قدم إلى أسفل. وقفت شثاث بارزة معلمة موقع ظهران، وما عدا ذلك، فلا يوجد ما يهم ذكره في هذا المنظر الكئيب الممتد أمامنا.

كنا الآن على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت الليلة هي الأدفأ بين الليالي التي قضيناها منذ مغادرتنا نجران، إذ كانت درجة الحرارة الدنيا ٤٦ درجة. لحسن حظنا جميعاً، وأنا خاصة، إن مجموعة من رعاة يام بالحارث حضروا إلى موقع الماء ذلك الصباح وذلك قبل تحركنا لمواصلة الرحلة. وتمكنت من توظيف اثنين منهم كمرشدين لي لتوضيح العلامات الأرضية الخاصة بنجران، بينما اكتفى رفاقي بتأمين شاة منهم لوجبتنا القادمة.

انطلقنا، بعد هذا التدعيم للفريق، ونحن فرحين وسرعان ما وصلنا إلى وادي مخوار الواسع وهو رافد لحصن. يهبط مخوار من قهرة العنز التي ينبع من

جانبها الآخر مجرى شجع هابطاً إلى برك شعيب الجدليّة على الحدود، والذي يجري داخل أرض يمنية، ليتصل مع وادي العرض بالقرب من تل بربر، تجاه الجنوب من موقعنا من هضبة الحصن. كان مجرى مخوار كثيف الشجر وخاصة أشجار الباليتو. ثم عبرنا فيما يليه، وبالتتابع، مصرفين ضحلين وخلالهما تندفع مياه سيول وادي الحماد إلى المرتفعات السفلى من وادي الحصن. مررنا فوق المسطح اللطيف الذي يفصلهما على زوان صخرية رملية ضخمة، والذي تحولت فيه قاعدته التي نحتتها الرياح إلى مظلة ضخمة من الصخر مانحة ظلاً ظليلاً للمسافرين العابرين، الذين قضى بعضهم وقت الراحة في الخربشة على الجدران بالصور العادية (وعل، فرسان، إلخ) بينما تمكن زائر حديث، بلا شك ينتمي إلى عضوية الجيش السعودي لعام ١٩٣٤م الذي كتب العنوان: ملك الحجاز وملحقاتها سعود بن عبدالعزيز![1] لا بد أن يكون هذا الموقع قد تم احتلاله بواسطة فرقة عسكرية من الحوطة، غير أن الجيش كان قد انتشر فوق السهل هنا وإلى مسافات معتبرة في كل الاتجاهات تاركين في أثرهم عدداً من المراجل الثلاثية الأقدام المكونة من الحجارة في مواقع نيران معسكراتهم والتي كانوا يطبخون طعامهم عليها.

لم يتبعنا -بالمناسبة- طريق الفيل الذي اختفى بعيداً تجاه الغرب، قبل أن يصل إلى وادي الحصن ليعبر فوق حَجَر إلى مستجمع ماء شجع ومن هناك إلى وادي الجداليّة. يمضي طريقنا الآن خلال سهل الحماد المرتفع وهضابه الغربية المبعثرة بين أشجار القرظ والطلح والتي تطورت إلى غابة منتظمة والتي كنا قد

(١) يقصد عبد العزيز بن سعود وقرأها فيلبي حسب ترتيبها بينما هي العكس . (ابن جريس).

توقفنا فيها لننال بعضاً من الراحة في الظهيرة مدة ساعتين، في أرض لأشجار القفل والباليتو.

وصلنا إلى الحدود عند العمود الحدودي في ردم الحنكة واستقر بنا المقام لنعسكر في المسيل الذي تطوقه الصخور، بعد أن سرنا مسافة تقل عن الساعة فوق بلاد صخر رملي صعبة تنحدر تجاه ناحية الحنكة ذي الرأس القمعي، وقد كانت صخور المسيل قد تآكلت بفعل الرياح وتحولت إلى مجموعة من الكهوف والمغارات والتي يمكن أن تأوى قرية من سكان الكهوف، غير أنني لم أر أي إشارة لاحتلال قديم لها. كان الصخر الرملي الحديدي أسود كالفحم ممتداً من أحد الجانبين إلى أعلى السفح الأسود لسلسلة شثيان، وعلى الجانب الآخر لشفة سهل الحماد، حيث يطل من هناك على أرض يمنيه عند سفح الجلاميد. يقع على كل من جانبينا عمود حدودي وأعتقد، وأنا داخل كهفي الدافئ أن درجة الحرارة الدنيا كانت ٥٣ درجة وقد بلغت (٥٥) درجة في الليلة التالية – لقد نمت ونصف جسمي في أرض سعودية عربية ونصفه الآخر في اليمن.

يقع أسفلنا حوض مسيل النقعة وتشاهد فيه بعض أشجار النخيل كما شاهدنا أسفل الطريق الذي يقود إلى هناك مجموعة من الجمال التي أثارت شكوك ابن مسفر، رئيس الشرطة المرافقة لي. ذهب هو ورجاله لمتابعة الأمر، برغم الحقيقة بأنهم يدخلون بلا إذن أرضاً تابعة لدولة أخرى. ولم يمضي طويل وقت إلاَّ وقد عادوا إلى المعسكر ومعهم غنيمتهم: ثلاثة رجال وثلاثة جمال وخمسة بنادق- وكانوا سعيدين جداً بحصيلة يومهم. كان المهربون الثلاثة- وهذه حقيقتهم- من مواطني بريدة الذين قد استقروا حديثاً في أبها ليستغلوا فرص الانفتاح الجديد في التجارة.

جاءوا هذه المرة من هناك دون إثارة أي شكوك حولهم، ولولا سوء الحظ الذي واكبهم اليوم، لكانوا قد باعوا البنادق بربح جيد في صعدة. وربما عادوا بشحنة من البن لتهرب بالأسلوب نفسه عبر الصحراء دون دفع الرسوم عليها، لقد حرمهم اختياري لهذا الوقت غير المناسب لهم للوصول إلى الحدود ليس فقط من مشروعهم التجاري وهو في مهده، بل ضياعهم أنفسهم إلى جانب وضعهم في موقف حرج جداً. لقد تناولوا معنا العشاء، بالطبع، وقد زارني رئيسهم عبود في كوخي ليلتمس تدخلي، ليس مع الحكومة ولكن هنا والآن مع الشرطة. لقد تمت مصادرة البنادق، بالطبع، وأمر ابن مسفر الرجال الثلاثة ومعهم جمالهم بمراجعة القائد في ظهران وقد فعلوا ذلك كما سمعنا لاحقاً، كنت آسفاً لحالتهم، وأحس بتعاطف معهم لأنه قد تم القبض عليهم وهم داخل أرض دولة أجنبية، وهو أمر لم يحاولوا استغلاله، لم أستطع عمل شيء لهم وقد ألقي القبض عليهم بهذه الطريقة واكتفيت فقط بالتعليق بأنه من السخيف لرجال محترمين مثلهم المخاطرة بمثل هذا العمل الشائن لأجل ثراء غير شرعي. كان الجانب السيء الخطر في الموضوع كله من وجهة نظرهم هو أنهم لم ينتبهوا إلى وجودنا في ناحية الحدود، فترجلوا من دوابهم عند برك الحنكة المائية (وقرة) عند منتصف الطريق إلى المسيل لملء قرب المياه وهناك تم الإمساك بهم. كان بإمكانهم الهروب لأن تحركهم كان قد بدا قبلنا بمسافة طويلة، وبإسراع للخطى.

قررت أن أمكث هنا اليوم كله وذلك لأجل ربط خط الحدود من النقطة التي تمكنت من أن أرسمها وأقوم بمسحها من عند التلال أعلى واديي مروان والموفجة. ذهبت ومعي مسفر وابن داهش والمرشدين الياميين إلى كومة حجارة حدودية تقع على سلسلة شثيان على بعد (٣٠٠) ياردة جنوب القمة، وتركنا فرج يلاحق

ليصطاد الأرانب الأوروبية والتي يقال إنها وافرة هنا[١]، وقد تمكن بالفعل من اصطياد اثنين منها. ارتفعت قمة السلسلة حوالي (٥٠٠) قدم فوق مستوى معسكرنا الذي أقمناه في رأس الحنكة، وقد كان موقعه موفقاً للحصول على فكرة عامة عن المخطط العام للبلاد عند هذا الجزء المتشابك من الحدود. تجري سلسلة مارة بموازاة مع سلسلة شثيان، من الجنوب إلى الشرق إلى كتلة الأتم على بعد الميل الواحد من موقعنا، وهي من حجر رملي مماثل أسود.

يبدأ مسيل ومجرى وادي هضاض من عند النقطة التي تلتقي فيها الأطراف الجنوبية لهما على بعد ربع الميل إلى شمال الشمال الشرقي لعلامة الحدود، والذي يكون جانبه الأيسر، على امتداد قاعدة المنارة الخط الحدودي الذي يصل إلى الفرجة بين الطرف الجنوبي لمنارة وقاعدة الأتم. يستمر، من تلك النقطة، الجانب الأيسر للوادي المتجة شرقاً لهضاض كخط حدودي، إلى بقعة يتصل فيها وادي العرض معه فيها على الجانب الأيمن، وعلى مسافة أميال قليلة من هنا. تجري الحدود بعد ذلك على امتداد الجانب الأيمن للمجرى، الذي يسمى الآن العرض، ثم إلى قمم مسيل فرد الذي يهبط من القمة الوسطى لسلسلة فرد -والتي أسماها مرشداي الجديدان بني داحر- والذي يقف من فوقه آخر الأعمدة الحدودية التي سجلتها من منطقة نجران ويحمل رقم (١٢).

أخبرني مرشداي أنه قد تم نصب أعمدة حدودية أخرى فوق كل من شحاط الغميرة والأتم وجبل هضاض -هذا اسم مرادف لشثيان-. لقد أبلغت الآن،

(١) لا أعتقد أن في جبال نجران وقحطان وما جاورها أرانب أروبية، وذلك لبعد هذه الجهات عن القوى الأوربية التي كانت تأتي إلى الجزيرة العربية آنذاك، وربما أن هذا الاسم من استنتاجات فيلبي، أو أن الأرانب التي شاهدها هناك تشبه في أشكالها بعض الأرانب الأوربية. (ابن جريس).

رسمياً أنه لا توجد أعمدة حدودية بين كل من فرد وشثيان، ويعزى ذلك لأنه أثناء عملية التعليم للحدود وقع خلاف حول التخطيط الصحيح، ولم يحل بعد. كانت البلاد، بما في ذلك سلسلة منارة، في الزاوية التي يكونها مجرى هضاض تابعة بلا شك لآل حشيش، وهو قسم تابع ليام والذي ينتمي إليه مرشداي الجديدان. ولقد تم حل الإشكال في وقت لاحق لصالح آل حشيش والمملكة العربية السعودية، وذلك بتثبيت الحدود كما وصفتها هنا.

أصبح عمود حدود شثيان هو الرقم (١٣) على قائمة علامات الحدود. تقع الأتم داخل حدود مملكة اليمن، وهي، مثلها مثل سلسلة شثيان إلى جنوب ركام الحجارة الحدودية ومسيل الحنكة على جانبه الغربي إلى أسفل موقع معسكرنا. لقد سررنا بما فيه الكفاية أن نتمكن من حل مشكلة هذا الجانب غير المعلّم من الخط الحدودي وأن نكون قد أزلنا شجاراً محتملاً. يمكن أن يكون اسم شحاط الغميرة اسماً مرادفاً لصخرة ذات العطف الرملية التي تقع في أرض آل حشيش إلى الشرق من سلسلة المنارة.

توجد في أجزاء من سلسلة شثيان حجارة رملية مبعثرة يصل قطرها إلى ١٢ بوصة وكانت سفوحه مغطاة بنبات شجري شوكي يسمى شخض أزهاره وردية بوقية. يبدو أن الصخور الرسوبية التي تشاهد عند قاعدة التل من تكوين الشست مع كوارتز كثير. استطعنا أن نرى من هذا الموقع ولأول مرة الأبراج السكنية لحجر، في مسيله عند رأس وادي الحصن. كما لمحنا ناحية الجنوب أولى القرى الصغيرة الثلاثة المكونة لنقعة عند التقاء مسيل الحنكة مع شعيب النقعة الذي ينساب ليتصل مع وادي العرض جنوب الأتم. احتجبت القريتان الأخريان، مع اتجاه

أسفل الوادي، وراء مضيق ذات انشان، وتبدو القرية التي كنت قد رأيتها مكونة من نخيل مشتت وبعض الحصون. كما رأيت قصور كونا التي يسكنها آل عامر (وادعة) عند قاعدة سلسلة فيما يلي القريتين في الخط المباشر (ناحية الجنوب) لصعدة، التي لم تكن مرئية.

تقع سلسلة مرعة البركانية ذات القمم المستوية للسراة الرئيسة الآن ناحية الغرب من موقعنا وتقع سلسلة شحاط الصخرية الرملية أمامها كما تقع باقم عند سفحها وتقف قلعة مهيبة قديمة تسمى أم ليلى على السفح للامتداد الجنوبي للسلسلة عبر وادي أصنام الذي يقال أنه يحتوي على قرى عديدة. تواصلت هذه المجموعة من الجبال جنوباً إلى أقصى مجال للرؤيا عبر الجبل الأسود وهي عينة، وبنو حليفة وفلة وقعم الصبر، في هذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب، كانت الأخيرة منها في اتجاه جنوب الجنوب الغربي من موقعنا. اتجه الخط الحدودي من شثيان ناحية الشمال الغربي تجاه تل علب الذي يشاهد من ناحية غرب الشمال الغربي. ويقف جبل جفا في منتصف المسافة بيننا وبين تل علب، ويقع في أرض يمنية، وتقع من ورائه قرية يباد، وهي بداية بلاد خولان ويسكنها قسم ابن صبحان التابع لتلك القبيلة في بلاد سحار.

مشينا سيراً على الأقدام على السفح البعيد لمجرى هضاض ثم تتبعناه هابطين على امتداد الحدود إلى حيث انحناءته الحادة إلى اليسار بين طرف منارة وسفح الأتم الحاد ومن ثم عبر مضيق رائع. كان الارتفاع في هذا الموقع حوالي (٦١٥٠) قدماً فوق سطح البحر، في مواجهة الصعود أعلى الأتم والذي كانت قمته على ارتفاع (١٠٠٠) قدم أعلى من موقعنا. كان السفح من تركيب الشست ومسافة (٦٠٠) قدم مع الكثير من الكوارتز المتخلل له وكانت هنالك بعض أشجار اللبان

التي أكسبت المنظر مسحة رومانسية. كان أحد هذه الأشجار نموذجاً عظيماً، إذ كانت أغصانها منتشرة مثلها مثل بعض أشجار نخيل الزينة الدخيلة. تسمى هذه الشجرة أعربة ويقال إنها تنمو إلى حجم كبير في جبال تهامة حيث تستخدم ألياف أوراقها في صناعة الحبال[١]. يعترض شريط رفيع بين الأساس الشستي والحجر الصخري الفوقي لأتم مكون من الكوارتز ومن كسارة من خليط كوتقلوماريني، يبلغ سمكه القدم الواحد، ويصل ارتفاعه إلى (٦٠٠) قدم على جانب سفح التل، كما وجدنا هنا نباتاً يسمى تألب، وله ثمار توتية، يبدو أن هذه الثمار قد جذبت نحوها جملاً هائماً وزوجاً من غزلان حمر قد هربت إلى ما وراء التل للدرجة التي لم أتمكن حتى من رؤيتها. ربما كانتا من نوع غير معروف وذلك لأنها لا تبدو شبيهة بأي من الغزلان العربية التي أعرفها. لقد قابلتنا هنا فتاة صغيرة بصحبة قطيع من الماعز. ربما كان قطيع الألبان لنقعة، غير أنه يبدو لنا أن المسافة إلى هنا طويلة لتترك فيها هذه الطفلة بلا مرافق في هذه البرية.

كان القسم الشرقي هو أكثر أجزاء المنظر العام بروزاً من عند القمة إذ أنه هو الذي يحتضن العلامات الأرضية لنجران. يقف أبو همدان نفسه واضحاً بين تلال جانب الوادي الأيسر في اتجاه شرق الشمال الشرقي، وتقع من ورائه كل من عان الدريب والرهوة كما يقف قرن آل الحارث إلى اليسار بين تلال الجانب الأيسر، بينما كشفت صخرة الوادي المقابلة بعض قممها، منها خشم مدر، وعرير، والعبلاء، دون الحاجة لذكر بقع التي تطل على قرى وادي الفرع. ويقع قريباً منا

(١) لمزيد من الايضاح على نباتات بلاد تهامة والسراة واستخدامها في أغراض عديدة، انظر: كتاب: **النبات للدينوري**، الذي يقع في عدة مجلدات ويفصل الحديث في هذه الجزئيات، وبخاصة النباتات المتواجدة في المنطقة الواقعة بين اليمن والحجاز. (ابن جريس).

ملتقى تربية المكون من كل من مروان والعرض، بينما يمكن متابعة المجرى الكامل للعرض وعلى مراحل إلى الخلف إلى حيث منبعه في سلسلة شحاط، والذي يتجمع عند قاعدته كل من مصرفي الجبل الأسود وبني حليفة في مرتفعات السراة الرئيسة. الذي ينحدر إلى مخروط بربر، من عند باقم، ماراً إلى الجنوب منه ويدور إلى حوض واسع ضحل على مسافة ثلاثة أميال جنوب الجنوب الغربي من عتم. ينساب من هنا من خلال، التلال التي تمتد ناحية الجنوب الشرقي من عتم لتظهر مرة أخرى في الجانب الشمالي عند التقائه مع هضاض بجوار دلوه العالية على مسافة ميلين ونصف الميل. يمكننا بهذا أن نضع رافداً آخر لنجران وبدقة على الخريطة.

أمكنني بعد ذلك رؤية قرية أخرى من قرى النقعة، تقع أسفلنا وتبرز من خلف زاوية قرية ذات أنشان، وهي عبارة عن ابراج قليلة في مزارع نخيل كثيفة، كما اقتربت من رؤية صعدة ناحية الجنوب أكثر من ذي قبل، وذلك بعد أن لمحت هضبة صغيرة تعلّم موقعها في حوض سهل سعيد. لم أتمكن من رؤية أي من منازلها، ولم يكتب لي ذلك، بعدها. نظرت ملياً إلى اليمن ناحية جنوب الجنوب الشرقي، من فوق سلسلة كل من مفلوك وبراش، إلى سلسلة برد البعيدة[1]، التي تحتضن بكيل (آل محمدي وآل حسيني) وهي بلدة سوق عنان. تقع قرية نشور في وادي آخر بالاسم نفسه، وهي غير مرئية لي، على مسافة جنوب مجرى العرض. لقد ملأت شثاث ونقاط مألوفة أخرى، الجزء الشمالي لهذا المنظر الكئيب بحق- كأنه بحر من حجارة رملية ونتوءات صخرية ترتفع كأنها الأمواج بين أحواض البازلت الأسود والشست.

(١) سلسلة (برد) ربما يطلق عليها أيضاً اسم (برط). (ابن جريس).

هبطنا من فوق الجبل إلى نقطة على طريق النقعة عند أسفل مسيل الحنكة، ومن ثم عدنا إلى المعسكر بعد أن تسكعنا بعض الوقت فوق الممر الضيق المكون من كسور صخرية بين جلاميد كئيبة من الشست. واصلنا دراستنا في الصباح اليوم التالي للحدود، سائرين حيناً وراكبين حيناً آخر على ظهور الحمير بحسب الظروف، وكان عمود الحنكة الحدودي رقم (١٤)، يطل على رأس المسيل. كانت كومة الحجارة التالية، وهي بلا اسم، قد وضعت عند حافة الصخرة على مسافة (٥٠) مقياس سلسلي من حافة حنكة، وقد تم استخدام النظام السلسلي كوسيلة مساعدة للوصف الرسمي للحدود، إلاَّ إنه قد هجر سريعاً بوصولنا إلى المنطقة التالية. كانت السلسلة كما أذكرها تعادل (٢٠) متراً، وعليه تكون المسافة بين عمودين، بهذا المعنى، تعادل كيلومتراً واحداً. ولقد لاحظت ناحية الجنوب شريطاً من أكوام الحجارة على الحافة السفلى للصخرة، وقد تم وضعها (كما قيل لي) بصفة غير رسمية لتعليم الحدود قبل حرب ١٩٣٤م.

يمكن، على هذا الأساس، تجاهلها، وذلك لأن لجنة الحدود المشتركة قد أرجعت الشريط لصالح اليمن. يقع كوم الحجارة التالي على بعد (٥٠) سلسلة من سابقة على رأس مسيل مسياد (رقم ١٦) إلاَّ أن الوصول إليه قد استغرق منا (٤٠) دقيقة عن طريق ملتوٍ فوق سلسلة في بلاد قد حرقتها الشمس. يجري مسيل مسياد إلى أسفل الحنكة ومنها إلى النقعة. ثم سرنا على الأقدام بعد ذلك إلى أسفل سلسلته إلى غابة أشجار قرظ كثيفة، لنجد أن مستوى الأرض قد مال إلى أعلى من عند حافة الجلمود في اتجاه الجنوب، وفي اتجاه شمال شرقي ناحية سهل الحماد وخطوط صرفه، والتي عند رأسه، جنوب غرب كومة حجارة مسياد، يقف فوقها العمود الحدودي التالي. كان هذا العمود بالفعل على سلسلة تكوّن

قاسماً شمالياً – جنوبياً ويعرف في القائمة الرسميه باسم رأس الحماد (رقم ١٧)، وهو وصف كافٍ لموقعه.

يواصل خط الحدود اتجاهه الشمالي الغربي، الذي تم تحويله بعض الشيء ناحية الجنوب ليشمل مصرف كل من الحماد ومرعى ويقعان بكاملهما في العربية السعودية، إلى حيث كومة حجارة رأس العار إلى موقع معلم على سلسلة وعوع. لقد تم وضع كوم حجارة العار (رقم ١٨) فوق هضبة صخرية على الطرف المكسر لوتر ضحل تنحدر من عنده نهيرات عديدة، لتكون مسيل العار، الذي، أثناء مروره بقرية بالاسم نفسه عند قاعدة رفة، يتصل مع مجرى النقعة على الجانب الشرقي لتل بربر. تفصل الحدود من عند عمود شثيان إلى رأس العار، بين وادعة من منطقة ظهران وقبيلة وعيلة اليمنية، التي كانت حتى شثيان من عند النقطة الأقصى تجاه الشرق، عند تنصاب، قد فصلت بالأسلوب نفسه من منطقة قبيلة يام في منطقة نجران.

يفصل مسيل العار على جانبه اليمني بين قبيلة وعيلة وقبيلة بني حليفة الخولان التي تتاخم مع وادعة حتى العمود الحدودي لجدليّة، والتي فيما يليها، يوجد قبيلة سحار خولان الذين انفصلوا عن أقربائهم بني حليفة بواسطة ذلك المجرى ويلتقطون الحدود التي تتاخم الحدود إلى قبيلة علب[1]، مع قبيلة وادعة، والذين يكونون مجموعة قبلية سعودية يمكن مقارنتها مع قبيلة يام، إلا أنها أصغر منها، ومن الأصل نفسه النهائي لهمدان بن زيد. تمتد عناصر قبيلة وعيلة وقبيلة خولان في شريطيهما المتوازيين إلى ناحية الجنوب، حتى بلاد بكيل في محيط

(١) قبيلة علب: أو بلاد علب عبارة عن أرض تحتوي على جانبيها قبائل وادعة السعودية وسحار اليمنية. (ابن جريس).

برد. تعود أصول قبيلة همدان، المكونة من كل من يام ووادعة إلخ، إلى زيد الهلالي[١]، بينما تتبع كل من قبيلة خولان وقبيلة قحطان لبني عامر.

استمرت كثافة الأشجار في البلاد التي تلي عمود العار الحدودي مع هضبات من صخر رملي وسلاسل ترتفع إلى (٣٠٠) أو (٤٠٠) قدم فوق مستوى السهل. يبدو أن هذه الأراضي قد اعتادت على هطول أمطار غزيرة مقارنة بالأراضي إلى الشمال والشرق وهذا هو أيضاً حال المنطقة المماسة لحدود اليمن الشمالية. كان سهل الحماد بصفة عامة وهذا الجزء الغربي منه بصفة خاصة، كثيف الأشجار مقارنة بأي جزء آخر كنت قد رأيته في الجزيرة العربية خارج جبال تهامة، التي تقع في ممر الرياح الموسمية. وصلنا إلى وادٍ رملي كثير الجنبات، بعد أن تعرج طريقنا خلال الغابات وعبرنا بأطراف السلاسل مدة نصف ساعة، تتبعنا مجرى الوادي عبر الجلاميد العالية المتآكلة بفعل الرياح إلى موقع يلتقي فيه مجريان، أحدهما من الجنوب والآخر من الجنوب الغربي، ليكونا رأس الوادي بين شجيرات وصخور ذات ظلال تغطيها النقوش الثمودية وعلامات المياه. كان هذا هو وادي حلقة ولعله اكتسب هذا الاسم من علامات الآبار الدائرية، وهو على أي حال رافد مهم لوادي الحصن.

كانت هذه البقعة بنقوشها، علامة حدودية ضاربة في القدم بين قبيلة بني حليفة (خولان) وبني جمعة (وادعة)[٢]، ولهذا فقد وافقت اللجنة الحدودية

---

(١) تنسب إلى همدان بن زيد عدد من القبائل كوادعة، ويام، وحاشد وبكيل وغيرها، لكن قول فيلبي أن زيد جد همدان ينسب إلى أبي زيد الهلالي فهذا رأي مخالف للحقيقة، للمزيد انظر: علي بن أحمد بن حزم. **جمهرة أنساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ٢٥٢ ، ٣٩٢ ــ ٣٩٥، ٧٤٥ ــ ٤٧٦ . (ابن جريس).

(٢) بنو جمعة (وادعة):ــ هذه العشيرة لا تعود في وادعة بل تلتقي مع وادعة في همدان بن مالك بن زيد. (ابن جريس).

بقبولها معلماً حدودياً بلا حاجة إلى عمود حدودي أو كوم حجارة. اتخذت هذه البقعة الرقم (١٩) في قائمة العلامات الحدودية، ويمكن اتخاذ الخط الصحيح للحدود هنا بأنه يقع عند النقطة الوسطية للمجرى بين الدوائر التي رسمتها كل قبيلة على صخورها الخاصة بها. كانت بعض النقوش الثمودية قد تآكلت كثيراً بفعل الطقس، غير أنني قمت بنقل تسعة منها، وكان إجمالي عدد حروفها (٧٣) حرفاً. لقد كانت بلا شك أكبر مجموعة للنقوش أتحصل عليها على الهضبة فعلياً.

تتبعنا طريقنا إلى أعلى الفرع الجنوبي الغربي للوادي، وسرعان ما ابتعدنا عنه تجاه الشمال الغربي أعلى السفح للسلسلة المحيطة التي هبطنا من قمتها تدريجياً عبر سفح حجري صعب، تنتشر فوقه ألواح وكسور لصخر رملي، حتى كومة حجارة بلا اسم (رقم ٢٠) تطل على وادي شجع. اتجهنا الآن ناحية الشمال، لنصل خلال دقائق إلى مسيل محيريشة، ونتبع مجراه الشمالي الغربي فوق بطن من ألواح صخر رملي يكسوه غطاء نباتي ثري من أشجار الباليتو والقرظ. يجري المسيل إلى أسفل في مضيق عرضه (٥٠) ياردة من صخور ارتفاعها (٢٠٠) قدم، تنكشف عن دلتا صغيرة ذات غطاء نباتي كثيف، والتي قد اندمجت سريعاً مع فم مسيل السلفة من جهة غرب الشمال الغربي، ومسيل قفية شجع من جهة الشمال، داخل وادٍ صغير كثيف الشجر والذي يدخله شعيب شجع من ناحية الشمال الغربي ليجري داخله في اتجاه جنوبي إلى ما وراء منحنى حاد، وفي وسط غابة من الحلفاء تقع البرك المائية بجدلية التي تغذيها العيون في وسط حلقة من السفوح الخضراء بالنبات عند موقع التماس للصخر الرملي الأعلى مع الجرانيت التحتي، حيث تسيل العيون إلى خارج السطح.

كنا هنا على المنحدر المعاكس لمستجمع الماء، على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، عند موقع لقاء حقيقي لمجاري سيول ذات حجم معتبر وكثافة لنباتات الذروة التحتية. كما يوجد، إضافة إلى المجاري التي قد أشير إليها، مسيل الجدليّة الذي ينحدر من مستجمع الماء ليتصل بالوادي الصغير الذي يقع بين محيريشة وقفية شجا، بينما توجد أسفل البرك جدليّة أخرى، أو الجدليّة سفلى، يدعمها مسيل ضبعة القادم من الشمال الغربي، ليدخل مجرى شجا من عند جانبه الأيمن عند المنحنى.

لقد وضعوا حدود الجدليّة، مباشرة مقابل وأعلى هذا الموقع وعلى صخرة على الجانب الأيسر، على ارتفاع (٢٥٠) قدماً فوق مستوى بطن المجرى، وذلك لتعليم النقطة الثلاثية التي تلتقي فيها كل من قبائل وادعة وبني حليفة وآل سحار. لقد عسكرنا لقضاء الليلة على بعد (٥٠٠) ياردة من هذا باتجاه أعلى الوادي بالقرب من البرك، غير أنني لم أضيِّع وقتاً فقد أسرعت للصعود إلى العمود الحدودي الذي أحاطت به الجلاميد للدرجة التي دفعتني للصعود أكثر لألقي نظرة على المحيط الذي حوله. يحمل هذا العمود الرقم (٢١) للحدود. ويطل الرقم (٢٠) على محيريشة، ناحية الشمال الشرقي منه، ويحمل الذي يليه الرقم (٢٢) ويقع في الجزء الأعلى من مسيل ضبعة ناحية الشمال الغربي، وقد كانا قريبين من موقعنا. لقد لفت نظري فجوة في مستجمع الماء -وهذا موضوع بعيد عن موضوع الحدود- تقع ناحية الشمال الشرقي، ويمر من عندها درب الفيل ليدخل مسيل الجدليّة العليا وليهبط منه إلى برك الوادي الضيق، ومن ثم يواصل انسيابه ليدخل وادي شجع ومنه إلى وادي العرض ثم يعبر الأخير هذا في طريقه إلى صعدة. لا يصلح هذا الجانب للدرب المشهور لحركة السيارات. ينحدر وادي شجع نفسه من

سلسلة ضربة العالية إلى الوراء ناحية شمال الشمال الغربي، حيث يكون منبعه هو مسيل الخربان.

خرج فرج حاملاً بندقيتي ومعه أرنباً، بينما كنت أقوم بأنشطتي الجغرافية، لم ألحظ طيوراً لافتة للانتباه وقد كانت البلابل متوافرة هنا وكذلك البلاكستارتس و القنابر. كانت الليلة لطيفة وقد أحاطت بالقمر هالة من ألوان قوس قزح، بينما بشرت سحابات خفيفة بتغيير محتمل في الطقس. هبت الرياح أثناء النهار من جهة الجنوب الغربي، إلاَّ أنها سكنت تماماً عند غروب الشمس وقد أدفأت لنا الليلة إذ كانت درجة الحرارة الدنيا (٤٨) درجة.

أدهشني عدم وجود رعاة حول الماء عند وصولنا، والشخص الوحيد الذي كنا قد رأيناه، من غير أفراد مجموعتي، كان زائراً عابراً مسناً غبياً وكان قد شاهدنا من بعيد وجاء إلى المعسكر على أمل أن يحظى بوجبة طعام. كان اسمه حسين وهو من رعاة آل فاطمة -ربما يتبعون آل حشيش- ويرعون قطعانهم في سهل الحماد، وهو من شاكلة المرشدين اللذين يعملان معي وكنا قد ألحقناهما معنا في وادي الحصن. وأطلقنا سراحهم حديثاً بعد نهاية العقد معهم. لقد ظل مرعي، وهو من قبيلة وادعة معنا، كما وافق حسين أن يرافقنا على الأقل إلى معسكرنا الآتي. لم يكونا متفقين دائماً على أسماء الأماكن، غير أنني وجدتهما مفيدين جداً كمصححين لبعضهما البعض.

صعدنا إلى خارج الوادي في الصباح من فوق عرن السلسلة لندخل ضبعة والذي وصلنا على جانبه الأيسر إلى عمود حدودي، من كومة صغيرة والحجارة غير بارزة. يبدو أن بطن المسيل يقع في أرض يمنية ويتصل مع وادي شجع أسفل عمود الجدليّة الحدودي. ثم وصلنا إلى كتلة كبيرة لحجر رملي، بعد أن واصلنا

سيـرنا على المسيل متجـهين ناحية غرب الـشمال الغربي إلى مـا يلي موقع تدفق حلقوم من عند سلسلة خطا العـالية تجاه الشمال الغـربي، كانت تلك الكتلة على الدرب عليها نقوش ثمودية طويلة مكونة من (٣٠) حـرفاً، بينما وجدنا على بعد مسافة بعض الرسوم للوعل وكلاب الصيد على صفحات جلاميد متشابهة مفككة. وصلنا هكذا إلى رأس ضبع على ارتفاع (٥٠٠) قدم فـوق موقع التقائه مع شجع كما دخل من الجانب البعيد مجرى رحب والذي يدخل إلى شجع أيضاً، قليلاً إلى أسفل.

دخلنا إلى مضيق جميل، بعد أن تتبعنا جانبه الأيسر، كان عرضه ١٠٠ ياردة ويقع بين صخور شديدة الانحدار، لنصل بعـدها إلى العمود الحدودي التالي (رقم ٢٣) الذي يعـرف باسم علـيب وهو اسم الجـزء الأعلى لمجـرى رحب من فـوق المضيق. كانت هنالك بركـتان كبيرتان للماء في هذا الموقع المجـرى، يقال: إنهما مستديمتـان، بينما برز شريط نحيل للبازلت يشق طريقـه إلى أعلى، خلال الصخر الرملي، ليكون طريقاً للعبور يبلغ عرضه (٧) أو (٨) أقدام وقد شمخت الصخور الرملية على جانبيه.

كان العمود الحدودي على قمة صخر رملي على جانب الوادي الأيسر، أعلى البـرك، والتي لا بد أن يكون مـوقعـها على بعـد (٥٠٠) قـدم أسفل منا. كـان الارتفاع هنا حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقد أمكننا رؤية بطن عليب وهي مرتفـعة في ثبات ناحـية سلسلة وعوع الصـخرية الرمليـة إلى الغرب، على مسافة ميل واحد فقط. أمكننا كذلك رؤية كوم الحجارة الحدودي لوعوع على قمة السلسلة وكذلك كوم حـجارة حدود الجدليّة إلى الخلف من موقـعنا ناحية الجنوب الشرقي. كان تل دلنان مـعلماً مثيراً للانتباه ويقع ناحـية الجنوب الذي إلى الشرق

منه يجري طريق الفيل أسعد كمال كما روى مرشداي، وهو يعبر أرض آل سحار متجهاً إلى صعدة.

ثم واصلنا سيرنا فوق الجانب الأيسر المرتفع لعليب، ووصلنا بعد ساعة من المسيرة الصعبة إلى قمة وعوع وإلى عمودها الحدودي، رقم (٢٤)، على ارتفاع (٧٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد سيطرنا، من هذه البقعة المثيرة، على منظر رائع ليس به إلا القليل من السمات الجديدة، مثل القلعة الصغيرة (قصبة الحيد) التي تقع فوق قمة هرمية على سلسلة السراة قليلاً ناحية الجنوب الغربي. قال عنها مرشداي أنها تطل على بلدة صغيرة أو قرية كبيرة اسمها ساقين عند قاعدة التل وعلى جانبه القريب.

ظهرت الآن جبال عرو ورازح، التي ورد ذكرها كثيراً أثناء المراحل الأولية لحرب اليمن، ولأول مرة من وراء الكتف الأيسر للجبل الأسود، وبالطبع، داخل الحدود اليمنية. يقع تل علب ناحية الشمال الغربي من موقعنا وتقع قلعة أم ليلى تجاه الجنوب الغربي، بينما وقفت شثاث في تجاه شمال الشمال الغربي ومعها قرن سبط الذي يشاهد بوضوح ناحية الشمال. كانت بعض قمم نجران مشاهدة من ناحية الشرق وهي قرن آل الحارث، وزبره، وعرير، بينما تقع الأعمدة الحدودية الأتم وشثيان ناحية شرق الجنوب الشرقي. يمكن أيضاً رؤية بربر، وبراش ومفلوك وكذلك برد البعيدة، ناحية الجنوب أكثر.

وصلنا بعد تسلق صعب فوق السفوح المنحدرة الحادة على الجانب البعيد من وعوع إلى هبوط في الارتفاع يقدر بـ (٥٠٠) قدم إلى مجرى تكسوه أشجار الباليتو ويسمى شعيب الظريفة، والذي ينساب من هنا ناحية الشمال الشرقي لمسافة قبل أن ينحني ليتصل مع وادي شجع من عند موقع دخوله إلى وادي الجدليّة

الصغير. توجد في حوضة وهي أعلى موقع اللقاء، بعض الثقوب المائية (حيرة) تسمى الظريفة. سلكنا هذا المجرى إلى أعلى ناحية الجنوب الغربي، حيث يصل إلى فاصل صخري ضيق يبعده عن وادي شعيب الشعبة. ينساب هذا المجرى جنوباً ليتصل مع شعيب ثيبان، الذي ينحدر من عند ممر علب ويتصل في نهاية الأمر مع وادي شجع بالقرب من موقع التقائه مع وادي العرض بالقرب من بربر. ينبع وادي شجع نفسه، كما قيل لي، من موقعين في جوانب كتله صخرية رملية تسمى ضراوية والتي كان عمودها الحدودي مرئياً لنا من عند القمة إلى الشمال الغربي من موقعنا.

توجد برك مائية في شعيب الشعبة عند موقع التقائه مع ثيبان، بينما يقع العمود الحدودي لشعبة على مسافة (٥٠٠) ياردة فقط من رأس الظريفة في اتجاه شمال الشمال الغربي وعلى ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. قررت أن تتوقف عندما وصلنا إليه، للراحة ولننال قسطاً من النوم الخفيف على الرغم من أن الجو كان بارداً عند ذلك الارتفاع، وكانت السماء ملبدة بالسحب، منذرة بالرعود من جهة الجنوب الغربي. كان هذا هو كوم الحجارة الحدودي رقم (٢٥) في السلسلة الحدودية.

لقد أرسلنا حميرنا فوق طريق سهل لتقابلنا فيما يلي رأس الشعبة والذي يحمل صرف مياه سفحه الشمالي مسيل سيلة معدة الذي ينساب ناحية الشمال الشرقي ليتصل مع موقع التقاء كل من فرع جليل من ناحية الغرب وتقبلة على بعد نصف الميل من موقعنا، ويسمى المجرى بعد ذلك باسم الحجفاء ويواصل سيره ليتصل مع وادي شجع. لعل القارئ الآن قد أدرك التعقيد الكبير للنظام الصرفي في هذه الأرض الصخرية الرملية المكسرة، غير أنه يجب القول هنا بأنه بالنسبة

للرعاة المحليين المنتشرين في هذه الأراضي، فإن كل مجرى فيها يمثل قسماً من أراضي الرعي والتي هم دائماً على استعداد للدفاع عنها ضد المعتدين. مررت في هذا المسيل نفسه، أي سيلة معدة، أثناء هبوطنا، بتذكار كئيب وغريب لمعركة من هذه المعارك كانت قد حدثت قديماً وفي عام ١٨٩٤م بين قبيلة وادعة، وهم يدافعون عن مراعي بلادهم، وآل هشام وهم قسم من قبيلة وعيلة[١].

كان ما شاهدته هنا عبارة عن مجموعة أكوام من الحجارة وهي مبعثرة في المنطقة محددة الموقع الحقيقي حيث سقط الأفراد المدافعون عن القبيلة أثناء قتالهم المعتدين، والذين بناء على الروايات المحلية، التي تصف المعركة بأنها كانت كبيرة، قد تم دحرهم بخسارة كبيرة، توجد عشرات من هذه الأكوام الحجرية في المجموعة الواحدة لتشير إلى ثمن انتصار قبيلة وادعة. كما قد ذكرت لي معركة مماثلة أخرى، وأنها قد وقعت في ضهبة بالقرب من سلسلة الآجمعين جنوب شرق ظهران، ولقد ذكرت سابقاً موقع معركة ثالثة عند الهضبة جنوب بدر. امتطينا ظهور الحمير الآن لنواصل سفرنا فوق سفح سهل تجاه الكتلة البارزة التي تسمى ضراوية، والتي قد وصلنا إلى قاعدتها، التي كانت عند مستوى الارتفاع نفسه الذي كان عليه رأس الشعبة، وذلك خلال (٢٠) دقيقة.

كان صعودنا فوق الصخور على السفح المنحدر صعباً جداً. أصابت الجروح يدي بسبب الصدمات والسقوط المتكرر بين الجلاميد الحادة لهذه البلاد. وكان الأمر أيضاً صعباً على كعوب أرجلنا والأجزاء العليا للأحذية المطاطية. كان هذا الصعود

(١) الصراعات بين القبائل على أماكن المراعي وموارد المياه كانت من أعظم المشاكل التي تقابل الناس قديماً، واليوم خفت بدرجة كبيرة لوجود أجهزة حكومية تقضي بين الناس، وكذلك توفر مصادر رزق أخرى غير مهنتي الزراعة والرعي التي كانت توجد تلك الصراعات من خلال ممارستها. (ابن جريس).

من أسوأ ما قد واجهناه حتى الآن، برغم أن القمة كانت على ارتفاع (٤٠٠) قدم فقط من القاعدة، لنقل (٧٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. سقط رذاذ مطر خفيف حينما وصلنا إلى القمة، في ذيل عاصفة كانت عابرة فوق المرتفعات الغربية من الجنوب إلى الشرق خلال فترة ما بعد الظهر كلها. سعدنا بعد ذلك بمشهد نادر لقوس قزح رائع ولمدة طويلة بألوانه البديعة- وكان طرفا دائرته التي تمثل ثلاثة أرباع الدائرة، ظاهرين بوضوح عند قاعدة السلسلة على الجانبين، بارزاً من عند الموقع نفسه الذي كنا قد بدأنا منه تسلقنا ومستديراً من فوقنا وإلى أمامنا ليهبط عند البقعة التي تنتظرنا فيها حميرنا، بعد أن استدارت حول السلسلة، على الجانب الآخر. خلدت بقية أفراد مجموعتي للراحة في المعسكر في هذه الأثناء لقضاء الليلة عند قاعدة تل يسمى مهد على بعد الميل الواحد تجاه شمال الشمال الغربي.

لم يكن هنالك ما يبرر بقاءنا أكثر من ذلك عند القمة، وقد اعتدت على المنظر العام، والذي كانت سمته الوحيدة الجديدة هي جرف عالٍ من صخور رملية يسمى غرا، ناحية الجنوب الغربي، على جانب واحد من الممر المشهور المسمى باب الحديد أو أم حديدة كما يسمونه في هذه الأنحاء[1]، وهو البوابة الحديدية التي تقود إلى اليمن عن طريق باقم. كما توجد كومة حجارة أخرى على قمة ضراوية على بعد الميل الواحد تجاه الغرب، غير أنها كانت أرضاً قبلية قديمة أو علامة حدودية. ولا دخل لها بالحدود الدولية، والتي وصلنا عندها إلى العمود الحدودي رقم (٢٦).

كان العمود الحدودي التالي، (٢٧) لا يزال على سلسلة ضراوية عند طرفها الشمالي ويسمى بل فريض الراكة. لا يزال قرن آل الحارث التابع لنجران مرئياً لنا

(١) وربما أطلقوا على هذه المواطن اسم (أبواب الحديد). (ابن جريس).

ناحية الشرق، غير أن بقية المعالم الأرضية الأخرى لنجران قد غابت عنا بسبب السلاسل المعترضة.

لم يعترف حسين الفاطمي، على أي حال، بقرن آل الحارث، كما أنه لم يكن مفيداً كمرشد وكان كذلك حال مرعي الوادعي برغم أنه كان يثرثر كالقرد. يرتدي حسين ثوباً من السمق مصبوغ بكثافة بالنيلة وملتصقاً مع جلده، ويرتدي فوقه سمقاً أبيض اللون للأناقة. وكان يحتذي صندلاً مصنوعاً من مطاط إطارات سيارات تالفة، وكان دائماً يحمل أحد الحذائين ليحميه من ضرر الصخور! كان ابن داهش يمثل دعامتي الأساسية، برغم أنه لم يكشف عن أي معلومات جغرافية تفصيلة، خلال هذه الأيام الطويلة الكئيبة التي قطعناها سيراً على الأقدام، ونحن نصعد صائمين. تركت فرج واستقلاليته للصيد، علماً بأن ذلك لم يكن كثيراً، إلاَّ من أرنبة خجولة، في هذه البلاد المعزولة. لم أر الكثير من بقية الرفاق، إلاَّ في المعسكر فقد كانوا سعداء بمتابعتهم للطريق الأقل مقاومة والأكثر راحة.

وصلنا إلى المعسكر مع غروب الشمس وقد مررنا بصخرة على جانب الطريق وعليها نقوش ثمودية، وتركت أمر نسخها إلى صباح الغد. كان يوجد نقش آخر من تسعة حروف يقع بعيداً قليلاً من الصخرة الكبيرة والتي كانت صفحتها مغطاة بنقوش عديدة تشتمل على (٦٥) حرفاً في جملتها. أقمنا معسكرنا في تل مهد على الجانب الأيسر لوادي تقبلة والذي كانت توجد فيه أيكة جميلة من شجر القمر، والذي يستخلص البدو من سيقانها اللحمية دهناً يستخدمونه في علاج الجرب[1] وغيره من أوجاع الجمال.

(١) الجَرَبْ:ــ من الأمراض التي تصيب الإبل، وقد تعالج من هذا المرض إذا تم دهن جلودها، أو مكان المرض بمادة (قطران) المستخلصة من جذوع بعض الأشجار المحلية كالعتم والطلح وغيرها. (ابن جريس).

رأينا في هذا المجرى وفي مصارف مماثلة في هذه المنطقة، الكثير من شجرة يسمونها نهدية شديدة الشبة بالطعسوس، والتي تستخدمها النسوة في غسيل الشعر. كانت شجرة القرظ وافرة هنا، إلاَّ أن ابن داهش ذكر لي بأن أوراق القرظ، على عكس الطلح وأنواعه الأخرى، لا يصلح علفاً للإبل. لقد شاهدت الجمال تأكله بحرية في حضرموت، ويبدو أن الجمال المحلية هنا تفعل ذلك أيضاً، إلاَّ أنها لا بد وأن تتأقلم عليها طوعاً أو كرهاً. تتأذى الجمال الغريبة من أكله كما حدث لجمال السعوديين أثناء العمليات في الحماد خلال حرب اليمن. كانت هذه البلاد أرضاً كئيبة ومعزولة، على الرغم من كسائها النباتي الأخضر، يبدو أن شجرة اللبان (اعربة) تنمو بغزارة في هذه السلاسل الصخرية الرملية مثل سلسلة وعوع وضراوية.

سلكنا سلسلة نهد صباح اليوم التالي، صاعدين إلى أعلى الوادي إلى فترة، قبل أن نضرب تجاه الغرب من خلال غابة من أشجار القرظ أسفل ضراوية إلى القاعدة الشمالية لضراوية، والتي وصلنا إليها خلال (٢٥) دقيقة. ثم وصلنا بعد (١٠) دقائق من الصعود إلى العمود الحدودي (رقم ٢٧) الذي يقع عند ارتفاع (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر في سرج منخفض به قمتين للسلسلة يقعان في أقصى الشمال. يجري مسيل فريض الراكة، على الجانب البعيد منه، إلى أسفل في اتجاه الجنوب ليتصل مع ثيبان. ثم هبطنا سالكين الطريق الذي صعدنا عليه، وكنا ممتطين حميرنا، وتواصل السير على الخط الكفافي لقاعدة ضراوية إلى مسيل المعول، الذي سلكناه إلى رأسه في المضيق، والذي من عنده هبطنا إلى مسيل العروس. يجري مسيل العروس بجوار بعض البرك الواقعة في بطنه ليتصل مع

شعيب مجازة من ناحية الغرب، والذي بدوره يتصل مع المعول إلى أسفل مع شعيب حجر، ومنه إلى وادي الحصن.

تركنا العروس بالقرب من منحنى البرك وضربنا السير فوق مسيل يسمى عجمة المعول والذي هبطنا من عند رأسه إلى شعيب البطيح الذي سلكناه، وهو رافد لمجزة. أصبحت التلال شديدة التشابك ومختلطة ويصعب رؤية ما يحدث في الحدود، التي تقع على امتداد طريق متعرج يجري تجاه الغرب. كان مسيل البطيح قليل الأشجار والتف بعد فترة ناحية رأسه في سلسلة وردية اللون وليست بالبعيدة ناحية الشمال الغربي، تاركاً لنا في مدرج جبلي طبيعي والذي من عنده وصلنا، بعد تسلق استمر مدة ساعة على السفوح الصخرية العادية، إلى قمة جبل عضد وعموده الحدودي القائم على حافة هوة رهيبة.

كان ارتفاعنا على هذه القمة حوالي (٧٦٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وهو أعلى موقع وصلناه في الحدود حتى الآن، ولا بد أن يكون حوض وادي ثيبان عند أسفل الهاوية على بعد (٢٠٠٠) قدم أسفل من موقعنا وقد هبطت عليه صخرة شديدة الانحدار وتستدير من حوله في شكل نصف دائرة جروف مخيفة لتكوِّن صدعاً يبلغ عرضه (٢٠٠) ياردة والذي ينحدر منه مسيل ثيبان ومسيل آخر يسمى يباد من جهة الغرب والجنوب الغربي بالتتالي في سباقهما ناحية كل من شجع والعرض. كان كلاهما جافاً في هذا الوقت، وكان بطن الهوة محتوياً على برك متقطعة غير أن الأمر يحتاج إلى قليل من الخيال لتصور ما سيكون عليه الحال خلال موسم السيول وحين تصب المياه الهادرة من هذا العلو.

يهبط مسيل يباد من عند فجوة في الصخر الرملي على مسافة أميال قليلة، وتقع قرية يباد نفسها إلى الوراء على السلسلة نفسها، بينما يقع منبع ثيبان ببضعة

أميال في أرض مرتفعة مكسرة. نحن نقترب الآن من الجرف العظيم ذي السلسلة البركانية المسطحة واسمه جبل شعير الذي وضحت حافته بجوار علب، الذي لم يكن مرئياً لنا، إلاَّ أنه يقع غرب الشمال الغربي خلف كتلة صبحطل[١] المعترضة. كانت أبعد النقاط المرئية لنا هي قرن سبط ناحية الشمال والمعلم الأرضي برد ناحية الجنوب الشرقي.

قضينا حوالي ساعة عند هذه النقطة الحدودية (رقم ٢٨) مستمتعين بالمنظر العظيم الذي وقفنا عليه. كما استغرق وصولنا إلى البقعة الحدودية التالية وهي فريض أسعر (رقم ٢٩) ساعة كاملة أخرى، على الرغم من أنها لم تبعد بأكثر من ميل واحد. كان الارتفاع مثل الارتفاع عند عضد حوالي (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، ولكي نصله كان علينا أن نهبط بعض الشيء لنصعد فوق سفح آخر يقودنا إلى مضيق ضيق والذي على جانبيه ينحدر المسيل بحدة إلى كل من ثيبان ومجازة بالتتالي - وهو منبع آخر مزدوج الرأس لوادي نجران.

يمتاز هذا العمود الحدودي بأنه لا يمكن رؤيته من أي موقع غير شثاث، وبعض التلال التي ساعدت على تثبيت موقعه، وقد استغرق وصولنا إلى العلامة الحدودية التالية، حوالي (٢٠) دقيقة فوق سلسلة واصلة صعبة، التي تقع على هضبة صبحطل العالية (رقم ٣٠) والتي يبلغ ارتفاعها (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد كانت هضبة منعزلة، تملأ الفجوة بين جرف عضد وجرف السلسلة وقد تم وضع العمود الحدودي عند النقطة الوسطية. ثم ظهرت إلى البعيد ناحية

(١) صبحطل:ـ يطلق عليه أيضاً اسم سبحطل. (ابن جريس).

الجنوب كتلة جبال جديدة يمنية، كنا قد رأيناها من قبل من عند أسعر، وكأنها هضبة حادة الجنبات، إلاَّ أن مرشدَيَّ لم يقدما لها اسماً. كان كل من قرن سبط وقرن آل حرث مرئيين لنا ناحية الشمال وناحية الشرق بالتتالي، بينما تقع أمامنا تقريباً، سلسلة شعير ومعها ممر علب الذي يقع في طرفها الشمالي.

وصلنا بعد مسيرة (٤٠) دقيقة على الأقدام إلى الطرف الغربي الأقصى لأرض صبحطل النجدية، والتي تنفصل عن هضبة مماثلة ولكن أصغر منها تقع ناحية الغرب وتسمى فريض المحدث، بواسطة مضيق عميق ينحدر إلى (٦٠٠) أو (٧٠٠) قدم بين صخور شديدة الانحدار والتي يسقط من فوقها مسيل فريض المحدث في طريقه للاتصال مع ثيبان. يقع العمود الحدودي التالي (رقم ٣١) على حافة فريض المحدث على بعد (٢٥٠) ياردة من موقعنا، عبر المضيق، قليلاً ناحية الشمال الغربي، وفي خط مستقيم عبر شعيب المزيرعة، مع رأس مسيل علب حيث يهوى إلى الجرف. لقد أرهقتني ضغوط عمل اليوم وقد تقدم النهار وضعفت مقدرتي على العطاء، بينما حذرتنا طبول الرعد المتدحرجة من ناحية الغرب فوق فيفا بأنه قد حان الوقت لمغادرة المرتفعات إلى الأرض. أجَّلتُ رؤية عمود محدث الحدودي وأسرعنا إلى المعسكر. كنا نرى زملاءنا وهم مستريحون في الأسفل، على بعد يقل عن ميل واحد، في حوض فجة البيضاء عند سفح الجبل، على بعد (٥٠٠) قدم إلى أسفل من موقعنا. كان الهبوط صعباً بحق على الصخر الرملي من أعلاه إلى أسفله. كانت الطبقات السفلى، وإلى عمق (٣٠٠) قدم، من حجر رملي أكثر بياضاً من الرخام وكان في تضاد مثير مع اللون الأسمر المحمر والصخور السوداء في المستويات العليا.

كان القمر بدراً هذه الليلة، يلمع فوق مخابي انسحابنا بين الجروف الضخمة التي شمخت فوقنا، وهي جروف بيضاء وقفت في شبه دائرة كبيرة من عند التلال العالية حول الحوض الذي يجري فيه مسيل بياض ناحية الشرق. تمثل مجموعة الطيور هنا بطيور السوّادية والأبلق، بينما لاحظنا أثناء النهار آثار الوعل على تل صبحطل وشاهدنا كذلك بقايا ماعز كان قد قتله ذئب وأكله.

تحول الطقس إلى الدفء، وكانت الدرجة الدنيا للحرارة في هذا الموقع المحمي (٥٩) درجة، بينما كانت الحرارة في وادي مهد المحمي أيضاً (٥٢) درجة لقد شققت تأثيرات الشمس نهاراً، والرياح الباردة عند القمم، والظروف المعتدلة في هذه الليالي، إضافة إلى التسلق الصعب بين الصخور، كلاً من وجهي وأنفي وأصابعي وظهر يدي إلى الدرجة التي لم تزعجني فقط، بل سببت لي متاعب خطيرة. كانت ذروة ذلك خلال مسيرة اليوم، حينما اكتشف أنه، عن طريق إهمالي وعدم انتباهي، فإن بعض تقرحاتي بدأت تتقيح وتمتص طاقتي. لم يكن معي من المؤن الطبية غير اللفافات، إلاّ أنني جلست اغتسل بالماء والصابون عند المساء لإعادة صيانة جسمي، وكنت في الصباح أؤدي عملي وأنا ملفلف بالشرائط، غير أن ذلك لم يكن نهاية متاعبي بأي حال.

واصلنا عملنا في الصباح خارج فجة البيضاء على امتداد خطوط الكفاف لسفح فريض المحدث، الذي يرتفع تدريجياً وهو أمر صعب على الحيوانات السالكة في الممر، غير أنه لم يكن صعباً علينا مع بعض الزحف من حين لآخر. استغرق وصولنا إلى حافة هضبة فريض المحدث حوالي نصف الساعة، وكانت أقل ارتفاعاً من صبحطل بحوالي (٢٠٠) قدم وتقع تجاه الغرب من عمودها الحدودي. مررنا بعدد من البرك الصخرية أثناء صعودنا وكانت كلها مليئة بالمياه

نتيجة للأمطار الأخيرة، كما كانت هنالك برك بين جروف فجة البيضاء، غير أن الأخيرة هذه يقال عنها إنها تجف صيفاً. كانت قمة فريض المحدث مكسوة بالشجيرات الخفيضة وببعض أشجار القمر وبشجرات الشث زيتونية اللون.

سرنا على الأقدام فوق هذه الهضبة مدة (١٥) دقيقة، لنصل إلى العمود الحدودي التالي واسمه رأس المزيرعة (رقم ٣٢)، وقد تخرب تماماً، ربما بفعل الرياح والسيول. يقف العمود بجوار بركة كبيرة ضحلة، كانت جافة تماماً في هذا الوقت، داخل حوض من حجر رملي عند زاوية الهضبة حيث يهبط مسيل شعيب القوم من عند سلسلة الحضار ناحية غرب الشمال الغربي من موقعنا، ويتفرع إلى جزأين، أحدهما يجري شرقاً ليكوِّن رأس شعيب المزيرعة ويتجه الآخر جنوباً ليصب في الجزء الأعلى من مجرى علب، الذي يجري إلى أسفل حيث وادي شجع. كان علينا أن نبحث عن طريق مختصر وقد واجهتنا جلاميد عالية، مما دفعنا للعودة على أثر طريقنا لبعض المسافة ثم لنصعد وبمشقة إلى أسفل المجرى المزيرعة الأعلى، والذي كنا قد سلكناه إلى مضيق ضيق على ارتفاع (٧٦٥٠) قدماً فوق سطح البحر، والذي كان يمر عبر طريق الجمال اليمني الذي يتجه إلى مسيل علب ومن ثم على امتداد المزيرعة ليمر داخل شعيب القوم. تجمعت أشجار العرعر في هذه المنطقة، وكنا قد رأيناها متفرقة حول صبحطل، وكان بعضها هنا مثمراً. كانت الشجرة اللافتة للانتباه التي رأيناها لأول مرة في شعيب المزيرعة هي شجرة كثا، التي اتضح أنها زيتون بري.

تضمن الغطاء النباتي العالي المحلي نبات مجره ونبات أثق كما قابلنا ونحن في طريقنا إلى هذا المكان، فتاة في السادسة عشرة من عمرها (غير متزوجة) ترتدي سمقاً جميلاً حديث الصبغ بالنيلة وكانت خصلات شعرها مدهنة جيداً

ومكشوفة، وهي تمضي في طريقها وحيدة من عند مخيمها وذلك لزيارة للجرف المجاور. كانت فيما يبدو شخصية مشهورة، فهي واحدة من ستة من البنات، تزوج اثنتان منهن، والدهن هو محمد بن شيخ من قبيلة وادعة، الذي مات منذ زمن دون أن يخلف أبناء ذكور يرثونه.

استغرق وصولنا إلى العمود الحدودي (رقم ٣٣) عند رأس شعب القوم حوالي ساعة كاملة من المشي الجاد المرهق على الأقدام عبر مجاري صعبة لكل من المزيرعة وشعب القوم، على ارتفاع (٧٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقع كل الهضبة داخل الزاوية التي يكوِّنها هذان المسيلان وكانت هضبة خضراء مريحة وبها العديد من المنخفضات المشجرة التي أصابتها الأمطار الأخيرة وبدت طازجة المظهر. اتجهنا الآن ناحية الجنوب الغربي، عبر التركيبة نفسها من الصخر الرملي لهضبة البلاد، التي انتهت فجأة عند قاعدة الوتر للسلاسل البركانية التي تكون القمة، للجرف الفعلي، الذي ينحدر من الجانب البعيد إلى هوة تهامة وإلى صدوعها. ثم تسلقنا السفح الشرقي الصعب لسلسلة بركانية لنقف على قمتها على ارتفاع (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. يقف العمود الحدودي لعلب على هضبة منعزلة على مسافة قليلة من موقعنا، تجاه جنوب الجنوب الغربي عند رأس العقبة المشهور، ومن عنده يهبط طريق شديد الانحدار عبر فتحة في الصخر تسمى الحنكة، ثم إلى قرية المريسيقة اليمنية التي تقع إلى أسفلنا بحوالي (٢٠٠٠) قدم وتبعد مسافة ميلين في خط مستقيم موقعنا.

لم نكن في عجلة من أمرنا للذهاب إلى العقبة حيث سيكون معسكرنا، أثناء جلوسنا على السلسلة نستمتع بالمنظر، وصل إلى سمعي صوت يشبه صوت حصان يعدو، لم يكن لديَّ الوقت لأسجل هذه الظاهرة، حينما برز من عند

الزاوية للسلسلة وعل ذكر مكتمل النمو، كائن رائع ذو قرون ثقيلة، يخب أمام عيوننا بيسر فوق صخور البازلت الصعبة. لقد كان رجل الشرطة الجالس بجواري بطيئاً في استعمال بندقيته واختفى الحيوان من وراء منحنى في الجرف قبل أن أجد وقتاً أطلق فيه رصاصة. لم يتملكني الأسف على ذلك، على أي حال. كانت هذه هي أول مرة أرى فيها وعلاً في بيئته المحلية الطبيعية في جبال الجزيرة العربية، وقد رأيت الحيوان بكامله أمامي مدة دقيقة كاملة على مسافة (١٠٠) ياردة مني، وهو مشهد لا يمكن أن ينسى. أسرع محمد بن مسفر فوراً في ملاحقته، غير أنه لم يره مطلقاً. لقد كانت أمامه فرصة الحياة غير أنه لم يكن مستعداً لها حينما جاءت.

كان المنظر فوق جبال تهامة يمتد أمامنا باتساع غير أنه قد اعترضت صفاءه سحب منخفضة، مما جعل التقاط التفاصيل أمراً صعباً. تقف الأرض المرتفعة البركانية التي تسمى مندبة مباشرة خلف العقبة وداخل أرض يمنية ممتدة غرباً لتكون زاوية مع سلسلة علب والحضار، والتي نقف نحن فوقها الآن، وهي تمتد من الجنوب إلى الجنوب الغربي، وتحجب المنظر في ذلك الاتجاه. غير أن كتل كل من مرعة وقعمة قراد قد برزتا جزئياً فيما يلي وأعلى من كتف مندبة وإلى اليسار، وكان جبل فيفا بارزاً بين جبال تهامة ناحية الغرب ومن حوله كتل منجد وثهران وغيرها.

سرنا على مهل إلى العقبة لنعسكر في كهوف رائعة في صخوره الرملية الترسبية أسفل قمة البازلت. يقع الممر على ارتفاع (٧٥٠٠) قدم فوق سطح البحر في منخفض في قمة الجرف. وقد سيطرتُ على منظر عظيم من عند كهفي، يمتد من ضلع إلى آخر لأكتاف الجبال البارزة من الجدار الشديد الانحدار للجرف. وهو

جدار يرتفع إلى (٢٠٠٠) قدم ويتعرج تجاه الشمال في سلسلة مصفوفة من أراضٍ رأسية، وجدار من صخر رملي أحمر تكسوه قلنسوة رفيعة من البازلت، والذي كسحت حجارته المتساقطة المائة قدم العليا من صخرة التحتي. كنت مرهقاً جداً عند الوصول، ومتعباً بسبب التسلق ولا أزال أشعر بآثار تقرحاتي الملتهبة.

استلقيت بسبب ذلك لأنام في كهفي، وبرغم الإزعاجات الصادرة من أكثر من جهة، إلا أنني قد نمت براحة كافية من الساعة (٢,٣٠) حتى غروب الشمس، حيث كنت مستعداً لتناول بعض المنعشات، مع عدم ميلي إلى النشاط. صحوت عند الساعة (٤,٣٠) على جلجلة رعد عنيف، معلناً لنا بقدوم العاصفة. ثم جاءت العاصفة، مندفعة شمالاً في مقدمة إعصار، غير أنها تركتنا جافين وأمطرت فوق الجبال الواقعة ناحية الغرب إلا أن العاصفة عادت مرة أخرى ولكنها لم تصبنا للمرة الثانية، وقد مرت فوقنا تجاه الشرق. ثم اختفت العاصفة نهائياً مع غروب الشمس، وقد صفا الجو ليعبره القمر، إلاَّ أن الجو قد برد إلى جانب أن قروحي والشرائط ومع الألم الواخز قد سببت لي الكثير من عدم الراحة، وجعلني أحس بأنني خارج حالتي الطبيعية. عزلت نفسي -على أي حال- في كهفي وقد فاتتني المجموعة الضاحكة من رجال الحمير الذين عادوا بعلب فارغة من باقم إلى ظهران، وهم يتلكأون ليدركوا فرصة تناولهم العشاء مع رفاقي.

قررت أن أقضي كل يوم الغد (٢٩ نوفمبر) هنا وأن آخذ الأمور ببساطة وأعطي لنفسي فترة استرداد للعافية. كان الموقع مريحاً حقاً لكي أنال إجازة، وقد واكبنا الحظ في أن نعترض مسار شحنة عنب لذيذ كانت متجهة إلى سوق ظهران. لقد كانت قافلة كبيرة من الجمال والحمير وأقبلت عبر طريق يتلوى من باقم هذا

الصباح. كانت الحمير محملة بالعنب في الصناديق الخشبية المعروفة. التي تم صنعها أصلاً لتحتوي على علب البرافين، بينما حملت الجمال المواد الثقيلة الأخرى مثل البن في حقائب (مزودات) مصنوعة من جلود الجمال[١].

يجري وادي علب، من عند الممر، وهو هنا أشبه ما يكون بالمسيل، تجاه الجنوب الشرقي. ثم يدور الطريق على مسافة (٥٠٠) ياردة ليهبط إلى أسفل عبر ممر صعب بين سلاسل منخفضة، ليرتفع مرة أخرى سريعاً إلى ممر آخر يسمى الشطبة الذي ينساب من عنده مسيل يقود مباشرة إلى قرية يباد. يلتف الوادي من هناك تجاه الغرب إلى ممر أم حديدة الرئيس (باب الحديد)، الذي يقع على مسافة ميلين تجاه الجنوب من عند عقبة علب، ويبعد تقريباً نحو ثلاثة أميال إلى الشمال من باقم. لم نستطع رؤية أي من القرى التي ورد ذكرها. يجري الطريق ناحية الجنوب الشرقي من باقم مسافة (١٥) ميلاً إلى سقي فوق أرض بني جمعة، ومنها وبمسافة مماثلة، إلى سعيد في أرض بني سحار -تنتمي إلى ابن مناع-. يتبقى بعد ذلك مسافة خمسة أميال فوق سهل منزرع ليصل الطريق إلى صعدة.

يبدو أن علب هو الاسم المحلي الذي يستخدم للممر الذي يشار إليه غالباً باسم علبين في داخل البلاد، مثلاً، في نجران والرياض. يعني هذا بوضوح أن «علبين» هي مثنى «علب» ويشير إلى الصفة المزدوجة للعقبة، التي ليست فقط تقود إلى اليمن عن طريق باقم كما ورد وصفه، بل تلتقي إلى أسفل بطريق قديم

(١) هذه (المزودات) يطلق عليها في اللغة اسم (عياب) ومفردها عيبة، وهو وعاء ينقل فيه الزرع المحصود من مزارعه إلى أماكن درسه وخزنه. واسم عيبة مصطلح دارج عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية، وكان يستخدمها أصحاب المزارع إلى وقت قريب، بل لا زال يوجد منها بعض النماذج في المتاحف المحلية بهذه البلاد. (ابن جريس).

في الصدوع المنحدرة لحنكة وفي اتجاه تهامة. تقع قرية المريسيقة اليمنية عند أسفل حنكة على بعد (٢٠٠٠) قدم إلى أسفل من موقعنا، وهي محتضنة بين سفوح مضيق يسمى الشعثاء،وهي قرية تنتمي إلى عناصر من قبيلة سحار التابعة لخولان.

يغير الحنكة، ومعه تلال الحرف وخيمة على جانبه الأيسر اسمه أسفل هذا الموقع، إلى اسم أم جوة[١] وذلك بعد تدفق مسايل أخرى إليه وينساب إلى شعيب موتان إلى أسفل في شبكة واسعة من التلال، وهذا بدوره ينحدر إلى دفاء الذي سنصله في وقته. لا توجد قرى، إلى جانب أطلال قرية الرهوة (أيضاً سحار) على مسافة ميل واحد إلى أسفل، في هذه السلسلة من المسايل، غير المريسيقة التي يوجد بها برجان و(١٢) من عشش ذات طابق واحد كلها مبنية من اللبن في وسط الحقول والنخيل.

يكون الشريط العام -الحنكة، والجوه، وموتان، والريث، الخط الحدودي الذي كان يعلّم على فترات بالأعمدة، التي لم أقم بزيارتها ولكني نظرت إليها، وكانت أحياناً بلا وضوح تام، وذلك من عدة نقاط من على الجرف وبهذا استطعت أن أضعها على الخريطة مع درجة قريبة من الدقة. لم أرغب في الإساءة إلى آداب المعايشة بسؤالي عن إمكانية الحصول على دليل من مريسيقة اليمنية الذين يبدو أنهم غير واعين بوجودنا في الممر أو أنه لا يهمهم الأمر ليقوموا حتى بزيارتنا. شعرت حقيقة، بأنني أنفر من الإجهاد الذي ستسببه دراسة تفصيلية لعلامات الحدود في تلك المنطقة. لقد رحب رفاقي بحماس بقراري أن نسلك

(١) أم جوه:ـ يطلق عليها أيضاً اسم (الجوه). وهناك كثير من المصطلحات في أجزاء تهامة والمنحدرات الغربية من السروات (الأصدار) في جنوبي البلاد السعودية يقلب فيها حرفي (ال) إلى حرفي (أم)، مثلاً؛ الجوه تنطق أحياناً أم جوه... وهكذا. (ابن جريس).

الطريق الأقل مقاومة لنا وأن أكتفي باعتبار المنظر التحليقي للحدود في تلك المجموعة المرتبكة من التلال والسلاسل والمسايل.

كان العمود الحدودي والذي يحمل الرقم (٣٤) على صخرة صغيرة بارزة بالقرب من ممر علب آخر علامات الهضبة. تجري الحدود من عنده إلى أسفل إلى الحنكة إلى موقع قريب من أطلال الرهوة التي يقف في مقابلتها وعلى جانب الوادي الأيمن عمود الرهوة (رقم ٣٥) الذي يبعد حوالي ميلين من الممر. تتبع الحدود بعد ذلك مجرى الحنكة مارة بالجانب الشمالي لسلسلة الحرف وسلسلة خيمة، غير أن الأعمدة، مرتدة إلى الجانب الأيسر، تسلك طريقاً مختصراً عبر قاعدة الانبعاج، على امتداد الشريط للممر القديم الذي يقود من غرب الرهوة إلى بلاد الريث.

توجد ثلاثة أعمدة في هذا الامتداد القصير من الأرض، كلها قائمة فوق هضبات منخفضة أو سلاسل، وهي: برق (رقم ٣٦)، والبيضاء (رقم ٣٧) ونيد الكحل (رقم ٣٨)، معلمة ممراً منخفضاً الذي يبدو الطريق من بعده هابطاً إلى أم جوة، عند نهاية الانبعاج البعيدة. تقف قشبة (رقم ٣٩) ومجزع القرظ (رقم ٤٠) وهما العمودان الحدوديان التاليان، على نقاط على السلسلة التي تكون الجانب الأيسر لهذا المجرى، بينما يقع العمود الحدودي رقم ٤١ وهو آخر الأعمدة التي تهمني فوق عرن سلسلة منجد أو ثهران، تقريباً عند الموقع الذي يترك فيه أم جوة (الجوة) المجال لوادي دفاء، بعد اتحاده مع مصارف أخرى من الجانب الشرقي لهذه الجبال، لقد قدرت أن المسافة من عند ممر علب إلى عمود الحمرة هذا[1]، حوالي

(١) عمود حمرة:ــ يطلق عليه أيضاً اسم (عمود حمرة دفاء) (ابن جريس).

سبعة أميال، غير أن طول الحدود الفعلي بين هذين الموقعين من حول الانبعاج كان على الأقل ضعف تلك المسافة.

تقع الحمرة قليلاً إلى الجنوب الغربي من علب، بينما كان الطرف البعيد للانبعاج الشمالي على بعد أربعة أميال اتجاه الشمال الغربي، كان المنظر محجوباً، فيما يلي الحمرة، بسلسلة فيفا وشقيقاتها العملاقة، وهي جبال عظيمة تشمخ إلى (٧٠٠٠) قدم فيما يلي ارتفاعات أقل تقع بينها وبين الجرف العظيم. نحن لا نرى شيئاً من سهل تهامة ولا البحر، غير أن ميناء جازان يقع على بعد (٥٠) ميلاً في خط مستقيم مع فيفا، ناحية الجنوب الغربي. يعترض المنظر الذي نشاهده كل من الجبل الأسود وجبل مرعة من جهة الجنوب، بينما لا تزال بربر تشاهد من جهة الجنوب الشرقي.

أقبلت العاصفة للمرة الثانية من جهة الجنوب، غامرة للمرتفعات الجنوبية الغربية بجداول مياه أمطارها وقد حولت المعسكر إلى حالة بائسة وكانت تصحبها رياح باردة ظلت تهب على مدى ساعتين بعد غروب الشمس. تحسنت الأحوال كثيراً مع تقدم المساء وقد صفت السماء واستقرت مجموعتنا بعد يوم قليل الجهد ووجبة عشاء يسودها اللحم والعنب في كهفي في آخر ليلة لي أقضيها فوق الهضبة الحدودية. سنكون متجهين إلى وطننا صباح الغد وطننا الذي لن نصله إلاَّ بعد شهرين ونصف الشهر. سيكون أمامنا العديد من الجولات وكثير من المحن ولمدة تصل إلى ثمانين يوماً في أرض أكثر غرابة من صحراء الجزيرة العربية - أرض استوائية من سهل وجبل ويسكنها أناس أكثر بدائية من عرب صحراء الجزيرة العربية.

الفصل الثالث والعشرون

عودة إلى شراقب[١]

اتجهنا ناحية الشمال في آخر أيام نوفمبر. كان من الأجدر لنا أن نتبع الحدود من عند ممر علب وعبر جبال تهامة إلى البحر، غير أن عدة أسباب حالت دون ذلك، خاصة حاجتنا إلى مرشدين، واستحالة أن نجد أحداً لهذه المهمة في شريط التلال العارية، والسلاسل التي تقع بين علب وفيفا. كان عليَّ نتيجة لذلك أن أترك فراغاً صغيراً في الخريطة الفعلية للحدود، بالدرجة التي تدل على أن الأمر ثانوي الأهمية، بينما كان المخطط الذي حددته لنا السلطات هو أن يحقق لي رؤية الكثير من بلاد تهامة، أكثر مما قد فعلت الآن. كان الممر العملي التالي الذي يقع إلى الشمال من علبٍ، هو ممر عقبة شراقب بالقرب من قرية الحوط في وادي راحة، ولكي نصل إلى هناك فعلينا أن نعود عبر ظهران والحوط نفسها، برغم أنه إلى جانب تماسنا بهذين الموقعين وبالطلحة، فإن طريق عودتنا كان يجري فوق بلاد جديدة علينا مما مكنني من إكمال مسح الهضبة.

---

(١) شراقب:ــ هي طريق (عقبة وجمعها عقبات) تربط بين أعالي السروات في بلاد ظهران الجنوب وبين منطقة الأصدار والأجزاء التهامية في أعالي وادي بيش. ومثل هذا الطريق (العقبة) توجد هناك طرق (عقبات) عديدة في البلاد الممتدة من ظهران الجنوب حتى الطائف، وجميعها تربط أعالي السروات بالأجزاء التهامية، ومن هذه (العقبات) ما تم تحويله إلى طرق رئيسة مسفلتة تسلكها السيارات بأنواعها، ومنها لا زال شديد الوعورة، ولكن السيارات القوية في صنعها وعزمها تسلكها مع بعض الصعوبات. (ابن جريس).

يقع أول أجزائه، من عند علب إلى ظهران عن طريق درب البن[١]، قريباً أكثر من الجانب الشرقي للقلنسوة البازلتية، ويكون الجرف الفعلي وهو منبع كل خطوط الصرف التي تجري شرقاً إلى الصحراء وغرباً إلى البحر. كانت تكسو سماء تهامة سحب منخفضة إلى البعيد ناحية الشمال الغربي مع بداية مسيرتنا. غير أن قمم التلال كانت واضحة، وكان أمامنا منظر رائع للجبال الغربية. لقد سرت راجلاً على الحافة الغربية للقلنسوة البازلتية المكسوة بالحصى، إلى موقع يطل على وادي الحنكة إلى أسفل، وعلى قرية مريسيقة خلف تل بتار عند ملتقى مسيلة مع الحنكة. ومن هذا الموقع أمكننا الحصول على منظر عام، لكل النقاط التي بُنيت عليها الحدود إلى قرب كومة الحجارة الحدودية لحمرة، على العرن الجنوبي لسلسلة طويلة عالية، ذات القمم الأربعة البارزة، التي تقع ناحية الغرب من موقع المشاهدة، والتي يسميها مرشدي: منجد الفرعات. وتوجد إلى ما يلي هذه، سلسلة أخرى، وعدد من سلاسل تغطي كتل كل من ثهران، وفيفا، وزهوان، وينتهي ذيلها ناحية الشمال الغربي في جرف مرتفع شديد الانحدار في وادي ضلع بالقرب من أبها. كان مرشداي قليلي المعرفة بالأسماء، ولم أكن مقتنعاً بتعريفهم للقمم الفردية من هذا الموقع، وكان عليَّ أن أتركها لفحص أكثر دقة في وقت لاحق في جولتي. ارتفعنا الآن إلى قمة قسم والحضار من القلنسوة البازلتية التي من عندها كنت أشاهد منظراً رائعاً للمنحدر الشديد للجرف أسفل إلى الوادي. وكانت الصخور على عمق (٢٠٠) أو (٣٠٠) قدم تحت قلنسوة البازلت من

(١) درب البن:ــ عرف الطريق الذي يصل ظهران الجنوب ببعض الأجزاء في اليمن بهذا الاسم (درب البن)؛ وذلك لأن سلعة البن كانت هي البضاعة الرئيسة التي تصدر من اليمن إلى ظهران الجنوب والحرجة في بلاد قحطان، ثم من هناك تصدر إلى أسواق عديدة في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

صخـر رملي، حيث تمتد إلى (١٠٠٠) قـدم أو أكثر إلى أسـفل والتي يمكن رؤية الشـسث تحتـها إلى مـستـوى الوادي حوالي (٢٠٠٠) قـدم من تحتنا. كـان هذا الشسث هو المادة الرئيـسة التي تكونت منها مـعظم جبال تهـامة، غير أن الحـجر الرملي هنا وهناك يتعارض في شكل سلاسل عالية شديدة الانحدار وعظيمة.

قضينا حوالي ثلاث سـاعات فوق هذه الأميال القليلة لمسيرتـنا نستمتع بالمنظر قبل أن نهـبط آخر الأمر لنلحق بقـافلة الحمير عند أسـفل القلنسوة البازلتـية على الجـانب الشرقي. وحـجبت هـذه السلسلة الرؤيا عنا تمامـاً في اتجاه الغـرب أثناء مسيرتنا، ولم نر بعد ذلك تهامة، إلاَّ بعد وصولنا إلى ممر شراقب بعد أيام قليلة. لقد أصبحنا فـوق طريق البن الذي يخترق هذه البلاد البازلتيـة الصعبة التي تصب كلها تجـاه الشرق عبـر عدد لا يحـصى من المسايل والمضايق الـتي جرّحت سطح الصخـرة الرملي. كان أول هذه هو شعـيب الحضار الذي ينـحدر من عند بازلت الحـضار على يسـارنا وينسـاب إلى أسفل، ليـتصل فـي نهاية الأمـر مع شعـيب الزج[1]، الذي بدوره يتصل مع شـعيب معس وهو رافد لوادي كـتام الذي يجري إلى حبونا. وخرجنا من منطقة مسـتجمع الأمطار لوادي نجران. ثم أوصلنا منحدر صخـري صعب خلال خـمس دقائق إلى أسفل بـطن وادي حضر الصـخرية التي كانت قد احتفظت بالعديد من البرك المائية، ثم تسلقنا بعد عبورنا لهذه المنطقة إلى السـفح المقابل، وهو صـعب أيضاً والذي مـن عند قمـته يواصل طريق القـوافل المشهور اتجاهه إلى أسفل حتى منخفض أم الكوم الضحل، وهو رافد لوادي كتام.

لقد أوصلنا هذا بدوره إلى مـضيق ضيق، تعلّمـه كومة حـجارة، والذي من عنده هبطنا تجاه رأس شعيب حليم قضض، وهو رافد مقاطع لكتام، الذي صعدنا

(١) شعيب الزج:ـ ربما يطلق عليه أيضاً اسم (الدج). (ابن جريس).

من عند جانبه البعيد عبر ممر ضيق تحيط به الصخور يسمى رهوات المسوَّان إلى رأس شعيب أم سرب. هبط طريقنا مع هذا الوادي عبر منظر رائع من جلاميد صخرية رملية ممزقة، إلى ممر سلحات الضيق الذي عنده يشق المسيل طريقاً له عبر الصخور. ويرتفع هذا المسيل في الجوانب المشققة للجزء الشمالي البعيد لقلنسوة الحضار البازلتية التي كانت في هذا الوقت محتفظة بكمية ضخمة من المياه في بركها الصخرية العديدة في غطاء نباتي مزدهر من أشجار القمر وأشجار أخرى، بما في ذلك نسبة معتبرة من أشجار العرعر.

يتصل سرب مع مسيل سبت في مكان ما إلى ما يلي الممر الذي ينحدر من جهة الشمال ثم يتجه ناحية الشرق فوق بطن صخري ضيق يقع بين الجلاميد. ثم ينبعج بعد ذلك إلى أرض واسعة ذات شجيرات في الموقع الذي يتصل فيه مع شعيب القمقم القادم من جهة الشمال، في انحداره نحو وادي كتام، الذي يكون قمقم أحد روافده الواقعة في أقصى الشمال. لقد سلكناه إلى قرب رأسه في مسيل نجد حطب الذي ينبع من الجانب البازلتي لجبل مرعود على مسافة نصف الميل إلى يسارنا. ويقع رأس مسيل قمقم - نجد الحطب المعقد على ارتفاع (٧٦٥٠) قدماً فوق مستوى البحر، ويمكن رؤية المسيل الذي ينطلق إلى أسفل في اتجاه الشمال الغربي من عند الجانب البعيد للقاسم، ويكون الرافد الجنوبي الأقصى لوادي قبضة. ويسمى أيضاً، على أية حال، باسم قمقم ويقوم بحمل الطريق لمسافة نصف ميل إلى أن يدور بعيداً عنه ناحية الشرق. ثم يستمر الطريق الآن فوق الأرض المرتفعة لحلقة من أرض مرتفعة مكسرة تكوّن رأسه، ويدخل فيما يليها إلى رافد آخر لقبضة يسمى حضن الجرذان، ليتبع واديه الصعب، لنرتفع مرة أخرى فيما يليه إلى قطع في رأس وادي العرين، وهو مجرى ظهران.

تفتت السلسلة البازلتية على يسارنا إلى سهل منحدر حجري مائل بدرجة حادة، لا تسمح برؤية جبال تهامة، وممزق بالعديد من خطوط الصرف، مكونة الرأس العريضة لعرين. ويقف أمامنا الآن – قليلاً تجاه الجنوب الغربي – الهرم المسطبي البارز المسمى الرميح، وهو أول القمم الكبيرة للجرف. ويجري مجرى سارة – وهو رافد لعرين – الضحل فوق هذا السهل الميت الذي يقف في مجراه الأعلى برج مراقبة منعزل لقرية قصبه ابن حيان البارزة[1]. مررنا بها بعد فترة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا ونحن نتابع مجرى سارة الذي اتجه تدريجياً شرقاً. ثم عبرنا إلى جانبه الأيسر بعد فترة، أعلى الموقع الذي يدخل فيه مضيقاً عميقاً ضيقاً، ثم صعدنا جانب تل صعب بازلتي عليه قلنسوة صخر رملي. يشق ممر مدر طريقه بالقرب من القمة، عبر القلنسوة وبرز لنا من عند الممر مضيق سارة العميق الذي يقع على بعد (٥٠٠) قدم أسفلنا على اليمين. ولا نستطيع رؤية ظهران نفسها من هذا الموقع، إلا أننا نرى القرى فيما يليها في العرين الأسفل وكذلك العلامات الأرضية المختلفة المألوفة مثل السمة التلية البارزة الآجمعين، وقد كانت قاعدة الحجر الصخري هنا من بوكسيت إلا أن أجزاءها العليا كانت داكنة الحمرة حديدية، وفي بعض الأجزاء تكون سوداء بسبب عوامل الطقس.

قادنا ممر أسفل إلى حيث تتصل ثلاثة مسايل لتكون البداية الفعلية لوادي العرين وهي عين آل عبس، وعرير، وذات ريح على يسارنا الذي يتصل به شعيب سارة من الجانب الأيمن قليلاً إلى أسفل. توقفنا قليلاً فوق هذا الملتقى عند طرف البساتين والحقول لقرية سارة، قبل أن نواصل مسيرتنا خلالها إلى قرية الحصن الجميلة، التي تقوم على قمة حاجز صخري منعزل، عبر الطرف النهائي لمجرى

(١) قرية قصبة ابن حيان:ـ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (آل السحامي). (ابن جريس).

سارة الذي يدخل العرين التي تقع أسفله. عبرنا الآن إلى الجانب الأيسر لوادي العرين لنصل إلى البساتين العليا لظهران نفسها ومنها إلى موقع معسكرنا الجديد بجوار المجرى قليلاً أعلى جانبه الأيمن. وكان التحول الأخير في الطقس قد أملى علينا أنه من الحكمة ألاَّ يقام المعسكر في بطن الوادي كما كانت عادتنا، بسبب احتمال قدوم سيل أثناء الليل.

لقد سررنا بعودتنا إلى البلدة مرة أخرى، بعد عشرة أيام مرهقة في الريف. وكانت الأخبار التي وصلتني عند وصولي سارة بحق. فقد استطاع جميل اليهودي أن يعيد النابض التانجستي مزولتي للعمل وقد ظللت أنتظر قدوم الليل لأختبر الأداة التي تم إصلاحها ولاختبار الملاحظات الفعلية. برهنت هذه الاختبارات أن العملية كانت ناجحة بحق، كما يشهد بذلك الموقع المسجل الآن لظهران - والعديد من الأماكن التي تمت زيارتها بعد هذا التاريخ - وأشعر أن علم الجغرافيا مدين بالكثير لجميل وأن هذا الشكر يجب أن يدخل في السجل العام. توقفت ملاحظاتي للنجوم بعد أسابيع بسبب تلف بطاريات الراديو. إلاَّ أنه قبل ذلك الوقت، أمكنني إدخال نقاط مهمة إلى الخريطة. اكتسب جميل شكري أيضاً لإصلاحه مفصل نظارتي. لم نتأخر كثيراً في ظهران إلاَّ أنني قد سعدت بليلتين في أمنها النسبي، وذلك لأنني لا أزال أحس بالتعب وغير مرتاح بمعنى الكلمة، وقد برزت بثرة ذات حجم ضخم في الأصبع الأوسط لإحدى يدي. تمكنت من الوصول إلى مخزوني الشحيح للأدوية الذي أمكنني أن أحاول تأثيرات دواء ستانوكسيل الذي شفاني منذ عدة سنوات في جدة من عدة بثرات في سرعة مذهلة

غير أن الدواء قد خذلني الآن، وبقية مراحل علاجي قد تركتها للوقت وللصدفة[١].

نحن الآن في منتصف رمضان ولم أشرب قطرة ماء واحدة منذ بدايته. لقد حافظت على صحتي حتى الآن، إلاَّ من هذه البثور الحديثة والتقرحات وكلاهما يعزى إلى تأثير الهرش، والكدمات، والصقيع ووعثاء السفر، ولا أزال أعتقد أن تحاشي الماء هو سر نجاح رمضان، بينما العديد من الصائمين يعرضون أنفسهم للمرض مع جرعات كبيرة للماء فوق معدة خاوية عند افطارهم في نهاية اليوم مع غروب الشمس. أعتقد أن الشاي والتبغ هما المكونات المثالية لإفطار رمضان[٢]، مع الفاكهة إن وجدت. دعانا محمد بن بريكان لتناول طعام الإفطار والعشاء معه في هذه المناسبة وقد أمدنا بالعنب للإفطار، وبلحوم الضأن والأرز للعشاء. لقد حضر لسماع الراديو جمهور غفير بما في ذلك جميل اليهودي ومعه ابنه وحفيده. وقد أدرت مؤشر الراديو لمصلحتهم، لإذاعة الأخبار العبرية من القدس، لأكتشف -كما في نجران- أنهم قد استوعبوا ما قيل على أساس أنه لهجة اشكانزية ولم يجدوا صعوبة في استيعاب الأخبار العربية التي اشتملت هذا المساء على تقرير طويل لمناشط اللجنة الملكية في فلسطين، وأخبار الحرب في إسبانيا دون إكثار الحديث عن تدمير القصر البللوري بواسطة النيران.

---

(١) إذا أصيب الإنسان بمرض فإن الشافي هو الله عز وجل، وليست الصدفة، كما يذكر فيلبي، هي التي تتسبب في الشفاء من العلل والأمراض. (ابن جريس).

(٢) قول فيلبي: «إن الشاي والتبغ هما المكونات المثالية لإفطار رمضان»، هذه وجهة نظره؛ لأنه من الميالين إلى هذا الصنف من الطعام والشراب، مع أنها وجهة نظر غير سليمة من الناحية الطبية وكذلك من الناحية الدينية الشرعية. (ابن جريس).

كنت سعيداً بهذه الزيارة الثانية لظهران لأقيِّم حالتها العامة بالنسبة لمناخها الجغرافي والجيولوجي التي تحسنت معرفتنا له. يقع الجزء الرئيس المأهول للوادي، وكذلك البلدة، داخل حوض واسع تحيط به تلال بركانية أو ناريه عدا ناحية الغرب والجنوب الغربي حيث يكون شريط من هضبات منها جيث، وجفجفان، وقردة، والحمرة، وسلسلة، تواصل الأخيرة تجاه الشمال، الحدود الخارجية لقلنسوة الحجر الرملي التي تعلو قاعدة الحجر الناري للأرض المرتفعة وهو نفسه يقع أسفل قلنسوة بازلتية على الجرف على امتداد طرفه الغربي. ويبدو أن طبقة المغر أو البوكسيت تقع وسطا بين الحجر الصخري والحجر الناري. يتكون حوض ظهران - الذي يبلغ قطره ثلاثة أميال - من تلال جرانيتية متدحرجة بينما تقع على الشاطئ الأيمن في مواجهة البلدة، مساحة معتبرة عليها كتل صخرية سوداء مبعثرة، ربما بازلتية أو شستية.

تقف شجرتان من الطرفاء بين هذه وبالقرب من مجرى الوادي على أرض مرتفعة وتقع بقربهما جلاميد جرانيتية مستديرة في حلقتين تامتين، يتراوح قطرهما بين (١,٥) قدم و(٢) قدم. تقول الروايات المحلية أن هذه الجلاميد قد تم وضعها بهذه الطريقة حول شجرة طرفاء حديثة الغرس في مركز الدائرة الداخلية لحمايتها من الرعي بواسطة الجمال! مهما كان الأمر، فإن شجرة الطرفاء قد ماتت بسبب حادث لم يسجل، وفي رأيي أن الشجرتين العائشتين الكاملتي النمو وإن الدائرتين المزدوجتين من صخور جلاميد، كان الغرض الأساسي منها كلها هو مغزى ديني أو احتفالي، ويمكن أن تكون الدوائر ضريحاً لرجل دين أو رئيس محلي، وأن تكون الأشجار (أو ما سبقها) أشياء للعبادة الوثنية التي نعرف أنها استمرت إلى عصر الإسلام في العديد من أجزاء الجزيرة العربية مثل: وادي حنيفة.

تحيط بظهران روايات محلية تعود إلى عصر بني هلال، هذه القبيلة التي يعزى إليها أمر البئر الذي يوجد داخل المسجد والبئر الآخر الذي يوجد بالقرب من مجرى السيل شرق البلدة[١]. ويسمى البئر الأخير هذا باسم بئر أم سبع -أو بصفة عامة بئر الجن-، ويقال إنه مسكون بأرواح شريرة- قيل لي إن الكاهن الذي كان يتنبأ بموقع الماء والذي حضر إلى هذا الموقع أثناء عمله، قد هرب منه هلعاً لسبب لم يفصح عنه[٢]. لم تؤثر هذه الموانع على شخص أبله اسمه حسين بن محسن، الذي تطوع أن يصحبني إلى الموقع مقابل ريال واحد، والذي قال إنه لا مانع لديه أن يتم تصويره وهو يجلس «فوق الجن»، كان البئر معطلاً لمدة طويلة، وقد تساقط بناؤه الفوقي إلى الداخل الذي يبلغ عمقه الآن حوالي عشرة أقدام بسبب الركام والحجارة التي سقطت فيه، فأصبح داخل البئر كأنه سطح تربة وقد نمت عليها أشجار بالميتو من البذرة.

ويقال إن المسجد قد تم بناؤه في الأيام القديمة لسعود الأول[٣] حين امتد النفوذ السعودي بعيداً إلى داخل اليمن. كان البناء صغيراً ولكنه كان مميزاً، ولقد زخرفت جدرانه بالجبس، وقد فصل جزء منه ليكون مكاناً للوضوء، الذي يصله الماء عن طريق جداول من البئر الذي يغطس صهريجه إلى عمق ثمان قامات عبر

(١) من يشاهد بعض الآبار في ظهران الجنوب، أو في أجزاء عديدة من بلاد السروات يجدها نُقبت في أرض صلبة، وأحياناً في الصخر لعشرات الأمتار. وهذا يدل على قوة وصلابة من قام بهذه الأعمال الجبارة، التي يجد الناس اليوم صعوبة في عمل مثلها مع توفر العديد من آلات الحفر العملاقة. (ابن جريس).

(٢) الجهل بالدين يوقع الناس في أخطاء عقدية مثل التبرك ببعض الأوثان، وشركيات أخرى يصعب حصرها في هذا المقام. ومثل هذه الممارسات كانت منتشرة في معظم أجزاء الجزيرة العربية حتى ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويؤازره الإمام محمد بن سعود فعملا على محاربة هذه البدع حتى تم القضاء عليها، وهكذا حتى جاء الملك عبدالعزيز آل سعود فسار على نهجهم حتى عم صفاء العقيدة عموم البلاد. (ابن جريس).

(٣) سعود الأول: المقصود به الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (ابن جريس).

صخور طبيعية إلى ماء مستديم عـمقه ثمان قامات. لم تكن للمسجد مئذنة أو أية ضرب من الـزينة، بينما ظل مكان الصـلاة مغلقـاً بصفـة دائمة، غيـر أن هنالك مسطبة مكشوفة أمامها، مجهزة للزوار لأجل العبادة.

تصنف تجارة البن في ظهران إلى مجموعتين مـتجهتين إلى الحجاز وإلى نجد، وكلاهما يمر ببيشه. يذهب الممـثلون التجاريون من ظهران إلى اليمن، لشراء المواد وإحضارها مـعهم إلى هنا عبر الضـرائب والجمارك بنسبة (٢٠٠) حـمل (حمولة الجمل) في كل شهر، وكل حمل يعـادل (٧٢) مداً أو حوالي (٥٥٤) كيلوجراماً. انخـفض سعـر الحمـل هذه الأيام إلى (٦٠) ريالاً ماريا تريـزا، غيـر أن التقـدير الضرائبي الرسـمي كان (١٤٥) ريال ماريـا تريزا، والتقدير الجـمركي كان بنسـبة (٢٠٪) وتقديره (٢٩) ريالاً ماريا تريزا إلى جانب رسـوم مصاريف تقدر بثلاثة ريالات ماريا تريزا لشـهادة التخريجيـة التي تثبت أن الرسوم قد تم دفـعها. يدفع المورد على هذا الأسـاس، لما اشتـراه بسـعر (٦٠) ريالاً مـاريا تريزا، (٣٢) ريالاً أخـرى مقـابل الضرائب ويضـاف إلى ذلك تكلفـة النقل بالجـمال قـبل أن تصل البضـاعة إلى بائع القطاعي الذي يعـرضها للمـستهلك. إن تقـدير الحكومة لمبلغ (١٤٥) ريالاً ماريا تريزا للحمل الواحد كان معـادلاً لسعر التجزئة (القطاعي) للبن في مكة. ويبلغ الدخل الشـهري لظهران من البن فـقط حوالي (٦٠٠٠-٧٠٠٠) ريال ماريا تريزا في المتوسط.

قمنا برفع المعسكر في الثاني من ديسمـبر لنواصل تجوالنا، وبدأنا بالسير فوق وادي العرين في اتجـاه الشرق فوق ربوات مـتموجة فـي لطف إلى تل جيث الذي يقع على بعد يقل عن الميلين وإلى يمين مـوقعنا. ثم عبرنا الوادي فـوق قرية هياج الصغيـرة التي تقع عند منحنى عريض للوادي، ثم عبرناه مـرة أخرى إلى الجانب الأيمن قليلاً أعلى من آل حـيدان حيث توجد مـساحات معـتبرة، كمـا كان الحال

حول دار العرق للذرة الصفراء والبساتين مع كثافة لنمو شجيرات الأثل في المجرى نفسه. دخلنا المجرى مرة أخرى أسفل دار العرق، وتتبعناه أولاً عبر ممر من صخور جرانيتية وبازلتية، وفيما يلي هذه، عبر حقول مبطنة بالحجارة، وشارع على جانبيه أشجار الأثل والطرفاء التي يخترقها بطن السيل الرملي الذي يبلغ عرضه (٥٠) ياردة. ووصلنا بعد مسيرة متقطعة استغرقت نصف ساعة من عند دار العرق، إلى موقع التقاء كل من وادي القبضة ووادي كتام مع وادي العرين في مساحة رملية عريضة في وسط غابة حقيقية من أثل وطرفاء. لقد تحدد موقع دخول وادي القبضة، بوجود شريط طويل من المياه تعلوه طبقة نبات أخضر لزج، والذي يبعد بحوالي (١٠٠) ياردة فوق فم كتام، الذي وقفت في مجراه على ارتفاع (٣٠٠) قدم قرية الشحاك الصغيرة.

وصلنا على هذا الملتقى بعد دقائق قليلة لأول حقول المجزعة، والذي كانت أولى قراه تسمى العطفة، تقف قليلاً إلى الخلف على الجانب الأيمن، ثم توقفنا قليلاً قبل المعزاب على الجانب المقابل، عند الموقع الذي ينحدر فيه بطن الوادي إلى حوالي (٢٠) قدماً من فوق سد جيد البناء من مواد بازلتية. وتوجد عند قاعدة السد بركة من مياه تعلوها طبقة نبات لزجة خضراء، تكاد تكون مياهها راكدة، مع سيلان خفيف يخرج من عند نهايتها السفلى متجهاً ناحية قرية الثغر التي تبعد قليلاً مع اتجاه الوادي على الجانب الأيسر. كانت المياه المملوءة بكائنات دقيقة تشبه سمك المنوة، وبعضها ذو حجم كبير، وكان يقفز باستمرار ناحية الذباب الصغير المحلّق فوق السطح، بينما طارت من سطح الماء أعداد كبيرة من طيور الماء وذلك حين قدومنا، من بينها البط وأبو مطرقة ومختلف أصناف طائر المخوض إلى جانب هذه يوجد أيضاً الحمام والقنابر المتوّجة وطيور أخرى مائية. لقد كان بطن الوادي

أسفل السد، من صخر أزرق مكشوف، أصبح ناعماً بفعل حركة المياه ومبطناً هنا وهناك بطبقات من الرمل والعشب الأخضر والقصب -وكان منظراً طبيعياً مريحاً على خلفية من أشجار تين عارية ومبانٍ بسيطة. عدنا مرة أخرى إلى طريق الفيل، من عند الثغر، الذي تقع أسفله آخر قرى المجزعة وهما سند ومخلبة على بعد (٤٠٠) أو (٥٠٠) ياردة مع اتجاه أسفل الوادي، الذي يقبل ماراً بتل المصلولة على بعد ميل واحد تجاه الجنوب الشرقي، ثم يعبر في هذا الموقع وادي العرين في مسيرته إلى الشمال. ويجري الوادي نفسه من هنا إلى قرية القرن ثم إلى وادي الخانق ومنه إلى حبونا. ويختفي سيلان الماء في مقابل مخلبة، وبعد ذلك يستمر الوادي وهو جاف تماماً إلى الأمام.

لقد سلكنا الآن درب الفيل فوق الخطوط الصرفية الضحلة التي كونتها الخطوط الكفافية للأرض الحجرية التي كانت تنمو فيها شجيرة الشرفث في غزارة. لقد هبطنا من أعلى الهضبات - وبالمناسبة فإن المجزعة تقع على مسافة (١٥٠) قدماً أسفل ظهران- إلى بطن شعيب قاوية - أحد روافد العرين - وامتطينا ظهور الدواب إلى أعلى بطن الوادي الحجري، الذي توجد فيه أشجار العبال منتشرة هنا وهناك. لقد كونت أشجار العبال هذه وأشجار الطلح منظراً ساحراً للغابة وعلى امتدادها وقد كانت حرارة الشمس عالية، مسلطة على ظهورنا ونحن نقود دوابنا عند الظهر. لقد استخدمت سيارات الأمير سعود هذا الطريق ولا تزال آثارها مشاهدة في الأجزاء الصلبة من الوادي. يتصل مجرى حضه العريض على بعد، مع قاوية من عند رأسه في سلسلة تبعد حوالي (٢) ميلين ناحية الشمال، وقد كنا قد تأخرنا بضع دقائق بسبب محاولاتي الفاشلة للإمساك بفراشة كبيرة من جنس البابليو. ثم يضيق الوادي تدريجياً مما يلي موقع دخول مصرف ضحل يسمى ركايه

إلى جهة اليسار من موقعنا، لقد تباينت رتابة المنظر الكئيب الذي يقع أمامنا بتخلل قطيع كبير لأغنام بيضاء وماعز أسود متجهة إلى موطنها في دار العرق تحت حراسة فتاة واحدة، كاشفة الرأس ومتأنقة في عباءة جديدة مصبوغة بالنيلة الداكنة[١].

يمر طريق الفيل فوق قناة مبنية تصل دخول مسيل ثانوي، قبل وصولنا إلى رأس قاوية. كان ارتفاع المضيق فوق قمة قوية حوالي (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر، بينما هبطنا من الجانب الآخر إلى شعيب بيح، وهو حوض عار وضحل في الأرض الحجرية التي تحيط به والتي يشق طريقه عبرها، خلال ممر شستي ضيق مملوء بقصب الحلفاء والنمص. ويقع الثغب المائي الذي يسمى مضره والذي ثبتت أهميته لموقعه الاستراتيجي بجانب الطريق بكثرة النقوش قديمها وحديثها، على سطوح جدرانه الشستيه الشبيهة بالألواح.

لقد تآكلت النقوش والرسوم القديمة الثمودية بفعل عوامل التعرية وكانت أهمية النقوش العربية الكوفية متدنية. ينبع الماء من العين ويصل إلى العديد من البرك التي تقع بالقرب من رأس هذا الممر ويكون فيضها سطوحاً مائية يكسوها نبات لزج، وتجري لمسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة قبل أن تدخل مرة أخرى إلى أسفل السطح الحصوي للمجرى، وذلك أثناء اتساعه خارج الممر. قابلتنا مجموعة من الناس، بعد أن واصلنا مسيرتنا، وهم عائدون إلى المجزعة من عند سوق الأربعاء في طلحة. لقد تركنا طريق الفيل يأخذ اتجاهه شمالاً، تقريباً بعد خروجنا من الممر الصخري، وواصلنا سيرنا فوق مجري بيح الثعباني إلى حيث مزارع التين

(١) مادة النيلة: تعد من أصباغ الملابس الأساسية عند سكان جنوبي الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، بالإضافة إلى أصباغ أخرى كانت تستخلص من بعض النباتات والأشجار المحلية في هذه البلاد. (ابن جريس).

والأثل في شعبة، وإلى ما يليها توجد قرية طرف الذراع التي تسيطر على رأس مضيق الضيقة الكئيب. لقد كانت مستوطنة صغيرة، غير منظمة، وغير مؤثرة ذات حقول واسعة وبساتين، وكانت تنمو فيها نسبة غير عادية من أشجار الخوخ، ولقد رأيت في الصباح الباكر، بالمناسبة، شجرة خوخ مزهرة في المجزعة. وتحتوي قرية طرف الذراع على حوالي (٥٠) إلى (٦٠) منزلاً إلى جانب مبان برجية مبعثرة بين الحقول والبساتين. وتسمى الأرض التي تقف عليها «الغيل»، برغم أنني لم أر أثراً لمياه جارية في الأجزاء السفلى من المجاري المختلفة التي تلتقي عند رأس مضيق الضيقة. كان هنالك إلى جانب بيح، كل من عار والدارة والقحيف والحمرة.

استغرق وصولنا إلى أبراج مزارع المهجري وإلى ما يليها حوالي نصف الساعة، مارين باستمرار خلال الحقول أو البساتين، ثم وصلنا إلى مزرعة الأثل في الطلحة، وفيما يليها من الأقسام المختلفة لقرية الطلحة نفسها، حيث وجدنا ميدان السوق وقد ازدحم بالناس وهم يتحدثون حول تجارة اليوم وينتظرون غروب الشمس ليوم صيام مرهق آخر. واصلنا سيرنا لنصل إلى موقع معسكرنا على الطرف البعيد لحقول الطلحة فوق الرمل الأحمر لوادي الأفياض، وعلى الجانب المحجوب من الرياح سور من أشجار التين العارية. بدأنا مسيرة اليوم التالي بعد تأخير قليل بسبب ملاحقة طيور الحجل، والتي أفرزت الحصول على زوج منه، وفي أعلى فرجه أفياض، دخلنا عند نهايتها العليا، ثم تسلقنا وادي طلح الكثيف الشجر وهو غابة حقيقية من أشجار الطلح وكان العديد من الضأن يرعى في ظلها الوافر الشائك. كما كان صقر الطلحة، إلى البعيد في السماء، من أمامنا، يحلق في عظمة باحثاً عن فريسة، حينما انطلق سرب من طائر الغداف الصحراوي، مهاجماً في شجاعة الصقر الأعظم ومن كل الجهات حتى هرب الصقر عاجزاً وقد

لاحقه غداف واحد ليودعه. ولقد كان لونه، حسب ما استطعت رؤيته أنه أسود البطن، ومبيضاً مع بعض العلامات البنية على الظهر.

كنا مرة أخرى على درب الفيل من عند الطلحة وما علاها، ولا تزال آثار سيارات الأمير سعود واضحة عليه. ثم ينقسم الوادي قليلاً إلى الأمام ليحتضن تلاً يقع في وسطه، ثم يضيق من خلفه التل إلى حوالي (٥٠٠) ياردة بين سفحين أملسين من شست أسود يكسوه عشب جاف في كثافة. ثم يضيق الوادي مرة أخرى إلى (١٠٠) ياردة بين جلاميد عالية شديدة الانحدار، وهو يتعرج ويتلوى وقد نمت عليه أشجار الطلاح بكثافة، وقد قادتنا علامة المياه المألوفة المسجلة على جدار الصخرة إلى الثقب المائي المسمى غمر الطلاح الذي يقع في البطن الرملي للمجرى. لقد كان فم الصهريج مبنياً من الخشب ومن قطع الحجارة وإلى عمق (٣) أو (٤) أقدام غير أنه لا يحتوي على الماء إلاَّ بعد السيول. كما يوجد ثقبان مائيان مماثلان في هذا الجانب من المجري كان أحدهما عديم الماء في هذا الوقت، بينما احتوى الآخر على قليل من المياه. كما كان على أسطح الصخور بالقرب من هذين الموقعين للمياه عدد من النقوش الثمودية، وهذا يبرهن على أنها مواقع كانت معروفة لدى الأقدمين. وقد آوت الصخور عدداً من الأرانب البرية، بينما نما مزدهراً في بطن المجرى نبات القر الشبيه بالدفلي، الذي يحتوي على سائل لبني.

استمر المضيق في تخصره أكثر ونحن نصعده، وقد وصل عرضه في بعض المناطق إلى (٣٠) ياردة وكانت على جانبيه صخور شديدة الانحدار ذات لون أسود مزرق ولربما كانت من الشست. وأقبل من جهة اليسار رافدان هما محدثي والقرارة وفيما يلي موقع تدفق الثاني منهما يوجد ثقب مائي آخر جاف من هذه الثقوب المائية ويستخدم مصطلح غمر لمثل هذه الظاهرة. بدأ المجرى ينفتح قليلاً

في هذا الموقع وذلك لاندماج الصخور على الجانبين مع سفح يرتفع إلى (١٥٠) أو (٢٠٠) قدم الذي صعدناه تدريجياً إلى هضبة يصل مستوى ارتفاعه إلى (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر. ويتصل في هذا الموقع مجريان هما شعيب الحسرج من ناحية الغرب، وشعيب المختلف من ناحية الشمال الغربي ليكونا معاً رأس وادي الطلاح في أرض قليلة التموج واسعة، من فلسبار أحمر، منتشر فوق صخور وجلاميد فوق أرضية من مادة مماثلة يجري تحتها الشست التابع للوادي الذي نسير عليه. كان خط التماس من الاثنين مستقيماً جداً ومحدداً، ويبدو أن الشست التحتي والفلسبار كانا على شكل عمودي.

واصلنا مسيرتنا أعلى مجرى المختلف عبر أرض كثيفة الأشجار. عليها العديد من أشجار الطلح. كان المنظر مماثلاً للمناطق التي تحيط بالطائف[١]، غير أن طريقنا ابتعد بعد فترة عن المجرى الضحل الذي يواصل سيره شمالاً إلى رأسه في مجموعة من التلال (فلسبار أو جرانيت) على بعد ثلاثة أميال. ثم اتجه طريقنا ناحية الشمال الغربي، ناحية درب الفيل بتتبع المختلف، فوق أرضية الهضبة الفلسبارية والتي بدأ ينتشر فوقها البازلت ونحن نقترب من سلسلة بركانية تقع أمامنا تتكون من قعم مرخ والعود وهومين سوداوين صغيرين بلا اسم، لقد أبرزت هذه السلسلة من الوحدات البركانية بوضوح ليس فقط القلنسوة العليا البازلتية التي يبلغ سمكها (١٠٠) إلى (١٥٠) قدماً بل أيضاً طبقة الصخر التحتي (مغر) أو

(١) فيلبي يذكر الغطاء النباتي الجميل الذي يغطي مناطق ظهران الجنوب وبلاد قحطان وأبها وما حولها. ثم يشبهها ببلاد الطائف وما حولها من حيث وفرة الغابات وما يوجد بها من أشجار متنوعة، مع العلم أنه لو سار عبر البلاد السروية الممتدة من أبها إلى الطائف لوجد العديد من الديار الجميلة التي حباها الله الجمال، ولما فيها من غابات كثيفة وطيور وحيوانات متعددة الألوان والأحجام. (ابن جريس).

البكسيت، الذي يبلغ عمقه (٢٠٠) إلى (٣٠٠) قدم والذي يعتقد أنه يعلو الجرانيت الذي بدوره يغطي الشست. ويبدو أن الطبقة العليا من المغر تجري في خط مستقيم من حولنا ونحن نقترب من الدائرة. وقد أمكننا رؤية رأس ممر شراقب من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي، والذي هبطنا من عنده عند آل عيفة إلى مجرى الحمرة، ويقع بينهما الحاجز الرئيس وهو السلسلة البركانية المسماة قعمة الحمرة التي تلتف لتقابل كلاً من العود والمرخ وقد ورد ذكرهما. لقد كونت هذه – بعد مسافة في نهاية مسيرتنا – الجانب من طريقنا الذي يتجه الآن ناحية الغرب ولمسافة تزيد عن الميل الواحد ناحية الشمال، وسرعان ما عبرنا مجرى ذات العكي وهو ينحدر من سفوح المرخ ليتصل مع الحسرج الذي يقع بعيداً على يسارنا.

تفرقت حميرنا بعد هذا التقدم لقافلتنا بانزعاج وانتشرت فوق المكان وهي ترفس وترتج وكأنما أصابها الجنون، وذلك بسبب ذبابة واحدة. لقد كانت ذبابة لاسعة، فقد لسعت ثلاثة من الحمير أسفل الذيل، الواحد بعد الآخر وكانت النتيجة كما قد وصفت. كان علينا أن نتوقف، بينما أعد ابن داهش هجوماً مضاداً على العدو الذي انسحب آخر الأمر تاركاً الميدان تحت سيطرتنا التامة. ثم واصلنا مسيرتنا مارين بقطيع ضخم من الضأن يمتلكه آل غازي من سنحان، والذين يملكون بلاد الحمرة من عند الشريط الذي تم وصفه بالتفصيل في فصل سابق[1].

بدأنا دخول الفجوة عبر السلاسل البركانية الخارجية التي يكونها وادي الهجلة الذي ينحدر من الجانب الجنوبي لكتلة قعمة القلح ليدخل في نهاية الأمر إلى الحسرج. لقد كان عرض الفجوة في هذا الموقع حوالي ميل واحد أو أكثر قليلاً، ويقع مجرى الهجلة إلى يسارنا على بعد (٥٠٠) ياردة كما تقع سلسلة العود على يميننا إلى ضعف هذه المسافة، ثم يضيق الوادي سريعاً إلى حدود (٥٠٠) ياردة، وتقع الهجلة في وسطه قريباً من طريقنا، ولقد ضاق الوادي بعد نصف ميل إلى (٥٠) ياردة فقط، وقد ظهرت كتل البازلت على جانبيه بارتفاع (٤٠٠) قدم.

(١) الحمرة: أرض واسعة يشترك في امتلاكها عدة عشائر من الحباب، وآل الطلحة، وسنحان. (ابن جريس).

صار السفر الآن صعباً جداً على ضفة الوادي اليسرى وكان علينا أن نهبط إلى بطن الوادي الذي بدأ يتعرج بين الجدران التي ارتفعت إلى (١٠٠) قدم وكانت من جرانيت تعلوه ركام حجارة. واستدرنا الآن في اتجاه عام إلى شمال الشمال الغربي ووصلنا إلى رأسي الهجلة، جاء الرأس الذي على اليمين من عند قعمة القلح، بينما هبط الثاني الذي سلكناه من عند الأرض الصعبة التي تفصله عن الجانب الأيمن لوادي راحة[1]. كان علينا أن نصعد خارج المجرى، لندور حول حاجز صخري يكون سداً عبر المجرى الضيق، وذلك بتسلقنا لممر منحدر صعب.

ولندخل مرة أخرى إلى الوادي فيما يلي هذا العائق. كان بطن المجرى في هذا الموقع من صخور جرانيتية تعلوها طبقة رمل خفيفة وكسور بازلتية. ثم وصلنا سريعاً إلى شريط من برك صخرية في منخفضات أرضية الوادي، مع حركة خفيفة لسيلان الماء بها تصل بينها كأنها جدول، وذلك بلا شك بسبب الأمطار الأخيرة التي لم تصرف مياهها كلها بعد. لقد قررنا أن نتوقف هنا للراحة بعض الوقت ولتخفيف شدة حرارة الظهيرة.

انقسم المجرى مرة أخرى فيما يلي هذه البرك إلى رأسين، وقد تتبعنا الفرع الأيسر الذي يقود غرباً عبر مساحة معتبرة من نبات الحلفاء وغطاء نباتي آخر، والذي في وسطه وصلنا إلى بئر آخر مؤقت، أو هو ثقب مائي يعتمد على الأمطار الأخيرة لتغذيته. ثم صعدنا مرة أخرى إلى البازلت، الذي يعلو الجرانيت عند ارتفاع يصل إلى (٧٦٠٠) قدم في أرض مضطربة، تكون الكتوف لقعمة القلح تجاه وادي راحة. وتشبه مستنقعاً ضخماً تصرف مياهه بمجاري عديدة إلى الهجلة. كانت قمة هذه الأرض حوالي (١٠٠) قدم فوق البئر في مضيق يفصل بين الكتف وبين الكتلة الرئيسة، والذي من عنده هبطنا الآن تجاه وادي راحة في اتجاه غربي.

واصلنا هبوطنا على الجانب الآخر، بعد أن مررنا برأس الحوض المنخفض المليء بالشجيرات، الذي يبلغ عرضه (١٠٠) ياردة ويسمى حلة مسعود وبه كل

(١) كلمة (راحة) وردت كثيراً في الصفحات السابقة، وسوف ترد معنا أيضاً في صفحات لاحقة، والمقصود بها (راحة سنحان). (ابن جريس).

من قرية آل مسعود الصغيرة[١] تجاه أسفل الوادي من عند موقعنا وآل مجلم عند ملتقاه مع راحة تاركين قرية آل مسعود على مسافة (٣٠٠) ياردة إلى يسارنا قرية آل الخرج إلى البعيد على الجانب نفسه. ثم خرجنا من الحوض إلى مضيق هبطنا من عنده تجاه الشمال فوق أرض صعبة من جرانيت أسود ثم عبرنا مصرف مسيل القعمة الذي ينحدر من سفوح قعمة القلح إلى قرية آل مفرح عند التقائه مع راحة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا. أمكننا رؤية قرى أخرى صغيرة تقع على ضفة وادي راحة، والتي نراها لأول مرة إلى أسفل من آل مفرح وهي: آل طراد، وآل صالح بن راقع، وآل الزين، بهذا الترتيب إلى أسفل. لقد تضمنت هذه البلاد الكثير من السفر الصعب، الذي أوصلنا إلى القرية المزدوجة آل وازع في شعيب بالاسم نفسه يهبط من عند قعمة القلح. كان شعيب العطف مصرفاً مماثلاً من المنبع نفسه، مع أبنية برجية أكثر للقرية نفسها، ومن ثم دخلنا إلى ما يليها إلى حوض صرف شعيب آل بحير وهو وادٍ كثيف الأشجار وبه مجموعتان من القلاع وعدة أبراج منعزلة تابعة لقرية بالاسم نفسه تقع في وسطه، وتحيط بها حقول واسعة، كان بعضها قد ترك بغير زراعة وبعضها قد تم حرقه للبذر التالي.

انتهينا الآن من محن هذه البلاد الصعبة العدائية وسنتجه سريعاً إلى أبراج الحوط التي وصلناها خلال نصف ساعة قبل الغروب. لنعسكر في بطن راحة الرملي بجوار مزارع التين بالقرية. اعترض مجرى السيل عدد من السدود من الرمل ومن الأغصان الخفيفة إلى داخل الحقول والبساتين على جانبي الوادي. لقد عدنا الآن إلى الموقع الذي مررنا به قبل (١٧) يوماً في رحلتنا جنوباً من الحرجة، وكان مما يسرنا أن نعيد علاقتنا مع دليم بن دليم[٢] الذي جاء إلى هنا لمقابلتنا ومعه ابنه الشاب الجذاب، الذي يتحدث عنه الناس لحبه للرياضة. ومعه بندقية عيار (١٢) ليس معه ذخيرتها. كان دليم من الرجال الذين لا يرتشون بالنقود غير أنه سر كثيراً بإعطائي له (٥٠) خرطوشاً لابنه. لقد أعد لنا عشاءً فاخراً، وقد قام

(١) قرية آل سعود الصغيرة يطلق عليها أيضاً اسم (القرية). (ابن جريس).

(٢) دليم بن دليم:ــ هو دليم بن محمد بن دليم شيخ مشائخ شمل قحطان ووادعة. (ابن جريس).

بجهد كبير لترتيب استمرارية جولاتي في تهامة حيث امتد نفوذه ومسؤولياته حتى قرية الحقو[١]. كانت حدوده الشمالية عند ضبة بالقرب من أبها، بينما تزاملت مسؤولياته مع مسؤوليات حاكم نجران ناحية الشرق، عبر قرن سبط، الخانق - حتى شرق القرن - وهضاض على الحدود اليمنية. لقد حضر هو وابنه وبعض أتباعه بعد العشاء لسماع الأخبار والموسيقى من الراديو، والتي كانت هذا المساء، إلى جانب أخبار حرب مدريد، فإن الموضوع الرئيس الذي كان يناقش هو الصدع الذي حدث بين الملك إدوارد وحكومته وأدى خلال أيام قليلة إلى تنازله عن العرش. كان دليم محتاراً حول القيود التي يستسلم عندها ملوكنا والأهمية التي نضعها على مشاكل الزواج التي تواجه العظماء.

كانت هنالك لمسة صقيع خلال الليل إذ بلغت درجة الحرارة (٣١) درجة فهرنهايت وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الحرجة في اتجاه طقوس جنوبية، ولم ندفأ إلاَّ عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي لكي نبدأ التحرك من جديد لتنفيذ المسيرة القصيرة المخططة ذلك اليوم إلى ممر شراقب، حيث سنقضي الليلة التالية قبل نزولنا إلى تهامة. لقد اخترقنا سهلاً رملياً بعد عبورنا مجرى راحة وكانت عليه وعلى فترات مجموعات من القبور تكون مقبرة حوط، ناحية شريط أبيض لصخور مغر التي تقف أمام السلسلة البازلتية للجرف، والتي تحجب عنا في الوقت الحاضر وادي حبيت، ثم وصلنا إلى مضيق ضيق، بعد أن مررنا عبر هذا الشريط الملون جداره بالأحمر والأبيض والمكشوف في مسيل ضحل، ومن هذا المضيق هبطنا إلى وادي حبيت العريض بالقرب من قرية القعمة الصغيرة[٢]، التي تقع عند الطرف الغربي لمستوطنة آل عبدالله.

ثم وصلنا أثناء استمرارنا غرباً إلى قرية الصمعة وأحواضها ذات الجدران الحجرية، أما منازلها فقد بني جزء منها من الحجر والجزء الآخر من طين المغر

(١) قرية الحقو: من القرى الواقعة في السهول التهامية، وقد يطلق عليها أيضاً (حقو ماغص)، وتتبع لإمارة منطقة جازان. (ابن جريس).

(٢) قرية القعمة الصغيرة: تحتوي على قريتي آل يصبا وآل عاطف، ويطلق عليهما اسم (قرية القعمة الصغيرة). (ابن جريس).

الوردي، مع مدرجات من شست شبية بالألواح على طراز أبها[١]. كان عرض الوادي من كتلة جوعان وناحية الشمال، وجبل سعدي ناحية الجنوب، حوالي ميل واحد، ويجري البطن الصخري لوادي حبيت في مجرى عميق يصل عرضه إلى (٢٠٠) ياردة عند منتصفه. كما كان هنالك أشجار طلح مزدهرة على كلا الجانبين، مع كتل من الهدال وهو نبات طفيلي ينمو فوق قممها. كان المكان مملوءاً بطائر الحجل، غير أنني كنت سعيداً أكثر برؤية زوج من طائر نقار الخشب وقد أمكنني إصابته وإضافته إلى حقيبة العينات خلال مطاردة استمرت ربع ساعة. ثم يضيق الوادي في الأعلى إلى حجم المسيل بين جدران بازلتية عالية وذلك أثناء دخولنا إلى طرف الجرف النهائي الحاجز بجوار ثقب مائي يسمى صعدة حيث الماء الدائم.

صار الطريق صعبًا جدًا، وقد سرت على رجلي معظم الوقت على الجانب الأيسر للمجرى، الذي أوصلنا إلى برك لكه في حوضه الضيق الحصوي في وسط نباتات عطرية مزهرة. ويقع فيما يلي هذه الرأس الفعلي لوادي حبيت، الذي يتكون من التقاء مسيلين هما شعيب ضفرة الذي يقبل من عند القلنسوة البازلتية ناحية شمال الشمال الغربي، وشعيب الجربه الذي يأتي من عند أسفل سعدي قليلاً ناحية الجنوب الغربي. ثم تتبعنا سعدي لمسافة ميل واحد، إلى قرب رأسه في طرف سهل أخضر معشب، يكون سرجاً ضحلاً يفصل بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي لقلنسوة البازلت، وقد كانت المسافة إلى ممر عقبة شراقب قصيرة، والتي استقر بنا المقام عليها لنعسكر على ارتفاع (٧٨٠٠) قدماً فوق مستوى البحر. وكان المنظر من حولنا رائعاً يستعرض أمامنا جبال تهامة في هذه المنطقة. استغرق سيرنا مسافة ستة أميال، مع مسيرة متقطعة لأكثر من ثلاث ساعات لنقضي خلالها المسافة بين الحوط والممر وكان أول ما فعلته حين وصلنا إلى المعسكر هو أن أعدّ نفسي لنوم عميق عند الظهيرة، ولقد نمت نوماً عميقاً مدة ساعتين وصحوت وأنا مرتاح ومنتعش، وغير راغب في أي نشاط كبير.

(١) توجد مثل هذه المباني المشيدة بالحجر ثم الطين في مناطق عديدة من جنوبي البلاد السعودية وبخاصة في بلاد قحطان وشهران وما حولها. (ابن جريس).

أحسست بأن فرصة تسلق سعدي يجب ألاَّ تضيع، وعند الساعة الخامسة مساءً، بعد تسلق مرهق فوق سفحها الرفرفي البازلتي الصعب، وقفت على قمتها ومعي مرشدي نقوم بمسح الأرض الموعودة التي تمتد أمامنا. لقد كانت القمة على ارتفاع (٥٠٠) قدم فوق معسكرنا على الممر وعلى ارتفاع (٨٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكان المنظر يستحق الجهد الذي بذلناه للوصول إليه. وكان مرشدي الرئيس والمتخصص في هذه المهمة، والذي قدمه لي دليم بنفسه، واسمه عايض بن شري وهو من آل حيان تحت قسم آل سريع (تهامة) مجموعة سنحان، وكان يقوم بمساعدته رجل من الأصل نفسه إلاَّ أنه من درجة اجتماعية أقل. كانت الأحوال هنا، عند هذا الارتفاع، وعلى جبل مكشوف لطيفة بدرجة مدهشة. كما هي لطيفة أيضاً في المعسكر أثناء الليل، غير أن كلا المرشدين وهما من رجال أسفل الوادي، قد طلبا الأذن لقضاء الليل أسفل الوادي مع مواطنيهم مع الوعد بالعودة عند الفجر لنبدأ مسيرتنا.

كان منظر جبال تهامة من عند القمة على الرغم من الضباب الخفيف الذي تكاثف أكثر بالضوء المنتشر للشمس الغاربة. لقد كان مرشداي يعرفان بلادهما جيداً، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها فكرة أقرب إلى الحقيقة حول الأسماء الصحيحة للسمات الرئيسة للمناظر الرائعة التي تتكون من سلسلة وراء سلسلة من جبال عظيمة شامخة من فوق أوديتها إلى قمم وسلاسل ترتفع إلى (٧٠٠٠) قدم أو أكثر. ولقد كان هذا هو أفضل منظر تحصلت عليه حتى الآن. كانت قمة سعدي مثلها مثل القمم التي كنت قد تسلقتها، بسفوحها العارية التي تتبقع بأشجار الطلح الجافة، غير أنه لا يوجد أثر لأشجار العرعر. ويمكن الافتراض بأن كل هذه القلنسوة البركانية لجرف السراة الرئيس من عند جبل عبيدة جنوباً إلى علب، وابن مرعي والأخريات لها الخصائص ذاتها وهي الكآبة والخلو من النبات وعدم الجاذبية. تقوم جبال تهامة باعتراض معظم الرياح الموسمية الممطرة، وتستمتع بمجموعة نباتية وبمجموعة حيوانية تحت مدارية مزدهرة في مقابل الظروف الصحراوية للهضبة وسلسلة الجرف. لم أقطع شريط تأملاتي في هذا

المنظر إلاَّ قليلاً قبل غروب الشمس وها قد غربت الشمس بالفعل ونحن في منتصف الطريق إلى أسفل التل. لقد أرسلت المرشدين إلى المعسكر وجلست لأفطر على تبغ غليون كنت انتظره بكل رفاهية العزلة. وقد وجدت حجلاً، عند عودتي للمعسكر بعد نصف ساعة، وقد تم طبخه لي، وكان لحمه طرياً ولذيذاً برغم أن هذه كانت المرة الأولى لي التي أتناول فيها لحم طائر كان قد قتل بالرصاص ليصير عينة متحفية. لقد تخلصت الآن تقريباً من قروحي وقد أحسست بالعافية في هذا المساء بالذات، والشكر يعزى لفترة الراحة الطويلة ولتسلقي التل الذي تلي تلا الراحة[1].

انقضت من رمضان الآن عشرون يوماً، وبقيت عشرة أيام ولم أذق فيها الماء حتى الآن. لم يؤثر ذلك على الصيام تأثيراً ضاراً، غير أنني أحس بالرغبة في النوم عند الظهيرة، وقد اعتدت على السهر في كل الليالي حتى الساعة الواحدة صباحاً أكتب مذكراتي وأحلل ملاحظاتي، ثم أنام حتى الساعة (٤,٣٠) حين نستيقظ لتناول السحور قبل الفجر، وعند الساعة (٥,٣٠) أعود مرة أخرى إلى النوم حتى الساعة الثامنة، وحينها أصحو على حركة زملائي وهم يتهيأون لبداية مسيرة يوم جديد.

كانت لدينا هذا المساء الميزة الإضافية لمناسبة عظيمة فقد كان معسكرنا يقف على قمة رأس العالم، والتي من عندها ألقيت نظرة في الصباح على الجبال وقد التحفت الضباب الخفيف الذي تخللته ألوان مختلفة بأشعة الشمس القادمة. ارتفعت طبقة من سحب خفيفة فوق البحر البعيد، والذي – حسب ما رواه مرشداي – لا يمكن رؤيته مطلقاً من هذا الموقع. لقد رأيت بعيداً ناحية الجنوب في وقت صلاة الفجر، نجم صليب الجنوب لأول مرة هذا الشتاء. ثم هبت علينا رياح جنوبية شرقية باردة مدة ساعة عند منتصف الليل إلاَّ أنها سكنت مع الفجر، وكانت لطيفة جداً، كانت أدنى درجة للحرارة أثناء الليل (٣٥) درجة فهرنهايت أو قريباً من ذلك.

---

(١) الشكر هو لله عز وجل، فهو الشافي لجميع العلل وليست (فترة الراحة الطويلة) هي التي شفت فيلبي من أمراضه. (ابن جريس).

لقد أمضيت الساعات الأولى من الصباح، قبل أن نبدأ المسيرة، في آخر جولة من زوايا المزواة على النقاط الرئيسة التي تمت ملاحظتها من عند قمة سعدي في اليوم السابق، تحسباً لأن تكون اتجاهات بوصلتي في ذلك المكان قد تأثرت بظاهرة المغناطيس في الصخور البازلتية المزعجة جداً في كل هذه البلاد البركانية. لقد كانت هنالك اختلافات بين القراءتين.

لقد احتضن المنظر من قمة سعدي إطاراً واسعاً من هذه البلاد الجبلية، ممتداً من سلسلة تمنية بجوار أبها تجاه غرب الشمال الغربي عبر زهوان (جبل الريث) وسلسلة الصهاليل إلى قمم كل من حشر وطلان وثهران حاجبة فيفا نفسه، ومنها إلى الحرف مرة أخرى إلى الجنوب من موقعنا. يمكن رؤية مسيل شعيب مجزع القرض وهو يهبط من قرب رأس ممر شراقب، بينما من جهة الجنوب من سعدي - على مسافة الميلين - يجري مسيل مشابه يسمى ضعان إلى أسفل ليقابله بالغرب مشرب العينة، وهو أول أهدافنا في تهامة. مسيل ثالث من عند الجرف قليلاً ناحية الجنوب من ضعان، واسمه رحا[١]، ليتصل مع المسيلين الآخرين بالقرب من الموقع نفسه. يقبل مسيل رابع من عند الجرف فيما يلي مجزع القرض (إلى شماله) واسمه سححة بينما يرسل بازلت مصقوع مسيل حده ليتصل مع المجرى الرئيس، واسمه العطف ويقع أسفل عينة حيث يدخل رافد حرره من عند التلال ناحية الجنوب. يكون هذه المسايل للجرف رأس وادي بيش[٢]، وهو خط الصرف الرئيس لكل بلاد تهامة التي تواجهنا غير أن التسمية المحلية تصنفها إلى أقسام مختلفة، لكل منها اسمه الخاص به. فمثلاً يتخذ العطف الذي يبدأ عند سفح الجرف الفعلي، اسم الفرشة الذي يجري داخل لحج، الذي يصبح اسمه رحا والذي بدوره يتحول إلى بيش. علينا الآن أن نعبر أسفل كل هذا النظام حتى نصل إلى البحر، بعد أن انتهينا من الهضبة العظيمة ومن جرفها.

---

(١) وادي رحا: يكتبه بعض المؤلفين باسم وادي (راحة) وأحياناً وادي (رحة) والسليم هو (وادي رحا). (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أعالي وادي بيش، وأجزاء عديدة من تهامة قحطان ووادعة التي يأتي منها عدد من روافد بيش، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢ ص ١٨٢ ــ ١٨٩ . (ابن جريس).